اخترت لك من التراث



مشاهد يوم القيامة وأهوالها

للإمام القرطبي المتوفى سنة ٦٧١ هـ

تحقيق .. وتعليق .. وتقديم

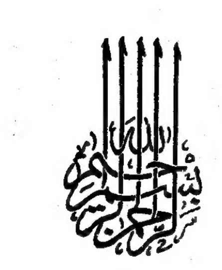
محمد ابراهيم سليم

مكتبة القرآن

للطبع و النشر و التوزيع

٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق

القاهرة - ت : ٧٦١٩٦٢



كلمة المحقق

بسم الله .. له الحمد فى الأولى والآخرة .. وله الحكم .. وإليه نرجع .. وبعد ..

فسوف تظل كنوز الحضارة الإسلامية التى أنتجتها ، ونمَّتها ، وتوارثتها الأمة عَبْر تاريخها الطويل منارة تهتدى بهداها الأجيال جيلا بعد جيل . وسيبقى التراث الإسلامى الشامخ موردا عذبا ، ومنهلا صافيا تتعلق به الآمال ، وتهفو إليه أعناق الرجال ! ما بقيت الحياة !

ولا عجب فقد بذل علماء أمتنا الأجلاء – سلفا وخلفا – الجهد الصادق ليقدموا لأبناء أمتهم العلم الكثير ، والغذاء الروحى الوفير ؛ مما يجعلنا – نحن الأبناء – مدينين لهم – ما حيينا – لفضلهم ، وسبقهم ، وعطائهم ، وتضحياتهم فى هذا المجال .

وخير ما نقدمه لهم ولمن يأتى بعدهم أن نعمل على إحياء تراثهم وإخراجه فى صورة تلائم ما هو عليه من سمو فكر ، وعلو قدر !

وقد أثبتت الدراسات والبحوث التى أجريت فى شتى أنحاء العالم أن اهتمام القراء يتصاعد ويتزايد بالعالم الآخر والغيبيات وقضايا الساعة ، وأمور الآخرة .. وليس هذا بمستغرب ... فالآخرة مستقبل المؤمن .. وهى يوم الحصاد .. فإما نعيم مقيم ، وإما عذاب مستديم !

وإذا كان « المحدثون » قد زاحموا « القدامى » فى الكتابة عن أمور الدنيا فسوف يظل « للقدامى » سبقهم وفضلهم فى الحديث عن أمور الآخرة . فى تجلية غوامضها وكشف أسرارها ، وتناول شتى جوانبها على ضوء ما جاء فى القرآن وبينته السنة الشريفة .

ولا نكاد نعلم أن أحدا من العلماء قد تصدى للحديث عن يوم القيامة وأهواله ، والفزع الأكبر فيه متناولا جميع أحداثه ومشاهده ومواقفه بالشرح

والتحليل ، مثل الإمام العالم المفسر محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى فى كتابه القيم : « التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة » .

ولما كان هذا الكتاب يقع فى مجلد ضخم ، ويتناول بين دفتيه قضايا متعددة ، كالموت ، وعلامات الساعة ، والتخويف من النار ، ونعيم الجنة — فقد رأينا أن نفرد للقراء الجزء المتعلق بيوم القيامة فى كتاب مستقل تحت عنوان : « يوم الفزع الأكبر » . وذلك ليتسنى لنا توضيح الغامض من عباراته ، وتفسير ما يصادف القارىء من إشاراته ، إلى جانب وضع عناوين مناسبة لكثير من فقراته ومسائله وموضوعاته .

وكان علينا — إلى جانب هذا وذاك — أن نقدم بين يدى كل باب من أبوابه التسعة تمهيدا لطيفا يأخذ بيد القارىء ، ويتيح له قراءة أفضل ومتعة أجمل ، ومعايشة للإمام القرطبى — فى بعض تذكرته — أحلى وأكمل !

وبعد : — أيها القارىء .. فاليوم الآخر يوم طويل .. طويل .. تقشعر منه الجلود .. وتنخلع لهوله القلوب .. يوم مقداره خمسون ألف سنة !! تعرض فيه الأعمال .. ويتقرر فيه المصير .. إنه يوم عصيب !!

ألا يستحق ذلك منا وقفة تأمل وتذكر واعتبار ؟!.. وقفة نتدارس فيها ما بعد الموت .. وقفة مع النفس .. ومع الخالق الله الواحد القهار الذى ليس لغيره الملك فى هذا اليوم . ﴿ **لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار** ﴾ .

إنها وقفة نتدارس فيها أمور الآخرة وأسرارها علها توصلنا إلى بر النجاة والأمان .. وقبل أن يفوت الأوان !

فَهيًّا إلى طريق النجاة من « يوم الفزع الأكبر » .

نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . آمـين .

المحقـق

الكتاب والمؤلف فى كلمـات

أما الكتاب فهو :

« التذكرة : فى أحوال الموتى ، وأمور الآخرة »

وأما المؤلِّف فهو :

الإمام الفقيه ، العالم المجتهد محمد بن أحمد بن أبى بكر ، بن فرح الأنصارى الخزرجى الأندلسى القرطبى أبو عبد الله المتوفى سنة ٦٧١ هـ .

ومن مؤلفاته :

١ - الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى الفرقان .

٢ - الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام ، وإظهار محاسن دين الإسلام ، وإثبات نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

٣ - التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة .

وهدف المؤلف من وراء تصنيف هذا الكتاب :

أن يكون هذا الكتاب تذكرة لنفسه ، وعملا صالحا بعد موته ، فى ذكر الموت ، وأحوال الموتى ، وذكر الحشر والنشر ، والجنة والنار ، والفتن والأشراط .

مصادر كتاب التذكرة وقيمته العلمية :

يقول المؤلف : « نقلته من كتب الأئمة ، وثقات أعلام هذه الأمة حسب ما رأيته رويته ، وسترى ذلك منسوبا مبينا » .

الطريقة التى اتبعها فى تصنيف الكتاب :

يقول : « بوبته باباً باباً ، وجعلت عقب كل باب فصلا أو فصولا نذكر فيه ما يُحتاج إليه من :

١ – بيان غريب .
٢ – أو فقه فى حديث .
٣ – أو إيضاح مشكل .

لتكمل فائدته ، ويعظم نفعه ، وقد جاء كما أراد كامل الفائدة ، عظيم النفع .

رسالة المؤلف التى يحملها كتابه لقارئيه :

هى : « التفقه فى حديث رسول الله ؛ إذ هو المعنِيّ المقصود ، والعمل الموجود ، فى المقام المحمود ، واليوم المشهود » .

ولقد أراد المؤلف فى كتاب التذكرة أن يحقق التفقه فى حديث رسول ، بعد أن حقق فى كتابه « الجامع لأحكام القرآن » التفقه فى كتاب الله .

فجمع بهذا العمل بين الحسنيين ، ونال الشرفين ، وحقق لقارئيه كلا الهدفين ، والحق أن كتاب التذكرة من الكتب التى لا تنسى ؛ فهو يغنى – فى مجاله – عن كل الكتب ، ولا تغنى عنه كل الكتب المؤلفة .

القسم الذى نقدمه لك :

يتناول أحداث اليوم الآخر ... يوم القيامة .. « يوم الفزع الأكبر » ومشاهده وأهواله بدءاً ونهاية ، ويا له من يوم طويل طويل .

العنوان الذى وقع عليه اختيارنا :

يوم الفزع الأكبر .

أقسام الكتــــاب :

قسمناه تسعة أقسام ، كل قسم يضم مجموعة من الأبواب والفصول ووضعنا لكل قسم عنوانا ينضوى تحته ما يلائمه من أبواب الكتاب وفصوله ، وحرصنا على أن نضع عناوين لما يطول من الفقرات ، وللفصول التى جاءت بلا عنوان ، ووضعنا بين يدى كل قسم تقديما يتيح للقارىء معايشة القرطبى ومصاحبته فى رغبة وشوق ، وها هى ذى أبوابه التى وضعْنا عناوينها :

الباب الأول : نهاية .. وبدايــة .

الباب الثانى : مع الحشود الهائلة على أرض المحشر .

الباب الثالث : الفزع الأكبر ، والهول الأعظم .

الباب الرابع : الشفاعة ، والمقام المحمود .

الباب الخامس : الحســـاب .

الباب السادس : الشهـــادة .

الباب السابع : الورود على الحوض .

الباب الثامن : المـــيزان .

الباب التاسع : على الصـــراط .

أصــول الكتــاب :

١ – تشير فهارس قسم المخطوطات بدار الكتب المصرية إلى وجود أكثر من نسخة خطية .

٢ – ويضم معهد المخطوطات العربية نسختين مصورتين تستندان إلى الأصل الخطى الذى يرجع تاريخه إلى سنة ٩٠٢ هـ . كما كتب فى أوله . وتقع هذه النسخة المصبورة فى جزءين .

٣ – جرت محاولة لاختصار الكتاب على يد « محمد بن على السحيمى » ١١١٨ هـ فى ٢٠٨ ورقات خط ١٢٧٣ هـ ، وهناك ثلاث نسخ خطية من هذا المختصر بدار الكتب المصرية تحت اسم « التذكرة الفاخرة فى أحوال الآخرة » .

٤ – طبع الكتاب فى مصر ، ولكنه لم يلق – حتى الآن – من الجهد العلمى فى تحقيقه ما يرقى إلى مستوى مؤلفه فيجرده مما لحق به من تحريف أو تصحيف ، ويخلصه من شوائب عدم الترقيم ، وتداخل الآيات ، وعدم تخريجها ، إلى غير ذلك .

كما أن أحدا لم يتصد – حتى الآن – لتقديمه للمسلمين فى

الصورة اللائقة عرضا وإخراجا ، وضبطا وتعليقا وتحقيقا .

وها نحن أولاء نقدمه لك ، فها هو ذا بين يديك .

وقبل أن تعيش مشاهد « يوم الفزع الأكبر ، وعجائب يوم القيامة » ، نَهمسُ فى أذنك بهذه النصيحة الغالية :

قال أبو حامد – عن عجائب يوم القيامة :

« وفى طبعِ الآدميِّ إنكارُ ما لم يأنس به ولم يشاهده !!
ولو لم يشاهد الإنسان الحَيَّةَ وهى تمشى على بطنها لأنكر المشى من غير رِجلٍ !!

والمشى بالرجل مستبعد عند من لم يشاهد ذلك !!
فإياك أن تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة ؛ لمخالفتها قياس الدنيا !! فإنك لو لم تشاهد عجائب الدنيا ، ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكاراً لها !!

فأَحْضِر – رحمك الله – فى قلبك صورتك ...

وأنت قد وقفت عاريا !!، ذليلا .. مدحوراً ... متحيرا ... مبهوتا ... منتظرا لما يجرى عليك من القضاء .. بالسعادة .. أو بالشقاء !! » [أبو حامد الغزالى] .

والله نسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير لأمتنا
والحمد لله أولا وأخيرا .

محمد إبراهيم سليم

القاهرة فى : ربيع الأول ١٤٠٥ هـ
ديسمبر ١٩٨٤ م

الباب الأول

نهايـــة .. وبدايـــة

مقدمـــات

﴿ فهل يَنْظُرونَ إلا السّاعـةَ
أن تأْتِيَهمْ بَغْتَـــةً ...
فقد جاءَ أشراطُهـــا !! ﴾

[١٨ – سورة محمـد]



بين يــدى الباب الأول

« يوم الفزع الأكبر » هو يوم القيامة .. يوم له ما قبله .. وله ما بعده ولا يمكن لأحد أن يعزله عما يسبقه من أحداث ، وعلامات ، وأمارات وأشراط .

لذا كان علينا أن نقدم عملا متكاملا يحقق الهدف المرجو للمسلمين والمسلمات ويتيح للجميع أن يشهدوا مع « الإمام القرطبى » نهاية هذه الدنيا الفانية ، وبداية الأخرى الباقية .

وفى هذا الباب يصحبك « الإمام القرطبى » فى رحلة روحية ممتعة لتشهد النهاية والبداية ..!! أو قل عملية الانتقال من دار الأعمال إلى دار شقوة أو رشاد .

إنه يحدثنا – فى هذا الباب – عن علامات الساعة وأشراطها ..

وعن النفخ – الأول – فى الصور ، وما يترتب عليه من صعق لكل من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله .

ولا يتركك تتساءل : من أولئك الذين استثناهم الله من الصعق ؟ حتى يعرض عليك أقوال العلماء فى أمانة ونزاهة ودقة .

ويخلص من هذا كله إلى تسجيل الحقيقة الخالدة وهى :

« فناء العباد ، وبقاء الملك للمالك – سبحانه – الواحد القهار ، الحى الباقى » .

وعندما يكون النفخ الثانى فى الصور يكون البعث والنشور .. حيث نكون قد وصلنا – مع الإمام القرطبى – إلى البداية .. بداية « يوم الفزع الأكبر » لنشهد أحداثه ، ومواقفه .. ومشاهده .. على امتداد الأبواب القادمة .

ولا يكاد ينتهى هذا الباب حتى يجيب عن تساؤلات تعرض لنا وقد يحار الفهم فيها :

* أين يكون الناس عند طى الأرض والسموات ؟
* كم بين الموت والبعث ؟
* من أول من تنشق عنه الأرض ؟
* من أول من يحيا من الخلق ؟
* ما السن التى يخرجون عليها من قبورهم ؟
* وبأى لسان يتكلمون ؟
* ما حقيقة النفخ فى الصور ؟ وكم عدد النفخات ؟
* من صاحب الصور من الملائكة ؟
* ما أول ما يخلق من الإنسان ؟
* أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟

وأخيرا يلقى الضوء على معنى قول الله تعالى : ﴿ **وألقت ما فيها وتخلت** ﴾ ويحدثنا عن بعث النبى ﷺ من قبره ، وعن بعث الأيام والليالى ويوم الجمعة ، ويصور لنا قيام العبد المؤمن من قبره حيث يتلقاه عمله .. كل ذلك تجده فى هذا الباب ، فهيا فى صحبة الإمام القرطبى ، وهنيئا لك بهذه الصحبة !!

* * *

أشراط .. وعلامـات .. ومقدمـات !!

روى مسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين – لا أدرى : أربعين يوما أو أربعين شهرا ، أو أربعين عاما – فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم عليه السلام كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله عز وجل ريحا باردة [1] من قبل الشمال ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ؛ حتى إن أحدكم لو دخل فى كبد [2] جبل لدخلت عليه حتى تقبضه ، فيبقى شرار الناس فى خفة الطير ، وأحلام [3] السباع ، لا يعرفون معروفا ، ولا ينكرون منكرا ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم فى ذلك دارٌّ [4] رزقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ، ورفع ليتا » .

قال : «فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله ، فيصعق ، ويصعق الناس » .

ثم قال : « يرسل الله ، أو قال : (ينزل الله) مطرا كأنه الطل ، فينبت منه أجساد الناس : ﴿ **ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ ثم يقال : يأيها الناس : هلموا إلى ربكم ﴿ **وقِفوهم إنهم مسئولون** ﴾ ثم يقال : أخرجوا بعث النار ، فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين » ، قال : « فذلك يوم يجعل الولدان شيبا ، وذلك يوم يكشف عن

---

(١) تكون الريح منذرة بشر ، أما الرياح فبخير ؛ ولهذا كان من دعاء النبى ﷺ : « اللهم اجعلها رياحا ، ولا تجعلها ريحا » .

(٢) كبد جبل : يقصد داخله .

(٣) أحلام السباع : عقولها .

(٤) كثير .

ساق » . مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بين النفختين أربعون» قالوا : يا أبا هريرة ، أربعين يوما ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعين شهرا ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعين عاما ؟ قال : أبيت . ثم ينزل الله من السماء ماء ، فينبتون كما ينبت البقل .

قال : « وليس من الإنسان شيء إلا يبلى . إلا عظما واحدا » وفى رواية : « لا تأكله الأرض أبدا » . وهو عجْبُ الذنب [١] . ومنه يركب الخلق يوم القيامة . وعند ابن وهب فى هذا الحديث : « فأربعون جمعة » قال : أبيت . وإسناده منقطع [٢] .

فصل

فى التعليق على ما جاء فى الحديثين السابقين

هذان الحديثان – مع صحتهما – فى غاية البيان فيما ذكرناه ، ويزيدهما أيضا بيانا فى أبواب ، ويأتى ذكر الدجال مستوعبا فى الأشراط [٣] . إن شاء الله تعالى ، و« أصغى ليتاً » معناه : أمال صفحة العنق ، ويلوط حوض : يطينه ويصلحه .

وقول أبى هريرة : أبيت – فيه تأويلان :

(الأول) : أبيت : أى امتنعت من بيان ذلك وتفسيره . وعلى هذا كان عنده علم من ذلك أى سمعه من النبى ﷺ .

(الثانى) : أبيت : أى أبيت أن أسأل عن ذلك النبى ﷺ – وعلى هذا لم يكن عنده علم من ذلك .

والأول أظهر ، وإنما لم يبينه ، لأنه لم ترهق [٤] لذلك حاجة ، ولأنه

---

(١) العَجْب بوزن العقل : هو ما ضُمت عليه الورك من أصل الذنب وهو العُصْعُص .

(٢) الإسناد : هو سلسلة الذين نقلوا الحديث (بعضهم عن بعض) ويقال : إن الحديث منقطع الإسناد عندما يسقط من وسط إسناده ، واحد أو أكثر لا على التوالى ، وعرف عدم معاصرة الراوى لمن روى عنه . والحديث المنقطع ضعيف باتفاق العلماء للجهل بحال الراوى المحذوف .

(٣) الأشراط : العلامات جمع شرَط . وفى القرآن : ﴿ **فقد جاء أشراطها** ﴾ [من الآية ١٨ من سورة محمد] .

(٤) أى لم يكن هناك ضرورة داعية لذلك .

ليس من البينات والهدى الذى أمر بتبليغه .

وفى البخارى عنه أنه قال : « حفظت وعاءين من علم : فأما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته لقطع منى هذا البلعوم » . قال أبو عبد الله : البلعوم : مجرى الطعام . وقد جاء أن بين النفختين أربعين عاما . والله أعلم . وسيأتى .

وذكر هناد بن السرى قال : حدثنا وكيع عن سفيان عن السدى : سألت سعيد بن جبير عن هذه الآية : ﴿ **له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك** ﴾ [1] فلم يجبنى . فسمعنا أنه ما بين النفختين .

حدثنا وكيع عن أبى جعفر الرازى عن أبى العالية ﴿ **وما بين ذلك** ﴾ قال : ما بين النفختين . والله أعلم .

باب فى قول الله تعالـى :
﴿ ونُفِخَ فى الصُّورِ فصَعِقَ مَن فى السمواتِ ومَن فى الأرضِ إلا ما شاءَ اللهُ ﴾ [2]

... وهم الملائكة ، أو الشهداء ، أو الأنبياء ، أو حملة العرش ، أو جبريل ، أو ميكائيل ، أو ملك الموت .

وروى الأئمة عن أبى هريرة قال : قال رجل من اليهود - بسوق المدينة - : (والذى اصطفى موسى على البشر) . فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه . قال : تقول هذا وفينا رسول الله ﷺ ؟ فذكرت ذلك لرسول الله . فقال : « قال الله عز وجل : ﴿ **ونُفِخَ فى الصُّورِ فصَعِقَ مَن فى السموات ومَن فى الأرضِ إلا من شاء الله ثم نُفِخَ فيه أُخرى فإذا هُم قِيامٌ ينظرون** ﴾

---

(1) الآية رقم ٦٤ من سورة مريم .

(2) صعق : مات . والآية رقم ٦٨ من سورة الزمر .

فأكونَ أولَ مَن رَفَع رأسَه ، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش فلا أدرى أرَفَع رأسه قبلى ، أو كان مِمَّن استثنى الله [1] . ومَن قال : أنا خيرٌ مِن يونسَ بنَ متى فقد كذب » .

قال الترمذى : حديث حسن صحيح ، وأخرجه البخارى ومسلم بمعناه .

اختلاف العلماء فى المستثنى :

واختلف العلماء فى المستثنى من هو ؟ فقيل : الملائكة ، وقيل الأنبياء وقيل الشهداء ، واختاره الحليمى . قال : وهو مروى عن ابن عباس أن الاستثناء لأجل الشهداء ؛ فإن الله يقول : ﴿ **أحياءٌ عند ربِّهم يُرْزَقون** ﴾ [2] وضعف غيره من الأقوال .

وقال شيخنا أبو العباس : والصحيح أنه لم يرد فى تعيينهم خبر صحيح . والكل محتمل .

قلت : وقد ورد حديث أبى هريرة بأنهم الشهداء وهو الصحيح على ما يأتى .

وأسند النحاس فى كتاب معانى القرآن له عن سعيد بن جُبير فى قول الله عز وجل : ﴿ **إلا من شاء الله** ﴾ قال : هم الشهداء ، هم ثنية [3] الله عز وجل متقلدو السيوف حول العرش .

وقال الحسن : استثنى طوائف من الملائكة [4] يموتون بين النفختين [5] .

---

(١) فى قوله سبحانه : ﴿ **إلا من شاء الله** ﴾ فقد استثنى من الصعق من يشاء .
(٢) الآية رقم ١٦٩ من سورة آل عمران .
(٣) أى من استثناهم الله ممن يصعقون ويموتون .
(٤) حملة العرش ، وجبريل ، وميكائيل ... وغيرهم من أهل السماء .
(٥) نفخة الصعق ، ونفخة البعث .

قال يحيى بن سلام فى تفسيره : بلغنى أن آخر من يبقى منهم : جبريل وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت ، ثم يموت جبريل وميكائيل وإسرافيل ، ثم يقول الله عز وجل لملك الموت : مت . فيموت وقد جاء هذا مرفوعا فى حديث أبى هريرة الطويل على ما يأتى .

وقيل : هم حملة العرش ، وجبريل ، وميكائيل ، وملك الموت .

وقال الحليمى : من زعم أن الاستثناء لأجل حملة العرش ، أو جبريل وميكائيل وملك الموت ، أو زعم أنه لأجل الولدان والحور العين [1] فى الجنة ، أو زعم أنه لأجل موسى حيث إن النبى ﷺ قال : « أنا أول من تنشق عنه الأرض ، فأرفع رأسى فإذا موسى متعلق بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أفاق قبلى أو كان ممن استثنى الله عز وجل ؟ » فإنه لم يصح شىء منها .

أما الأول : فإن حملة العرش ليسوا من سكان السموات والأرض ، لأن العرش فوق السموات كلها ، فكيف يكون حملته فى السموات ؟!

وأما جبريل وميكائيل وملك الموت فمن الصافّين المسبحين حول العرش .

وإذا كان العرش فوق السموات لم يكن الاصطفاف حوله فى السموات .

وكذلك القول الثانى ، لأن الولدان والحور فى الجنة ، والجنان – وإن كان بعضها أرفع من بعض – فإن جميعها فوق السموات ودون العرش .

وهى بانفرادها عالم مخلوق للبقاء ، فلا شك أنها بمعزل عما خلق الله تعالى للفناء .

وصرف الاستثناء إلى موسى لا وجه له ؛ لأنه قد مات بالحقيقة ، فلا يموت عند نفخ الصور موتة ثانية ؛ ولهذا كله لم يعتد فى ذكر اختلاف المتأولين

---

(١) الحور : جمع حوراء ، وهى المرأة التى فى عينها حور وهو شدة البياض فى شدة سوادها والمرأة العَيْناء واسعة العينين ، ويقال للرجل : أعْيَن . والجمع : عِينٌ .

فى الاستثناء بقول من قال : إلا من شاء الله ، أى الذين سبق موتهم على نفخ الصور ، لأن الاستثناء إنما يكون لمن يمكن دخوله فى الجملة ، فأما من لا يمكن دخوله فيها فلا معنى لاستثنائه منها ، والذين ماتوا قبل نفخ الصور ليس بغرض أن يصعقوا فلا وجه لاستثنائهم . وهذا فى موسى موجود فلا وجه لاستثنائه .

وقال النبى ﷺ فى ذكر موسى ما يعارض الرواية الأولى وهو أن قال : « الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق . فإذا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أفاق قبلى أو جوزى بصعقة الطور ؟ » فظاهر هذا الحديث أن هذه صعقة غشى تكون يوم القيامة ، لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور .

وصرف ذكر يوم القيامة إلى أنه أراد أوائله – قيل : المعنى – أن الصور إذا نفخ فيه أخرى كنت أول من يرفع رأسه ، فإذا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أفاق قبلى أو جوزى بصعقة الطور (١) ؟ أى فلا أدرى أبعثه قبلى كان وهبا له وتفضيلا من هذا الوجه ، كما فضل فى الدنيا بالتكليم ، أو كان جزاء له بصعقة الطور ، أى قدم بعثه على بعث الأنبياء الآخرين بقدر صعقته عندما تجلى ربه للجبل إلى أن أفاق ليكون هذا جزاء له بها !

وما عدا هذا فلا يثبت . قال شيخنا أحمد بن عمر : وظاهر حديث النبى ﷺ يدل على أن ذلك إنما هو بعد النفخة الثانية نفخة البعث . ونص القرآن يقتضى أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق .

ولما كان هذا .. قال بعض العلماء : يحتمل أن يكون موسى عليه السلام ممن لم يمت من الأنبياء ، وهذا باطل بما تقدم من ذكر موته .

---

(١) عندما طلب من الله أن يراه : ﴿ **قال رب أرنى أنظر إليك قال : لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ...** ﴾ [١٤٣ – الأعراف] .

وقال القاضى عياض : يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشر [١] حين تتشقق السموات والأرض ، قال : فتستقل الأحاديث والآيات . والله أعلم .

قال شيخنا أبو العباس : وهذا يرده ما جاء فى الحديث : أنه عليه السلام حين يخرج من قبره يلقى موسى وهو متعلق بالعرش ، وهذا إنما هو عند نفخة البعث . قال شيخنا أحمد بن عمر : والذى يزيح هذا الإشكال – إن شاء الله تعالى – أن الموت ليس بعدم محض [٢] ، وإنما هو انتقال من حال إلى حال ، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين مستبشرين ، وهذه صفة الأحياء فى الدنيا ، وإذا كان هذا فى الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى ، مع أنه قد صح عن النبى ﷺ : « أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء » . وأن النبى ﷺ قد اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس ، وفى السماء وخصوصا بموسى ، وقد أخبرنا النبى ﷺ بما يقتضى أن الله تبارك وتعالى يرد عليه روحه حتى يرد السلام على كل من يسلم عليه إلى غير ذلك ، مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء ، ولا يراهم أحد من نوعنا إلا من خصه الله بكرامة من أوليائه .

وإذا تقرر أنهم أحياء ؛ فإذا نفخ فى الصور نفخة الصعق صعق كل من فى السموات والأرض إلا من شاء الله ، فأما صعق غير الأنبياء فموت ، وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية فإذا نفخ فى الصور نفخة البعث ، فمن مات حيى ، ومن غشى [٣] عليه أفاق وكذلك قال ﷺ فى صحيح مسلم والبخارى : « فأكون أول من يفيق » . وهى رواية صحيحة وحسنة ، فنبينا ﷺ أول من يخرج من قبره قبل الناس كلهم : قبل الأنبياء وغيرهم إلا موسى

---

(١) هناك بعث : وهو إحياء الله الناس من قبورهم ، ومثله النشر ، أما الحشر فهو جمعهم مع سوق إلى المحشر يوم الحشر الأكبر .

(٢) أى خالص ، لا تخالطه حياة ، ولا تعقبه حياة . وليس الموت كذلك .

(٣) غيبوبة أو إغماءة يفيق بعدها .

فإنه حصل له فيه تردد : هل بعث قبله من غشيته ؟، أو بقى على الحالة التى كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقا ، لأنه حوسب بغشية الطور ؟! وهذه فضيلة عظيمة فى حق موسى عليه السلام .

ولا يلزم من فضيلة أحد الأمرين المشكوك فيهما فضيلة موسى عليه السلام على محمد ﷺ مطلقا ؛ لأن الشيء الجزئى لا يوجب أمرا كليا . والله أعلم .

قال المؤلف : ما اختاره شيخنا هو ما ذكره الحليمى ، واختاره فى قوله : فإن حمل عليه الحديث فذاك . قال الحليمى : وأما الملائكة الذين ذكرناهم - صلوات الله عليهم - فإنا لم ننف عنهم الموت ، ولا أحلناه ، وإنما أبينا أن يكونوا هم المرادين بالاستثناء من الوجه الذى ذكرناه .

ثم قد وردت الأخبار بأن الله يُميت حملة العرش ومَلَك الموت وميكائيل ثم يميت آخر من يميت جبريل ، ويحييه مكانه ويحيى هؤلاء الملائكة الذين ذكرناهم .

وأما أهل الجنة فلم يأت عنهم خبر ، والأظهر أنها دار الخلد ؛ فالذى يدخلها لا يموت فيها أبدا مع كونه قابلا للموت . والذى خلق فيها أولى أن لا يموت فيها أبدا ؛ فإن الموت لقهر المكلفين ، ونقلهم من دار إلى دار ، وأهل الجنة لم يبلغنا أن عليهم تكليفا ، فإن أعفوا من الموت كما أعفوا من التكليف لم يكن بعيدا !!

فإن قيل : قال الله تعالى : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ [1] وهو يدل على أن الجنة نفسها تفنى ثم تُعاد يوم الجزاء ، فَلِمَ أنكرتم أن يكون الولدان والحور يموتون ثم يحيون ؟

قيل : يحتمل أن يكون معنى قوله : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ أى ما من شيء إلا وهو قابل للهلاك فيهلك إن أراد الله به ذلك إلا وجهه ، أى إلا هو - سبحانه -؛ فإنه - تعالى - قديم ، والقديم لا يمكن أن يفنى ، وما

---

(١) سورة القصص آية : ٨٨ .

عداه محدَث ، والمحدَث إنما يبقى قدر ما يبقيه مُحْدِثه ، فإذا حبس البقاء عنه فنى ، ولم يبلغنا فى خبر صحيح ولا معلول [1] أنه يهلك العرش ، فلتكن الجنة مثله !

* * *

---

(١) أى حديث به علة تقدح فى صحته . وهو يريد أنه لم يبلغه خبر - حتى ولو كان معلولا - (أنه يهلك العرش) .

كذب من يقول : أنا خير من يونس بن متى !!

(**فصل**) مزيد بيان لما جاء فى الحديث : « ومن قال : أنا خير من يونس ابن متى فقد كذب » .

قوله ﷺ فى الحديث : « ومن قال : أنا خير من يونس بن متى فقد كذب » للعلماء فيه تأويلات :

أحسنها وأجملها - ما ذكره القاضى أبو بكر بن العربى قال : أخبرنى غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبى المعالى عبد الملك بن عبد الله ابن يوسف الجوينى أنه سئل : هل البارى فى جهة ؟ فقال : لا ، هو متعالٍ عن ذلك . قيل له ما الدليل عليه ؟ قال : الدليل عليه قول النبى ﷺ : « لا تفضلونى على يونس بن متى » فقيل له : ما وجه الدليل من هذا الخبر ؟! فقال : لا أقوله حتى يأخذ ضيفى هذا ألف دينار يقضى بها دينا ، فقام رجلان فقالا : هى علينا ، فقال : لا يتبع بها اثنين لأنه يشق عليه . فقال واحد : هى على . فقال : إن يونس بن متى رمى نفسه فى البحر فالتقمه الحوت ، وصار فى قعر البحر فى ظلمات ثلاث ونادى : ﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾ (١) كما أخبر الله ، ولم يكن محمد ﷺ حين جلس على الرفرف الأخضر وارتقى به صعدا حتى انتهى به إلى موضع يسمع فيه صريف الأقلام وناجاه ربه بما ناجاه به ، وأوحى إليه ما أوحى بأقرب إلى الله من يونس فى ظلمة البحر !!

قال المؤلف : فالله - سبحانه قريب من عباده ، يسمع دعاءهم ، ولا يخفى عليه حالهم . كيف ما تصرفت من غير مسافة بينه وبينهم ، فيسمع ويرى دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء ، فى الليلة الظلماء ، تحت الأرض السفلى ، كما يسمع ويرى تسبيح حملة العرش من فوق السبع السموات العلى ،

---

(١) سورة الأنبياء آية ٨٧ .

سبحانه لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا ، ولقد أحسن أبو العلاء بن سليمان المغربى حين يقول :

يا من يرى مدَّ البعوضِ جناحَها ... فى ظلمة الليل البهيم الألْيل [1]
ويرى مناطَ عروقها فى لحمها ... والمخَّ فى تلك العظام النُّحَّلِ
آجالُها محتومة ، أرزاقُها ... مقسومةٌ بعطا وإن لم تسأل
فلقد سألتك بالنبى محمد ... الهاشمى المدَّثر المزَّمل
امنن علىَّ بتوبةٍ نمحو بها ... ما كان منى فى الزمان الأول

* * *

---

(١) الألْيل : شديد السواد .

باب
يفنى العباد ويبقى الملك لله وحده

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقبض[1] الله الأرض يوم القيامة ، ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟! » .

وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله : « يطوى الله السماء يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى . ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرض بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » [انفرد به مسلم] .

وعن عبد الله بن مقسم أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يَحْكى رسول الله ﷺ : قال : « يأخذ الله سماواته وأرضيه بيديه ، فيقول : أنا الله ، ويقبض أصابعه ويبسطها فيقول : أنا الملك » حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل حتى إنى أقول : أساقط هو برسول الله ﷺ ؟!

فصل : علام تدل هذه الأحاديث ؟

هذه الأحاديث تدل على أن الله – سبحانه – يفنى خلقه أجمع – كما تقدم – ثم يقول الله – عز وجل : ﴿ **لمن الملك اليوم ؟** ﴾ فيجيب نفسه المقدسة بقوله : ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾ [2] .

وقيل : إن المنادى ينادى بعد حشر الخلق على أرض بيضاء مثل الفضة لم يعص الله عليها – على ما يأتى – ﴿ **لمن الملك اليوم ؟** ﴾ فيجيبه العباد : ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾ [3] . [رواه أبو وائل عن ابن مسعود] ، واختاره

---

(١) الله يقبض ويبسط ، وقبض الأرض ، خلاف بسطها .. وقبضها أيضا تناولها ، وهو المراد هنا .

(٢) سورة غافر آية رقم ١٦ .

(٣) الآية ١٦ من سورة غافر .

أبو جعفر النحاس قال : والقول صحيح عن ابن مسعود ، وليس هو مما يؤخذ بالقياس ، ولا بالتأويل .

قال المؤلف - رضى الله عنه - : والقول الأول أظهر ، لأن المقصود (إظهار انفراده تعالى بالملك عند انقطاع دعوى المدعين ، وانتساب المنتسبين إذ قد ذهب كل ملك وملكه ، وكل جبار ومتكبر وملكه ، وانقطعت نسبتهم ودعاويهم ، وهذا أظهر .

وهو قول الحسن ، ومحمد بن كعب ، وهو مقتضى قول الحق : « أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ » .

وفى حديث أبى هريرة ، « ثم يأمر الله عز وجل إسرافيل فينفخ نفخة الصعق ، فيصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله فإذا اجتمعوا أمواتا جاء ملك الموت إلى الجبار فيقول : قد مات أهل السماء والأرض إلا من شئتَ ، فيقول الله سبحانه - وهو أعلم - من بقى ؟ فيقول : يارب ، بقيت أنت الحى الذى لا تموت ، وبقى حملة العرش ، وبقى جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وبقيت أنا ، فيقول الله عز وجل : ليمت جبريل وميكائيل ، فيُنْطق الله عز وجل العرش ، فيقول : أىْ رب [1] ، يموت جبريل وميكائيل ؟ فيقول : اسكت ، إنى كتبت الموت على كل من تحت عرشى ، فيموتان » . قال : ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار جل جلاله فيقول : يارب ، قد مات جبريل وميكائيل ، فيقول الله سبحانه - وهو أعلم - من بقى ؟ فيقول : يارب ، بقيت أنت الحى الذى لا تموت ، وبقى حملة عرشك ، وبقيت أنا ، فيقول : ليمت حملة العرش ، فيموتون ، فيأمر الله العرش فيقبض الصور [2] من إسرافيل ، ثم يقول : ليمت إسرافيل ، فيموت .

---

(١) أى أداة نداء ودعاء : فإذا ناديت بعيداً قلت : (يا) ، وإذا ناديت أو دعوت قريبا قلت : (أى) ومن أقرب من الله ؟!

(٢) الصور : ما ينفخ فيه للإماتة أو الإحياء .

ثم يأتى ملك الموت فيقول : يارب قد مات حملة عرشك فيقول – وهو أعلم – من بقى ؟ فيقول : بقيت أنت الحى الذى لا تموت ، وبقيت أنا ، فيقول الله : أنت خلق من خلقى خلقتك لما رأيت فمت فيموت . فإذا لم يبق إلا الله الواحد الأحد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ﴿ **لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد** ﴾ (١) فكان كما كان أولا طوى السماء كطى السجل للكتاب ثم قال : أنا الجبار ، ﴿ **لمن الملك اليوم ؟** ﴾ فلم يجبه أحد فيقول – جل ثناؤه وتقدست أسماؤه –: ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾ .

قلت : حديث أبى هريرة هذا فيه طول ، وهذا وسطه ، ويأتى آخره فى الباب بعد هذا ، ويأتى أوله بعد ذلك إن شاء الله تعالى ، فيتصل جميعه إن شاء الله تعالى . ذكره الطبرى ، وعلى بن معبد والثعلبى وغيرهم .

وفى حديث لقيط بن عامر عن النبى ﷺ : « ثم تلبثون ما لبثتم ، ثم تبعث الصيحة فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها من شىء إلا مات ، والملائكة الذين مع ربك ، فأصبح ربك يطوف فى البلاد ، وقد خلت عليه البلاد » . وذكر الحديث وهو حديث فيه طول . خرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده (٢) وغيره .

قال علماؤنا : قوله : « فأصبح ربك يطوف بالبلاد ، وقد خلت عليه البلاد » إنما هو تفهيم وتقريب إلى أن جميع من فى الأرض يموت ، وأن الأرض تبقى خالية ، وليس يبقى إلا الله ، كما قال : ﴿ **كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ .

---

(١) من ٢ – ٤ سورة الإخلاص .

(٢) فى مسنده : تفنن العلماء فى التأليف والتصنيف فى فن الحديث والسنة ، ولهم فى ذلك طرق : منها التأليف على المسانيد ، وهى الكتب التى موضوعها جعل حديث كل صحابى على حدة صحيحا كان أو حسنا أو ضعيفا ، وإن اختلفت أنواعه ، فتارة ترتب أسماء الصحابة على حروف الهجاء وتارة ترتب على أسماء القبائل ، وتارة ترتب على السابقة فى الإسلام . وأقدم مسند دون هو مسند الطيالسى .

وعند قوله سبحانه : ﴿ لمن الملك اليوم ؟ ﴾ هو انقطاع زمن الدنيا وبعده يكون البعث ، والنشر ، والحشر ، على ما يأتى .

وفى فناء الجنة والنار عند فناء الخلق قولان :

(**أحدهما**) : يفنيهما ، ولا يبقى شىء سواه ، وهو معنى قوله الحق : ﴿ **هو الأولُ والآخِرُ** ﴾ وقيل : إنه مما لا يجوز عليهما الفناء ، وإنهما باقيان بإبقاء الله سبحانه . والله أعلم .

وقد تقدم فى الباب قبل هذا الإشارة إلى ذلك ، وقد قيل : إنه ينادى مناد فيقول : ﴿ **لمن الملك اليوم ؟** ﴾ فيجيبه أهل الجنة : ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾ .

(فصل)

فى بيان ما أشكل من الحديث من ذكر اليد والأصابع :

إن قال قائل : ما تأويل اليد عندكم ، واليد حقيقتها فى الجارحة المعلومة عندنا ، وتلك التى يكون القبض والطىُّ بها ؟

قلنا : لفظ الشِّمال أشد فى الإشكال !، وذلك فى الإطلاق على الله محال !.

والجواب : أن اليد فى كلام العرب لها خمسة معان :

– تكون بمعنى القوة ومنه قوله تعالى : ﴿ **واذكر عبدَنا داودَ ذا الأَيْد** ﴾ (١) .

– وتكون بمعنى الملك والقوة ومنه قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إنَّ الفضلَ بيدِ الله يُؤتيه مَن يَشاء** ﴾ (٢) .

– وتكون بمعنى النعمة ، تقول العرب : كم يد لى عند فلان ، أى كم من نعمة أسديتها إليه .

---

(١) سورة ص آية رقم ١٧ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٧٣ .

- وتكون بمعنى الصلة . ومنه قوله تعالى : ﴿ **مما عملت أيدينا أنعاما** ﴾ [١] أى مما عملنا نحن . وقال تعالى : ﴿ **أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح** ﴾ [٢] أى الذى له النكاح .

- وتكون بمعنى الجارحة . ومنه قوله تعالى : ﴿ **وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث** ﴾ [٣] .

وقوله فى الحديث (بيده) عبارة عن قدرته وإحاطته بجميع مخلوقاته يقال : ما فلان إلا فى قبضتى بمعنى : ما فلان إلا فى قدرتى .

والناس يقولون : الأشياء فى قبضة الله : يريدون فى ملكه وقدرته . وقد يكون معنى القبض والطى : إفناء الشىء وإذهابه ، فقوله عز وجل : ﴿ **والأرض جميعا قبضته يوم القيامة** ﴾ [٤] يحتمل أن يكون المراد به الأرض جميعا ذاهبة فانية يوم القيامة .

وقوله : ﴿ **والسموات مطويات بيمينه** ﴾ [٥] ليس المراد به طيا بعلاج وانتصاب ، وإنما المراد بذلك الفناء والذهاب . يقال : قد انطوى عنا ما كنا فيه ، وجاءنا غيره ، وانطوى عنا دهر بمعنى المضى والذهاب .

فإن قيل : فقد قال فى الحديث : « ويقبض أصابعه ويبسطها » وهذه حقيقة الجارحة . قلنا : هذا مذهب المجسمة من اليهود [٦] والحشوية والله - تعالى - متعال عن ذلك ، وإنما المعنى حكاية الصاحب عن النبى ﷺ يقبض أصابعها ويبسطها ، وليس معنى اليد فى الصفات بمعنى الجارحة حتى يتوهم بثبوتها ثبوت الأصابع ، فدل على أن النبى ﷺ هو الذى كان يقبض أصابعه

---

(١) سورة يس آية رقم ٧١ .
(٢) سورة البقرة آية ٢٣٧ .
(٣) سورة ص آية ٤٤ .
(٤) سورة الزمر آية ٦٧ .
(٥) سورة الزمر آية ٦٧ .
(٦) وهم المشبِّهة الذين شبهوا الله بخلقه ، ومثلوه بعباده .

ويبسطها . قال الخطابى : وذكر الأصابع لم يوجد فى شىء من الكتاب والسنة المقطوع بصحتهما .

فإن قيل فقد ورد ذكر الأصابع فى غير ما حديث فى جوابكم عنها ؟ فقد روى البخارى ومسلم قال : أتى النبىَّ ﷺ رجل من أهل الكتاب فقال : يا أبا القاسم ، أبلغك أن الله تعالى يحمل السموات على إصبع والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والثرى على إصبع ، والخلائق على إصبع ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه (١) ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **وما قدَرُوا الله حقَّ قدرِه ، والأرضُ جميعاً قبضَتُه يومَ القِيامَة والسمواتُ مطوياتٌ بيمينه** ﴾ (٢) . وروى عن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها حيث يشاء » . ثم قال رسول الله ﷺ : « اللهم مُصرِّف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » . ومثله كثير .

قيل له : اعلم أن الإصبع قد يكون بمعنى الجارحة ، والله تعالى يتقدس عن ذلك ، ويكون بمعنى القدرة على الشىء ، ويَسارَةِ تقليبه ، كما يقول من استسهل شيئا واستخفه مخاطبا لمن استثقله : أنا أحمله على إصبعى ، وأرفعه بإصبعى ، وأمسكه بخنصرى (٣) .

وكما يقول من أطاع بحمل شىء : أنا أحمله على عينى ، وأفعله على رأسى ، يعنى به الطواعية ، وما أشبه ذلك .

وقد قال فى معناه وهو كثير ، وما قال عنترة ، وقيل ابن ربابة التيمى :

الرمح لا أملأ كفى به واللبد لا أتبع تزواله

---

(١) نواجذه : الناجذ : السن بين الضرس والناب ، وقيل الأضراس كلها نواجذ .

(٢) سورة الزمر : ٦٧ .

(٣) الخِنصر (بكسر الخاء) : صغرى أصابع اليد ، ويليها البنصر ، والوسطى ، والسبابة التى نشير بها فى الصلاة عند التشهد ، ثم الإبهام خامسها .

يريد : أنه لا يتكلف أن يجمع كفه فيشتمل على الرمح ، لكن يطعن به خلسا بأصابعه ؛ لخفة ذلك عليه .

وقوله : لا أتبع تزواله : أى إذا مال لم أمل معه . يقول : أنا ثابت على ظهر الخيل ، لا يضرنى فقد بعض الآلة ، ولا تغير السرج عما يريده الراكب . يصف نفسه بالفروسية فى الركوب والطعن ، فلما كانت السموات والأرض أعظم الموجودات قدرا ، وأكبرها خلقا كان إمساكها بالنسبة إلى الله تعالى كالشيء الحقير ، الذى نجعله نحن بين أصابعنا ، ونهزه بأيدينا ، ونتصرف فيه كيف شئنا ، فتكون الإشارة بقوله : « ثم يقبض أصابعه ويبسطها » . وبقوله : « ثم يهزهن » كما جاء فى بعض طرق مسلم وغيره . أى هى فى قدرته كالحبة مثلا فى كف أحدنا التى لا نبالى بإمساكها ، ولا بهزها ، ولا بتحريكها ، ولا القبض والبسط عليها ، ولا نجد فى ذلك صعوبة ولا مشقة .

وقد يكون الإصبع – أيضا – فى كلام العرب بمعنى النعمة ، وهو المراد بقوله عليه السلام : « إن قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن » أى بين نعمتين من نعم الرحمن .

يقال : لفلان على إصبع : أى أثر حسن ، إذا أنعم عليه نعمة حسنة ، وللراعى على ماشيته إصبع : أى أثر حسن .

وأنشد الأصمعى للراعى :

ضعيف العصى ، بادى العروق ترى له عليها إذا ما أجدب الناس إصبعا

وقال آخر :

صلاة ، وتسبيح ، وإعطاء سائل وذى رحم تبل منك إصبع

أى أثر حسن . وقال آخر :

من يجعل الله عليه إصبعا فى الخير والشر يلقاه معا

فإن قيل : كيف جاز إطلاق الشمال على الله تعالى وذلك يقتضى النقص ؟ قيل : هو مما انفرد به عمر بن حمزة عن سالم وقد روى هذا الحديث

نافع وعبد الله بن مقسم عن ابن عمر لم يذكرا فيه الشمال . ورواه أبو هريرة وغيره عن النبى ﷺ ولم يذكر فيه واحد الشمال .

قال البيهقى : وروى ذكر الشمال فى حديث آخر – فى غير هذه القصة – إلا أنه ضعيف بمرة تفرد بأحدهما جعفر بن الزبير ، وبالآخر يزيد الرقاش وهما متروكان ، وكيف يصح ذلك وصحيح عن النبى ﷺ أنه سمى كلتا يديه « يمينا ؟ » وكأن من قال ذلك أرسله من لفظه على ما وقع له ، أو على عادة العرب فى ذكر الشمال فى مقابلة اليمين .

قال الخطابى : ليس فيما يضاف إلى الله عز وجل من صفة اليد شمال ؛ لأن الشمال محل النقص والضعف . وقد روى « كلتا يديه » وليس معنى اليد عندنا الجارحة ، وإنما هى صفة جاء بها التوقيفُ فنحن نطلقها على ما جاءت ولا نكيفها .

وننتهى إلى حيث انتهى بنا الكتاب والسنة المأثورة الصحيحة وهو مذهب أهل السنة والجماعة .

– وقد يكون اليمين فى كلام العرب بمعنى القدرة والملك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **أو ما ملكت أيمانكم** ﴾ (١) يريد بها الملك ، وقال : ﴿ **لأخذنا منه باليمين** ﴾ (٢) أى بالقوة والقدرة . أى أخذنا قدرته وقوته .

– وقال الفراء : اليمينُ – القوة والقدرة ، وأنشد :

إذا ما راية رفعت لمجـد تلقاهـا عرابـة باليمين

وقال آخر :

ولما رأيت الشمس أشرق نورها تناولت منها حاجتى بيمينى
فقلت : شنيفا ثم فاران بعده وكان على الآيات غير أمين

---

(١) سورة النساء آية ٣ .
(٢) سورة الحاقة آية ٤٥ .

قلت : وعلى هذا التأويل تخرج الآية والحديث . والله أعلم .

– وقد تكون اليمين فى كلام العرب بمعنى التبجيل والتعظيم : يقال : فلان عندنا باليمين أى بالمحل الجليل ، ومنه قول الشاعر :

أقول لناقتى إذا بلَّغتِنى   لقد أصبحت عندى باليمين

أى بالمحل الرفيع .

وأما قوله : « كلتا يديه يمين » . فإنه أراد بذلك التمام والكمال وكانت العرب تحب التيامن ، وتكره التياسر ؛ لما فى التياسر من النقصان ، وفى التيامن من التمام .

فإن قيل : فأين يكون الناس عند طى الأرض والسماء ؟ قلنا : يكونون على الصراط على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

* * *

(باب)

ذكر النفخ الثانى - للبعث - فى الصور وبيانه ، وكيفية البعث وبيانه ، وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول من يحيا من الخلق ، وبيان السن الذى يخرجون عليه من قبورهم ، وفى لسانهم وبيان قوله تعالى : ﴿ وألقت ما فيها وتخلت ﴾ (١)

قال الله - عز وجل - : ﴿ **يوم يُنْفَخُ فى الصور ، عالمُ الغيب والشهادة** ﴾ (٢) وقال : ﴿ **فإذا نُفخ فى الصور فلا أنسابَ بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ (٣) وقال : ﴿ **ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ (٤) وقال : ﴿ **يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا** ﴾ (٥) وسماه الله تعالى بالناقور فى قوله تعالى : ﴿ **فإذا نقر فى الناقور** ﴾ (٦) . قال المفسرون : الصور ينقر فيه مع النفخ الأول لموت الخلق على ما يأتى بيانه . قال الله تعالى مخبرا عن كفار قريش : ﴿ **ما ينظرون** ﴾ أى ما ينتظرون كفار آخر هذه الأمة الدائنون بدين أبى جهل وأصحابه ﴿ **إلا صيحة واحدة** ﴾ - يعنى النفخة الأولى التى يكون بها هلاكهم - ﴿ **تأخذهم وهم يخِصِّمون** ﴾ (٧) - أى يختصمون فى أسواقهم وحوائجهم - . قال الله تعالى : ﴿ **لا تأتيكم إلا بغتة** ﴾ (٨) . ﴿ **فلا يستطيعون توصيَة** ﴾ أى أن يوصوا ﴿ **ولا إلى أهلِهم يرجعون** ﴾ (٩) أى من أسواقهم ، وحيث كانوا ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون** ﴾ (١٠) ﴿ **ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث** ﴾ (١١) النفخة هذه هى النفخة الثانية - نفخة البعث .

---

(١) الانشقاق : آية ٤ .
(٢) الأنعام : آية ٧٣ .
(٣) المؤمنون : ١٠١ .
(٤) الزمر : ٦٨ .
(٥) النبأ : ١٨ .
(٦) المدثر : ٨ .
(٧) الآية ٤٩ من سورة يس .
(٨) بعض الآية ١٨٧ : الأعراف .
(٩) يسٓ الآية : ٥٠ .
(١٠) يسٓ الآية : ٢٩ .
(١١) يسٓ الآية : ٥١ .

والصور : قرن من نور يجعل فيه الأرواح . يقال : إن فيه من الثقب على عدد أرواح الخلائق على ما يأتى .

قال مجاهد : هو كالبوق ، ذكره البخارى ، فإذا نفخ فيه صاحب الصور النفخة الثانية ، ذهب كل روح إلى جسده ﴿ **فإذا هم من الأجداث** ﴾ أى القبور ﴿ **ينسلون** ﴾ أى يخرجون سراعا ، يقال : نسل ينسِل وينسُل بالضم أيضا : إذا أسرع فى مشيه ، فالمعنى يخرجون مسرعين .

وفى الخبر : أن بين النفختين أربعين عاما . وسيأتى . وفى البخارى عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **فإذا نقر فى الناقور** ﴾ : الصور ، والراجفة : النفخة الأولى . والرادفة : النفخة الثانية .

وروى عن مجاهد أنه قال : للكافرين هجعة قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم ، فإذا صيح بأهل القبور قاموا مذعورين عجلين ، ينظرون ما يراد بهم ، لقوله تعالى : ﴿ **ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ .

وقد أخبر الله عز وجل عن الكفار أنهم يقولون : ﴿ **يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟** ﴾ [1] فيقول لهم الملائكة ، أو المؤمنون – على اختلاف المفسرين –: ﴿ **هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** ﴾ .

وقيل : إن الكفار هم القائلون : ﴿ **هذا ما وعد الرحمن** ﴾ ؛ وذلك أنهم لما بعثوا ، قال بعضهم لبعض : ﴿ **يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟** ﴾ صدقوا الرسل لما عاينوا ما أخبروهم به ، ثم قالوا : ﴿ **هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** ﴾ . فكذبنا به ، أقروا حين لم ينفعهم الإقرار ، ثم يؤمر بحشر الجميع إلى الموقف للحساب .

وقال عكرمة : إن الذين يغرقون فى البحر ، تقتسم لحومهم الحيتان فلا يبقى منهم شيء إلا العظام فتلقيها الأمواج إلى الساحل ، فتمكث حينا ثم تصير

---

(١) سورة يس الآية : ٥٢ .

حائلة [١] نخرة ، ثم تمر بها الإبل فتأكلها ، ثم تسير الإبل فتبعر [٢] . ثم يجىء قوم فينزلون فيأخذون ذلك البعر فيوقدونه ، ثم تخمد تلك النار ، فيجىء الريح فيلقى ذلك الرماد على الأرض ، فإذا جاءت النفخة ﴿ **فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ يخرج أولئك وأهل القبور سواء . ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة** ﴾ أى نفخة واحدة ﴿ **فإذا هم جميعا لدينا محضرون** ﴾ [٣] قال علماؤنا رحمهم الله : فالنفخ فى الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور وغيرهم ، فيعيد الله الرفات [٤] من أبدان الأموات ، ويجمع ما تفرق منها فى البحار ، وبطون السباع وغيرها ، حتى تصير كهيئاتها الأولى ، ثم يجعل فيها الأرواح ، فتقوم الناس كلهم أحياء حتى السقط ، فإن النبى ﷺ قال : « إن السقط ليظل مُحْبَنْطِئاً [٥] على باب الجنة . ويقال له : ادخل الجنة فيقولِ : لا ، حتى يدخل أبواى » .

وهذا السقط هو الذى تم خلقه ، ونفخ فيه الروح ، قال الله تعالى : ﴿ **وإذا المؤْءودة سئلت** ﴾ [٦] . فدل على أن الموءودة تحشر وتسأل ، ومن قبرها تخرج وتبعث .

وأما من لم ينفخ فيه الروح ، فهو وسائر الأموات سواء ، قاله الحاكم أبو الحسين بن الحسن الحليمى رحمه الله فى كتاب (منهاج الدين) له .

وبالحقيقة إنما خروج الخلق بدعوة الحق ، قال الله تعالى : ﴿ **يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده** ﴾ [٧] . فتقومون ، فتقولون : سبحانك اللهم وبحمدك . قالوا : فيوم القيامة يوم يبدأ بالحمد ، ويختم به . قال الله تعالى :

---

(١) حائلة : يقال : حال الشىء واستحال تغير عن طبعه ووصفه . ونخرة أى : بالية متفتتة .
(٢) تبعر : تلقى بعرها وفضلاتها .
(٣) يس : ٥٣ .
(٤) الرفات : كل ما تكسر وبلى ، ورفت العظم : صار رفاتاً .
(٥) محبنطئا : الحبنطأ : الممتلىء غيظا ، ومحبنطئا أى مغيظا .
(٦) التكوير : آية ٨ .
(٧) الإسراء : ٥٢ .

﴿ **يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده** ﴾ . وقال فى آية أخرى : ﴿ **وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ [1] .

روى ابن ماجه قال : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، قال : حدثنا عباد ابن العوام عن حجاج بن عطية عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن صاحبى الصور بأيديهما – أو فى أيديهما – قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران » .

وروى الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : ما الصور ؟ قال : « قرن ينفخ فيه » قال : هذا حديث حسن [2] .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن ، واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ ؟ » فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبى ﷺ فقال لهم : « قولوا : ﴿ **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ » [3] قال : حديث حسن .

وروى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أطرق صاحب الصور منذ وكل به مستعدا بحذاء العرش [4] مخافة أن يؤمر بالصيحة قبل أن يرتد طرفه ، كأن عينيه كوكبان دريان » . أخرجه أبو الحسن بن صخر فى فوائده وغيره ، وخرج ابن المبارك ومؤمل بن إسماعيل ، وعلى بن معبد عن ابن مسعود حديثا ذكر فيه قال : « ثم يقوم ملك الصور بين السماء والأرض فينفخ فيه ، – والصور قرن – فلا يبقى لله خلق فى السموات والأرض إلا مات إلا ما شاء ربك ، ثم يكون بين النفختين ما شاء الله أن يكون ، فليس من

---

(١) الزمر : ٧٥ .

(٢) الفرق بين الحديث الصحيح والحسن هو : تمام الضبط فى الصحيح ، وخفة الضبط فى الحسن ، فهو الذى اتصل سنده بنقل العدل ، خفيف الضبط ، مع السلامة من الشذوذ والعلة .

(٣) آل عمران : ١٧٣ .

(٤) بحذاء العرش : أى بإزائه ومقابله وأمامه .

بنى آدم خلق إلا وفى الأرض شىء منه » زاد مؤمل بن إسماعيل قال سفيان – يعنى الثورى – عجب الذنب قال : « فيرسل الله ماء من تحت العرش : منيا كمنى الرجال فتنبت جثمانهم ولحمانهم كما تنبت الأرض من الثرى [1] » ثم قرأ عبد الله : ﴿ **والله الذى أرسلَ الرياحَ فتُثيرُ سحاباً فسُقناه إلى بلدٍ ميتٍ فأحْيَيْنا به الأرضَ بعد موتِها كذلك النُّشور** ﴾ [2] قال : « ثم يقوم (ملك الصور) بين السماء والأرض فينفخ فيه ، فتنطلق كل نفس إلى جسدها ، حتى تدخل فيه ، ثم يقومون ، فيجيبون إجابة رجل واحد قياما لرب العالمين » . وقال ابن المبارك ومؤمل : « ثم يقومون فيحيون تحية واحدة » .

وذكر أبو عبيد القاسم بن سلام قال : حَدَّثنا بن مهدى عن سفيان عن سلمة بن كهيل ، عن أبى الزعراء ، عن عبد الله بن مسعود قال : « فيقومون فيحيون تحية رجل واحد قياما لرب العالمين » .

قوله : فيحيون . التحية تكون فى حالين : أحدهما – أن يضع يديه على ركبتيه وهو قائم ، وهذا هو المعنى الذى فى هذا الحديث ، ألا تراه يقول : « قياما لرب العالمين » .

والوجه الآخر – أن ينكب على وجهه باركا ، وهذا هو الوجه المعروف عند الناس ، وقد حمله بعض الناس على قوله : « فيخرون سجدا لرب العالمين » فجعل السجود هو التحية ، وهذا هو الذى يعرفه الناس من التحية .

وروى عن على بن معبد أيضا عن أبى هريرة قال : حدثنا رسول الله ﷺ ونحن فى طائفة من أصحابه ، وساق الحديث بطوله إلى قوله – جل ثناؤه وتقدست أسماؤه : ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾ [3] ثم : ﴿ **تبدل الأرض غير**

---

(١) الثَّرى : التراب المبلل بالندى .

(٢) فاطر : ٩ .

(٣) الآية ١٦ من سورة غافر .

الأرض والسموات ﴾ [1] فيبسطها بسطا ، ثم يمدها مَدَّ الأديم العكاظى [2] **﴿ لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾** [3] ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة ، فإذا هم فى هذه الأرض المبدلة ، فى مثل ما كانوا فيه من الأولى .

من كان فى بطنها كان فى بطنها !

ومن كان على ظهرها كان على ظهرها !

ثم ينزل الله عليكم ماء من تحت العرش يقال له : (ماء الحياة) ، فتمطر السماء عليكم أربعين سنة حتى يكون الماء من فوقكم اثنى عشر ذراعا ، ثم يأمر الله عز وجل الأجساد فتنبت كنبات الطراثيث [4] ، وكنبات البقل ، حتى إذا تكاملت أجسادكم فكانت كما كانت ، يقول الله عز وجل : ليحى حملة العرش فيحيون . ثم يقول : ليحى جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فيأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور ، ثم يدعو الله تعالى الأرواح فيؤتى بها ، تتوهج أرواح المسلمين نورا ، والأخرى مظلمة ، فيأخذها الله فيلقيها فى الصور . ثم يقول لإسرافيل : انفخ نفخة البعث ، فينفخ ، فتخرج الأرواح كأمثال النحل ، قد ملأت ما بين السماء والأرض ، فيقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى ليرجع كل روح إلى جسده ، فتدخل الأرواح - فى الأرض - إلى الأجساد ، ثم تدخل فى الخياشيم ، فتمشى فى الأجساد مشى السم فى اللديغ ، ثم تنشق الأرض عنكم ، وأنا أول من تنشق الأرض عنه ، فتخرجون منها شبابا كلكم أبناء ثلاث وثلاثين ، واللسان يومئذ بالسريانية سراعا **﴿ إلى ربهم ينسلون ﴾** [5] **﴿ مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عَسِر ﴾** [6]

---

(١) إبراهيم : ٤٨ .

(٢) الأديم العكاظى : الأديم الجلد المدبوغ ، والعكاظى : المنسوب إلى عكاظ وهى سوق كانت تجتمع فيها قبائل العرب . والدباغ يزيل ما بالجلد من تجاعيد واعوجاج .

(٣) طه : ١٠٧ .

(٤) الطرث : كل نبات طرى غض .

(٥) يسٓ : ٥١ .

(٦) القمر : ٨ .

﴿ ذلك يوم الخروج ﴾ [1] ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ﴾ [2] ، فتوقفون فى موقف عراة غُلْفا غُرلا [3] مقدار سبعين عاما لا ينظر الله إليكم ، ولا يقضى بينكم ، فتبكى الخلائق حتى تنقطع الدموع ، ثم تدمع دما ، ويعرقون حتى تبلغ منهم الأذقان ، ويلجمهم فيضجون ، ويقولون : « من يشفع لنا إلى ربنا ؟!! » وساق الحديث بطوله فى الشفاعة . وسيأتى حديث الشفاعة فى صحيح مسلم وغيره إن شاء الله تعالى .

وخرج الختلى أبو القاسم إسحق بن إبراهيم – فى كتاب الديباج له – حدثنى أبو بكر خليفة بن الحارث بن خليفة ، حدثنا محمد بن جعفر المدائنى ، عن سلام بن مسلم الطويل ، عن عبد الحميد ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن النبى ﷺ فى قوله عز وجل : ﴿ إذا السماءُ انشقّت ، وأَذِنت لربِّها وحُقَّت ﴾ [4] قال : فقال رسول الله ﷺ : « أنا أول من تنشق عنه الأرض ، فأجلس جالسا فى قبرى ، فيفتح لى باب إلى السماء ، بحيال رأسى ، حتى أنظر إلى العرش ، ثم يفتح لى باب من تحتى حتى أنظر إلى الأرض السابعة ، حتى أنظر إلى الثرى ، ثم يفتح لى باب عن يمينى حتى أنظر إلى الجنة ، ومنازل أصحابى ، وإن الأرض تحركت تحتى فقلت : ما بالك أيتها الأرض ؟ قالت : إن ربى أمرنى أن أُلقى ما فى جوفى ، وأن أتخلى فأكون كما كنت ؛ إذ لا شىء فِىَّ ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ وألقت ما فيها وَتَخَلَّتْ وأَذِنتْ لربها وحُقَّت ﴾ [5] . أى : سمعت وأطاعت ، وحُقَّ لها أن تسمع وتُطيع !! ﴿ يأيُّها الإنسان ﴾ [6] قال رسول الله ﷺ : « أنا ذلك الإنسان » .

---

(١) ق : ٤٢ .

(٢) الكهف : ٤٧ .

(٣) الغُلْفة : هى الغُرْلة والقَلفة ، وكل ما لم يختن فهو أغلف ، والأنثى غلفاء . أى أنهم يوقفون كما ولدتهم أمهاتهم .

(٤) الإنشقاق : ١ – ٢ .

(٥) الإنشقاق : ٤ – ٥ .

(٦) جزء من الآية رقم ٦ من سورة الانشقاق .

وروى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **يٰأيتها النفسُ المطمئنة * ارجِعى إلى ربِّك راضية مرضية** ﴾ [1] . أن هذا خطاب للأرواح بأن ترجع إلى أجسادها ﴿ **إلى ربك** ﴾ أى صاحبك ، كما تقول : رب الغلام ، ورب الدار ، ورب الدابة ، أى صاحب الغلام ، وصاحب الدار ، وصاحب الدابة ، ﴿ **فادخلى فى عبادى** ﴾ [2] أى فى أجسادهم من مناخرهم كما ورد فى الخبر المتقدم .

وقد روى أن الله تعالى خلق الصور حين فرغ من خلق السموات والأرض ، وأن عِظم دارته كغلظ السموات والأرض .

وفى حديث أبى هريرة : « والذى نفسى بيده إن عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض » . وسيأتى .

وروى : « أن له رأسين : رأسا بالمشرق ، ورأسا بالمغرب » . والله أعلم .

* * *

---

(1) سورة الفجر : ٢٧ – ٢٨ .
(2) سورة الفجر : ٢٩ .

(فصل)

ما المراد بالصور ؟ وأى فرق بين النفختين ؟ وهل تعاد الأجساد الدنيوية بأعيانها وأعراضها ؟

الصور : بالصاد قرن ينفخ فيه النفخة الأولى للفناء ، وهى نفخة (الصَّعق) ويكون معها (نَقْر) لقوله تعالى : ﴿ **فإذا نُقِرَ فى الناقور** ﴾ [1] أى فى الصور .

فإذا نفخ فيه للإصعاق جُمِعَ بين النقر والنفخ ، لتكون الصيحة أشد وأعظم !! ثم يمكث الناس أربعين عاما ، ثم ينزل الله (ماء) كمنى الرجال - على ما تقدم - فتكون منه الأجسام بقدرة الله تعالى ؛ حتى يجعلهم بشرا ، كما روى فى قصة الذين يخرجون من النار ، قد صاروا حمما ، أنهم يغتسلون من نهر بباب الجنة فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل . وعن ذلك عبر فى حديث أبى هريرة المتقدم فى صحيح مسلم وغيره : « فينبتون نبات البقل » .

فإذا تهيأت الأجسام ، وكملت نفخ فى الصور نفخة البعث من غير نقر ؛ لأن المراد إرسال الأرواح من ثقب الصور إلى أجسادها ، لا تنقيرها من أجسادها فالنفخة الأولى للتنقير ، وهى نظير صوت الرعد الذى قد يقوى فيمات منه ، ونظير الصيحة : الصيحة الشديدة التى يصيحها الرجل على الرجل فيفزع منه ؛ فيموت ، فإذا نفخ للبعث من غير نقر - كما ذكرنا - خرجت الأرواح من المجال التى هى فيه ، فتأتى كل روح إلى جسدها فيحييها الله . كل ذلك فى لحظة ، كما قال تعالى : ﴿ **فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ [2] ، ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة** ﴾ [3] .

---

(١) المدثر : ٨ .
(٢) الزمر : ٦٨ .
(٣) لقمان : ٢٨ .

وعند أهل السنة أن تلك الأجساد الدنيوية تعاد بأعيانها وأعراضها بلا خلاف بينهم .. قال بعضهم : بأوصافها . فيعاد الوصف أيضا كما يعاد الجسم واللون . قال القاضي أبو بكر بن العربى :

(وذلك جائز فى حكم الله وقدرته ، وهين عليه جميعه ، ولكن لم يرد بإعادة الوصف خبر .

قلت : فيه أخبار كثيرة فى الباب بعد هذا .

* * *

(فصل)

فى الرد على من زعموا أن الصور جمع صورة !
وهل هناك من ينفخ فى الصور غير إسرافيـــل ؟

وليس الصور جمع صورة – كما زعم بعضهم – أى ينفخ فى صور الموتى بدليل الأحاديث المذكورة ، والتنزيل يدل على ذلك . قال الله تعالى : ﴿ **ثم نفخ فيه أخرى** ﴾ (١) ولم يقل : فيها ؛ فعلم أنه ليس جمع صورة .

قال الكلبى : لا أدرى ما الصور ؟ ويقال : هو جمع صورة مثل بُسْرة وبُسْر . أى ينفخ فى صور الموتى : الأرواح .

وقرأ الحسن : ﴿ **يوم يَنْفُخ فى الصور عالمُ الغيب والشهادة** ﴾ (٢) . قلت وإلى هذا التأويل فى أن الصور بمعنى الصور جمع صورة : ذهب أبو عبيدة معمر بن المثنى ، وهو مردود بما ذكرنا .

وأيضا : لا ينفخ فى الصور للبعث مرتين بل ينفخ مرة واحدة ، وإسرافيل – عليه السلام – ينفخ فى الصور الذى هو القرن ، والله – سبحانه – يحيى الصور فينفخ فيها الروح كما قال تعالى : ﴿ **فنفخنا فيه من روحنا** ﴾ (٣) و﴿ **نفخت فيه من روحى** ﴾ (٤) .

قال ابن زيد : يخلق الله الناس فى الأرض الخلق الآخر ، ثم يأمر السماء فتمطر عليهم أربعين يوما ، فينبتون فيها حتى تنشق عن رءوسهم كما تنشق عن رأس الكمأة ، فمثلها يومئذ مثل الماخض تنتظر أن يأتيها أمر الله فتطرحهم على ظهرها ، فلما كانت تلك النفخة طرحتهم !

---

(١) الزمر : ٦٨ .
(٢) الأنعام : ٧٣ .
(٣) الأنبياء : ٩١ .
(٤) الحجر : ٢٩ .

قال علماؤنا : والأمم مجمعون على أن الذى ينفخ فى الصور إسرافيل عليه السلام .

قلت : قد جاء حديث يدل على أن الذى ينفخ فى الصور غير إسرافيل خرجه أبو نعيم الحافظ قال : حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن عبد الله ابن الحارث قال : كنت عند عائشة وعندها كعب الأحبار فذكر كعب إسرافيل ، فقالت عائشة : يا كعب أخبرنى عن إسرافيل ؟ قال كعب : عندكم العلم . قالت : أجَلْ ، فأخبرنى ، فقال : « له أربعة أجنحة : جناحان فى الهواء ، وجناح قد تسربل به [(١)] ، وجناح على كاهله ، والعرش على كاهله [(٢)] والقلم على أذنه ، فإذا نزل الوحى كتب القلم ، ثم درست الملائكة ، وملك الصور جاثٍ على إحدى ركبتيه وقد نصب الأخرى ، ملتقم الصور ، محنيا ظهره ، شاخصا بصره ، ينظر إلى إسرافيل ، وقد أمر إذا رأى إسرافيل قد ضم جناحيه أن ينفخ فى الصور » قالت عائشة : « هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقول » . غريب من حديث كعب ؛ لم يروه عنه إلا عبد الله ابن الحارث ، ورواه خالد الحذاء عن الوليد أبى بشر عن عبد الله بن رباح عن كعب نحوه .

قلت : وما خرجه أبو عيسى الترمذى وغيره يدل على أن صاحب الصور إسرافيل – عليه السلام – ينفخ فيه وحده .

وحديث أبى عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه يدل على أن معه غيره . وقد خرج أبو بكر البزار فى مسنده ، وأبو داود (فى كتاب الحروف من كتاب السنن) من حديث عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى قال : ذكر رسول الله ﷺ صاحب الصور فقال : « عن يمينه جبريل ، وعن يساره ميكائيل » . فلعل لأحدهما قرنا آخر ينفخ فيه . والله أعلم .

---

(١) تسربل : تغطى .

(٢) الكاهل : مقدم أعلى الظهر مما يلى العنق وهو الثلث الأعلى .

وذكر أبو السرى التيمى الكوفى هناد بن السرى . قال : حدثنا أبو الأحوص عن منصور عن مجاهد عن عبد الرحمن بن أبى عمرو قال : « ما من صباح إلاّ وملكان موكلان يقولان : يا طالبَ الخير أَقْبِلِ ، ويا طالبَ الشر أَقْصِر وملكان موكلان يقولان : اللهم أَعْطِ منفقا خلفا ، وأَعْطِ ممسكا تلفا ، وملكان موكلان يقولان : سبحان الملك القدوس ، وملكان موكلان بالصور » قال : وحدثنا وكيع عن الأعمش عن مجاهد عن عبد الله بن ضمرة عن كعب قال : « ما من صباح ... » – مثله سواء – وزاد بعد قوله : « وملكان موكلان بالصور ... ينتظران متى يؤمران فينفخان » . وعطية [1] لا يحتج أحد بحديثه على ما ذكره أبو محمد عبد الحق وغيره .

* * *

---

(١) قال فى تقريب التهذيب لابن حجر العسقلانى جزء ثانٍ / ٢٤ :
(عطية بن سعد بن جُنادة ، بضم الجيم بعدها نون خفيفة ، العوفى ، الجدلى بفتح الجيم والدال ، الكوفى ، أبو الحسن ، صدق يخطىء كثيرا ، كان شيعيا مدلسا من الثالثة .

(فصل)

فى عدد النفخات .. وكم بين النفخة الأولى والثانية ؟

واختلف فى عدد النفخات ؛ فقيل ثلاث :

(١) نفخة الفزع ، لقوله تعالى : ﴿ **ويوم يُنْفَخُ فى الصُّورِ ففزِع من فى السمواتِ ومَن فى الأرضِ إلا من شاء الله ، وكلٌّ أتَوْهُ داخِرِين** ﴾ [١] .

(٢) ونفخة الصعق .

(٣) ونفخة البعث .

لقوله تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور ، فصَعِقَ من فى السموات ومَن فى الأرض إلا مَنْ شاء الله ، ثم نُفِخَ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ [٢] وهذا اختيار ابن العربى وغيره . وسيأتى .

وقيل هما نفختان : ونفخة الفزع هى نفخة الصعق ؛ لأن الأمرين لازمان لها ، أى فزعوا فزعا ماتوا فيه .

والسنة الثابتة على ما تقدم من حديث أبى هريرة ، وحديث عبد الله ابن عمر وغيرهما يدل على أنهما نفختان لا ثلاث ، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور فصعق مَن فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله** ﴾ فاستثنى هنا كما استثنى فى نفخة الفزع فدل على أنهما واحدة .

---

(١) النمل : ٨٧ .

(٢) الزمر : ٦٨ .

وقد روى ابن المبارك عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « بين النفختين أربعون سنة : الأولى – يميت الله بها كل حي ، والأخرى – يحيى الله بها كل ميت » . وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

وقال الحليمى : اتفقت الروايات على أن بين النفختين أربعين سنة . وذلك بعد أن يجمع الله ما تفرق من أجساد الناس من بطون السباع ، وحيوانات الماء ، وبطن الأرض ، وما أصاب النيران منها بالحرق ، والمياه بالغرق ، وما أبلته الشمس ، وذرته الرياح ، فإذا جمعها ، وأكمل كل بدن منها ، ولم يبق إلا الأرواح ، جمع الأرواح فى الصور ، وأمر إسرافيل عليه السلام ، فأرسلها بنفخة من ثقب الصور ، فرجع كل ذى روح إلى جسده بإذن الله تعالى .

وجاء فى بعض الأخبار ما يبين : أن من أكله طائر أو سبع – حشر من جوفه ، وهو ما رواه الزهرى عن أنس قال : مر رسول الله ﷺ بحمزة يوم أحد وقد جُدِع [1] ومثل به فقال : « لولا أن تجد صفية فى نفسها لتركته حتى يحشره الله من بطون السباع والطير » .

وقد أنكر – بعض أهل الزيغ – أن يكون الصور قرنا .

قال أبو الهيثم : من أنكر أن يكون الصور قرنا ، فهو كمن ينكر العرش والصراط والميزان وطلب لها تأويلات .

---

(١) جُدِع ومثل به : قطع أنفه وأذنه فهو أجدع ، وعندما تكون آثار الجدع ظاهرة فهو مثْلَة وتنكيل .

(٢) تجد فى نفسها : تغضب وتحزن .

فى صفة البعث .. وما آية ذلك [1] فى الدنيا ؟
وأول ما يُخلق من الإنسان رأسه

قال الله تعالى : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بُشْراً بين يدَى رحمته ، حتى إذا أَقلَّت سحابا ثقالاً سُقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نُخرج الموتى لعلكم تَذَكَّرون** ﴾ [2] .

وقال سبحانه : ﴿ **الله الذى يُرسلُ الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فانظر إلى آثار رحمة الله ، كيف يُحيى الأرض بعد موتها ...** ﴾ ﴿ **كذلك النشور** ﴾ [4] والآيات فى هذا المعنى كثيرة .

وخرج أبو داود الطيالسى والبيهقى وغيرهما عن أبى رزين العقيلى قال : قلت : يا رسول الله ، كيف يُعيد الله الخلق ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : « أَمَا مررت بوادى قومك جَدْباً [5] ، ثم مررت به يهتز خَضِراً ؟ » قلت : نعم . قال : « فتلك آيةُ الله فى خَلقِه » . قلت : هذا حديث صحيح ؛ لأنه موافق لنص التنزيل [6] . والحمد لله .

وفى حديث لقيط بن عامر عن النبى ﷺ : « فأرسل ربك إلى السماء تهضب [7] من عند العرش ، فلَعَمْرُ إلهك ما تدَع على ظهرها من مصرع قتيل ، ولا مدفن ميت إلا شقت القبر عنه حتى يَخلقَ من قِبَل رأسه » . وذكر الحديث .

---

(١) آية ذلك : علامته .

(٢) الأعراف : ٥٧ .

(٣) الروم : ٤٨ - ٥٠ .

(٤) بقية الآية رقم ٩ من سورة فاطر : ﴿ **والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها ...** ﴾ .

(٥) جدبا : لا خضرة فيه ولا أثر لحياة .

(٦) التنزيل : القرآن ، وذلك دليل صحته .

(٧) تهضب : تمطر .

يبعث كلُّ عبدٍ على ما مات عليه

روى مسلم عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « يُبعث كلُّ عبد على ما مات عليه » . وعن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا أراد الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على نياتهم » [خرجه البخارى] .

وروى مالك عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لا يُكْلَم [1] أحدٌ فى سبيل الله – والله أعلم بمن يُكْلَم فى سبيله – إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب [2] دما . اللون لون الدم ، والعَرْف [3] عرف المسك » [خرجه البخارى ومسلم] .

روى أبو داود عن عبد الله بن عمرو أنه قال : يا رسولَ الله ، أخبرنى عن الجهاد والغزو ؟ فقال : « يا عبد الله إن قُتِلتَ صابرا محتسبا بعثت صابرا محتسبا . وإن قتلت مرائيا مكاثرا [5] بعثت مرائيا مكاثرا ، على أى حال قاتلتَ أو قُتِلتَ بعثك الله بتلك الحال » .

وروى أبو هدبة إبراهيم بن هدبة ، قال : حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « من مات سكرانَ ، فإنه يعاين [6] ملَك الموت سكران ، ويعاين منكرا ونكيرا سكران ، ويبعث يوم القيامة سكرانَ إلى خندق فى وسط جهنم يسمى السكران ، فيه عين يجرى ماؤها دما ، لا يكون له طعام ولا شراب إلا منه » .

---

(١) يُكْلَم : يجرح .

(٢) يثعب : ينزف .

(٣) العَرف : بفتح العين الرائحة .

(٤) محتسبا : أى احتسبت أجرك عند الله .

(٥) مكاثرا : مفاخراً بهذا العمل ، معدداً مواقفك ، مباهياً بها .

(٦) يعاين : يلقاه عيانا .

روى مسلم عن ابن عباس أن رجلا كان مع رسول الله ﷺ محرما فوقصته [١] ناقته فمات فقال رسول الله ﷺ : « إغسلوه بماء وسِدْرٍ [٢] ، وكفنوه فى ثوبه ، ولا تمسوه بطيب ، ولا تخمروا رأسه [٣] ، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا » . [أخرجه البخارى] .

وروى عباد بن كثير عن الزبير عن جابر قال : « إن المؤذنين والملبين يخرجون يوم القيامة من قبورهم : يؤذن المؤذن ، ويلبى الملبى » . ذكره الحليمى الحافظ فى كتاب المنهاج له .

وذكر أبو القاسم إسحاق بن إبراهيم بن محمد فى كتاب الديباج له : حدثنا أبو محمد عبد الله بن يونس بن بكير حدثنا أبى عن عمرو بن سمير عن جابر عن محمد بن على عن ابن عباس وعلى بن حسين أن رسول الله ﷺ قال : « أخبرنى جبريل عليه السلام أن : لا إله إلا الله أنس للمسلم عند موته وفى قبره ، وحين يخرج من قبره ، يا محمد ، لو تراهم حين يمرقون من قبورهم ينفضون رءوسهم ، هذا يقول : لا إله إلا الله ، والحمد لله ، فيبيض وجهه !! وهذا ينادى : يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله مسودة وجوههم .

قال : وحدثنى يحيى بن عبد الحميد الحمانى ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ، ولا فى قبورهم ، ولا منشرهم [٤] ، كأنى بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رءوسهم ، وهم يقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحَزَن » .

---

(١) وقَصَتْه : داسته .

(٢) السدر : ورق شجرة كانت تغنى عن الصابون تنظيفا ورائحة ومثلها : الأشنان .

(٣) تخمروا : تغطوها بخِمار ، وهو غطاء الرأس ، وسميت الخمرة بذلك لأنها تغطى العقل وتستره .

(٤) منشرهم : بعثهم ونشورهم .

وروى النسائى عن النبى ﷺ أنه قال : « تخرج النائحة من قبرها يوم القيامة شعثاء غبراء (١) ، عليها جلباب من لعنة الله ، ودرع من نار ، يدها على رأسها ، تقول : يا ويلاه ! » ، وأخرجه بمعناه مسلم وابن ماجه عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « النياحة من أمر الجاهلية ، وإن النائحة إذا ماتت قطع الله لها ثيابا من نار ، ودرعا من لهب النار » . [لفظ ابن ماجه] وقال مسلم : « تقام يوم القيامة وعليها سِربال (٢) من قَطِران ، ودرع من جرب » .

وأسند الثعلبى فى تفسيره عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « هذه النوائح يُجعلْن يوم القيامة صَفَّين : صفا عن اليمن ، وصفا عن الشمال ، ينبحن كما تنبح الكلاب فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يُؤْمَر بهن إلى النار » .

وقال أنس : قال النبى ﷺ : « تخرج النائحة من قبرها شعثاء غبراء مسودة الوجه ، وعليها جلباب من لعنة الله ، ودرع من غضب الله ، إحدى يديها مغلولة (٣)) إلى عنقها والأخرى قد وضعتها على رأسها ، وهى تنادى : يا ويلاه !! ، ويا ثُبوراه !! ، ويا حُزناه !! ، وملَك وراءها يقول : آمين .. آمين . ثم يكون من بعد ذلك حظها النار » .

وفى التنزيل : ﴿ **الذين يأكلون الربا ، لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ (٤) . قال أهل التأويل : المعنى – لا يقومون من قبورهم – قال ابن عباس ومجاهد وابن جبير وقتادة والربيع والسّدى والضحاك وغيرهم : قال : بعضهم يجعل معه شيطان يخنقه !

---

(١) شعثاء غبراء : غير ممشطة الشعر وعلى وجهها غبرة وتراب .
(٢) السربال : ما يتسربل به الإنسان ويتغطى كملاءة ونحوها .
(٣) مغلولة إلى عنقها : مشدودة . وكأنما يريد الله سبحانه أن يبرزها فى صورتها وهى تنوح .
(٤) البقرة : ٢٧٥ .

وقالوا : كلهم يبعث كالمخنوق عقوبة له ، وتمقيتا [1] عند جميع أهل المحشر ... فجعل [illegible] ، [illegible]ذه العلامة لأكلة الربا ، وذلك أنه أرباه [2] فى بطونهم ، فأثقلهم بهم إذا خرجوا من قبورهم يقومون ويسقطون لِعِظَمِ بطونهم وثقلها عليهم ! .

نسأل الله الستر والسلامة والعافية فى الدنيا والآخرة !!!

وقال تعالى : ﴿ **ومن يغْلُل يأتِ بما غَلَّ يومَ القيامة** ﴾ .

وروى عن النبى ﷺ : « من مات على مرتبةٍ من المراتب بُعث عليها يوم القيامة » . ذكره صاحب القوت وهو صحيح المعنى يدل عَلَى صحته ما ذكرناه .

* * *

(١) تمقيتا : أى إثارة للمقت والبغض والكزاهية فى نفوس أهل المحشر نحو النائحات وآكلى الربا – عقوبة لهم .

(٢) أرباه : نماه ، وزاده ، كما نربى الطيور لتنمو وتزيد ، وذلك لأن الربا زيادة يأخذها المرابى بدون وجه حق حيث لم يبذل جهدا يذكر .

فى بعث النبى ﷺ من قبره

ابن المبارك قال : أخبرنا ابن لهيعة ... أن كعبا دخل على عائشة رضى الله عنها فذكروا رسول الله ﷺ . فقال كعب : « ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر ، يضربون بأجنحتهم ، ويصلون على النبى ﷺ حتى إذا أَمْسَوْا عرجوا (١) وهبط سبعون ألف ملك يحفون بالقبر ويضربون بأجنحتهم ، ويصلون على النبى ﷺ سبعون ألفا بالليل ، وسبعون ألفا بالنهار . وحتى إذا انشقت عنه الأرض خرج فى سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه ﷺ » .

والأخبار دالة ثابتة على أن جميع الناس يخرجون عراة ، ويحشرون كذلك !! .

وخرج الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول : حدثنا بشر بن خالد .. قال : حدثنا سعيد بن مسلمة ، عن إسماعيل بن أمية ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : خرج النبى ﷺ ، ويمينه عَلَى أبى بكر ، وشماله على عمر ، فقال : « هكذا نُبعثُ يوم القيامة » .

باب
ما جاء فى بعث الأيام والليالى ويوم الجمعة

عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل يبعث الأيام يوم القيامة على هيأتها ، ويبعث يوم الجمعة : زهراء منيرة ، أهلها محتفون بها كالعروس تُهدَى إلى كريمها (٢) ، تضىء لهم ، يمشون فى ضوئها ، ألوانهم كالثلج بياضا ، وريحهم يسطع كالمسك ، يخوضون فى جبال الكافور ،

---

(١) عرجوا : صعدوا .. ومنه المعراج حيث كان صعودا بالنبى ﷺ .
(٢) كريمها : زوجها الذى يحتفى بها ويكرمها .

ينظر إليهم الثقلان [1] ما يطرقون تعجبا [2] ، يدخلون الجنة ، لا يخالطهم إلا المؤذنون المحتسبون [3] » [خرجه القاضى الشريف أبو الحسن على بن عبد الله ابن إبراهيم الهاشمى العيسوى من ولد عيسى بن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم وإسناده صحيح] وقال أبو عمران الجوانى : « ما من ليلة تأتى إلا تنادى : اعملوا فىَّ ما استطعتم من خير ، فلن أرجع إليكم إلا يوم القيامة » [ذكره أبو نعيم] .

من يتلقى العبد المؤمن إذا قام من قبره ؟

من حديث جابر مرفوعا : « فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات فأنشطا كتابا معقودا فى عنقه . ثم حضرا معه : واحد سائق ، والآخر شهيد » . [ذكره أبو نعيم] .

وذكر أبو نعيم أيضا عن ثابت البنانى أنه قرأ : (حم السجدة) [4] حتى إذا بلغ : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة** ﴾ وقف فقال : (بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعث من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه فى الدنيا ، فيقولان له : لا تخف ولا تحزن ، وأبشر بالجنة التى كنت توعد . قال : فأَمَّن الله خوفه ، وأقر الله عينه ، فما عظيمة تغشى الناس يوم القيامة فالمؤمن فى قرة عين [5] ؛ لما هداه الله له ؛ ولما كان يعمل فى الدنيا) .

---

(١) الثقلان : الإنس والجن .

(٢) الإطراق : خفض الرأس ، وهم لا يطرقون رءوسهم من شدة العجب فهناك ما يشد انتباههم ، ويسترعى نظرهم .

(٣) الذين قاموا : بالأذان إيمانا واحتسابا منهم عند الله لا رياء وتفاخرا .

(٤) حمْ السجدة : المراد بها سورة فصلت ، والآية التى وقف عندها رقم ٣٠ .

(٥) فى الشدائد لا تستقر الأبصار والعيون وتكون زائغة ، أما عند الأمن والسعادة فإن العين تقر وتسعد بما تشاهده وتتمتع بمرآه فهولها قرة عين ، وتدعو لإنسان بالسعادة فتقول : أقر الله عينك .

وقال عمرو بن قيس الملّاى : (إن المؤمن إذا خرج من قبره ، استقبله عمله فى أحسن صورة وأطيب ريح فيقول : هل تعرفنى ؟ فيقول : لا . إلا أن الله قد طيَّب ريحك وحَسَّن صورتك . فيقول : كذا كنت فى الدنيا . أنا عملك الصالح طالما ركبتك فى الدنيا . اركبنى اليوم . ثم تلا : ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا** ﴾ [1] .

وإن الكافر يستقبله عمله فى أقبح صورة ، وأنتن ريح فيقول : هل تعرفنى ؟ فيقول : لا . إلا أن الله قد قبح صورتك ، ونتَّن ريحك . فيقول : كذلك كنت فى الدنيا !، أنا عملك السيىء . طالما ركبتنى فى الدنيا وأنا اليوم أركبك وتلا قول الله تعالى : ﴿ **وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون** ﴾ [2] .

* * *

---

(١) ٨٥ : مريم .

(٢) ٣١ : الأنعام . والأوزار : الآثام ، ويزرون أى يتحملون من الآثام والذنوب ، وفى هذا ذم لهم وتقبيح من شأنهم كما تقول : بئس .. ولا حبذا .

بـــــــاب

أين يكون الناس ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟! ﴾

روى مُسْلم عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : « كنت قائما عند رسول الله ﷺ فجاء حَبْر [١] من أحبار اليهود فقال : السلام عليك يا محمد ، وذكر الحديث . وفيه فقال اليهودى : أين يكون الناس ﴿ **يوم تُبَدَّل الأرض غير الأرض والسموات** ؟ ﴾ [٢] فقال رسول الله ﷺ : « هم فى الظلمة دون الجسر » . الحديث بطوله . وخرج مسلم أيضا وابن ماجه جميعا قالا : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة . حدثنا على بن مسهر عن داود بن أبى هند عن الشعبى عن مسروق عن عائشة قالت : سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات** ﴾ فأين يكون الناس يومئذ ؟ قال : « على الصراط » وأخرجه الترمذى قال : حدثنا ابن أبى عمر قال : حدثنا سفيان عن داود بن هند عن الشعبى عن مسروق ، عن عائشة قالت : يا رسول الله : ﴿ **والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه** ﴾ [٣] فأين يكون المؤمنون يومئذ ؟ قال : « على الصراط يا عائشة » . قال : هذا حديث حسن صحيح .

وخرج عن مجاهد قال : قال ابن عباس : أتدرى ما سعة جهنم ؟ قلت : لا . قال : أجَلْ [٤] والله ما تدرى . حدثتنى عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل : ﴿ **والأرض جميعا قبضته يوم القيامة. والسموات مطويات بيمينه** ﴾ قال : فقلت : فأين الناس يا رسول الله ؟

---

(١) الحَبْر : بفتح الحاء وسكون الباء . العالم ، والجمع أحبار ، وقد تنطق بكسر الحاء .

(٢) إشارة إلى الآية رقم ٤٨ من سورة إبراهيم .

(٣) إشارة إلى الآية رقم ٦٧ من سورة الزمر .

(٤) أَجَلْ : حرف جواب مثل نعم وزنا ومعنى .

قال : « على جسر جهنم » قال : « حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

فصل

وقفة تأملية فيما تضمنته الأحاديث

هذه الأحاديث نص فى أن الأرض والسموات تبدل ، وتزال ، ويخلق الله أرضا أخرى يكون عليها الناس بعد كونهم على الجسر وهو الصراط ، لا كما قال كثير من الناس : إن تبدل الأرض عبارة عن تغيير صفاتها ، وتسوية آكامها [1] ونسف جبالها ، ومد أرضها ، ورواه ابن مسعود رضى الله عنه . خرجه ابن ماجه ، وسيأتى ذكر فى الأشراط إن شاء الله .

وذكر ابن المبارك من حديث شهر بن حوشب قال : حدثنى ابن عباس قال : « إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم ، وزيد فى سعتها كذا وكذا » وذكر الحديث .

وروى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : « تبدل الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدها مد الأديم » [ذكره الثعلبى فى تفسيره] .

وروى على بن الحسين رضى الله عنهما قال : « إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مد الأديم حتى لا يكون لأحد من البشر إلا موضع قدميه » . [ذكره الماوردى] ، وما بدأنا بذكره أصح ، لأنه نص ثابت عن النبى ﷺ . فإن قال قائل : إن بدَّل فى كلام العرب معناه : تغير الشىء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **كلما نضجت جلودهم بَدَّلناهم جلودا غيرها** ﴾ [2] . وقال : ﴿ **فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم** ﴾ [3] . ولا يقتضى هذا إزالة

---

(١) الآكام : جمع أكمة ، وهى التل ، وقيل الشرفة كالرابية ، وهو ما اجتمع من الحجارة فى مكان واحد .

(٢) ٥٦ : النساء .

(٣) ٥٩ : البقرة .

العين ، وإنما معناه تغيير الصفة . ولو كان المعنى الإزالة لقال : يوم تُبْدَل الأرضُ مخففا من أبدلت الشيء : إذا أزلت عينه وشخصه . قيل له : ما ذكرته صحيح ، ولكن قد قرىء قوله عز وجل : ﴿ **عسى ربُّنا أن يُبَدِّلَنا خيرا منها** ﴾ [١] مخففا ومثقلا بمعنى واحد . قال : ﴿ **ولَيبدِّلنهم من بعد خوفهم أمنا** ﴾ [٢] وقال : ﴿ **فأولئك يبدِّل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ [٣] وكذا ذكر تاج اللغة أبو نصر الجوهرى فى الصحاح [٤] ، وأبدلت الشيء بغيره ، وبدَّله الله من الخوف أمنا ، وتبديل الشيء أيضا : تغييره ، فقد دل القرآن وكلام العرب على أن بدل وأبدل بمعنى واحد ، وقد فسر النبى ﷺ أحد المعنيين فهو أعلى ، ولا كلام معه .

قال ابن عباس وابن مسعود : تبدل الأرض أرضا بيضاء كالفضة لم يسفك عليها دم حرام ، ولم يعمل عليها خطيئة قط .

وقال ابن مسعود أيضا : تبدل الأرض نارا والجنة من ورائها يرى أكوابها وكواعبها [٥] . وقال أبو الجلد جيلان بن فروة : إنى لأجد فيما أقرأ من كتب الله أن الأرض تشعل نارا يوم القيامة . وقال على رضى الله عنه : تبدل الأرض فضة ، والسماء ذهبا . وقال جابر : سألت أبا جعفر محمد بن على عن قول الله تعالى : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض** ﴾ قال : تبدل خبزة يأكل منها الخلق يوم القيامة . ثم قرأ : ﴿ **وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام** ﴾ [٦] وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب : تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه .

---

(١) ٣٢ : القلم .
(٢) ٥٥ : النور .
(٣) ٧٠ : الفرقان .
(٤) الصِّحاح : بكسر الصاد المشددة أى الكلمات الصحيحة وهو كتاب كبير يعتبر أصلا بين معاجم اللغة وبين أيدينا (مختار الصحاح) .
(٥) الكواعب : جمع كاعب ، وهى الفتاة التى نتأ ثديها فهى كاعب ، وسميت الكعبة بذلك لنتوئها ، وقيل : لتربيعها ، وارتفاعها .
(٦) ٨ : الأنبياء .

قلت : وهذا المعنى الذى قاله سعيد بن جبير ، ومحمد بن كعب مروى فى الصحيح وسيأتى . وإليه ذهب ابن برجان فى كتاب الإرشاد له ، وأن المؤمن يطعم يومئذ من بين رجليه ، ويشرب من الحوض ، فهذه أقوال الصحابة والتابعين دالة على ما ذكرنا .

وأما تبديل السماء : فقيل – تكوير شمسها وقمرها وتناثر نجومها . قاله ابن عباس . وقيل اختلاف أحوالها ، فتارة كالمهل ، وتارة كالدهان . [حكاه ابن الأنبارى] .

وقال كعب : تصير السماء دخانا ، وتصير البحار نيرانا . وقيل تبديلها : أن تطوى كطى السجل للكتاب [1] . وذكر أبو الحسن شبيب بن إبراهيم بن حيدرة فى كتاب الإفصاح له : أنه لا تعارض بين هذه الآثار ، وأن الأرض والسموات تبدل كرتين : إحداهما : هذه الأولى ، وأنه سبحانه يغير صفاتها قبل نفخة الصعق ، فتنتثر أولا كواكبها ، وتكسف شمسها وقمرها وتصير كالمهل ، ثم تكشط عن رءوسهم ، ثم تسير الجبال ، ثم تموج الأرض ، ثم تصير البحار نيراناً ، ثم تنشق الأرض من قطر إلى قطر ، فتصير الهيئة غير الهيئة ، والبنية غير البنية ، ثم إذا نفخ فى الصور نفخة الصعق طويت السماء ، ودحيت الأرض ، وبدلت السماء سماء أخرى ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها** ﴾ [2] وبدلت الأرض : تمد مد الأديم العكاظى ، وأعيدت كما كانت فيها القبور ، والبشر على ظهرها وفى بطنها ، وتبدل أيضا تبديلا ثانيا ، وذلك إذا وقفوا فى المحشر فتبدل لهم الأرض التى يقال لها : (الساهرة) . يحاسبون عليها وهى أرض عفراء ، وهى البيضاء من فضة لم يسفك عليها دم حرام ، ولا جرى عليها ظلم قط ، وحينئذ يقوم الناس على الصراط ، وهو لا يسع جميع الخلائق وإن كان قد روى أن مسافته ألف سنة صعودا ، وألف سنة هبوطا ، وألف سنة استواء ، ولكن الخلق أكثر من

---

(١) كطى السجل : كطى الصحيفة على الكتاب .

(٢) ٦٩ : الزمر .

ذلك فيقوم من فضل على الصراط على متن جهنم ، وهى كإهالة جامدة ، وهى الأرض التى قال عبد الله : إنها أرض من نار يعرق فيها البشر ، فإذا حوسب الناس عليها ، أعنى الأرض المسماة بالساهرة ، وجاوزوا الصراط ، وجعل أهل الجنان من وراء الصراط ، وأهل النيران فى النار وقام الناس على حياض الأنبياء يشربون ، بدلت الأرض كقرصة النقى فأكلوا من تحت أرجلهم ، وعند دخولهم الجنة كانت خبزة واحدة ، أى قرصا واحدا يأكل منه جميع الخلق ، ممن دخل الجنة ، وإدامهم زيادة كبد ثور فى الجنة وزيادة كبد النون [1] على ما يأتى .

* * *

(١) النون : السمكة الكبيرة والحوت ، وفى القرآن : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبا** ﴾ .

الباب الثاني

مع الحشود الهائلة على أرض المحشر
مشاهد الحشر الأعظم

﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ﴾

[الكهف : ٤٧]



بين يدى هذا البـاب :

ويرقب القرطبى الموقف عن قرب .. ويلهمه الله - سبحانه - فهم آياته فيحدثنا عن الحشر وأنواعه ، حيث يتحرك الجميع بعد أن تشقق الأرض عنهم سراعا .. أفواجا ، أو وفدا ، أو أشتاتا .. إلى الله .. إلى أرض المحشر .. وهو حشر على الله يسير !

ولا يفوته - أن يحدثنا عن أنواع الحشر .. فهناك أول الحشر وهناك حشر إلى الموقف .. وهناك حشر إلى الجنة أو النار ثم يلقى الأضواء على أرض المحشر مبينا لنا من أولئك الذين يحشرون أفواجا ؟ ومن يحشرون أشتاتا ؟ وعلى أى كيفية تحشر الخلائق .. ويجيب عن تساؤلات قد تشغل البال ، ويدور حولها أكثر من سؤال !!

ولا يفوته - وهو الإمام - أن يوفق بين ما ظاهره التعارض من آيات الحشر فيجمع بينها فى إجابة شافية على ضوء أحوال المبعوثين ومواقفهم المتعددة ، فلكل موقف ما يناسبه وما ورد فيه من الآيات :

فهناك حال البعث من القبور .
وحال السوق إلى موضع الحساب .
وحال المحاسبة .
وحال السوق إلى دار الجزاء .
وحال مقامهم فى الدار التى يستقرون فيها .

وعلى ضوء هذه الأحوال كان التوفيق بين الآيات والجمع ولا تعارض .

وبعد هذا يفرغ لإيضاح كيف يحشر الناس ؟ ويبين أن الموقف أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض فلكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه .

وإذا كانوا سيحشرون حفاة عراة .. فمن أول من يكسى ؟

وما الحكمة فى أن الخليل إبراهيم هو المقدم فى هذا الشأن ؟

وهل هناك من يحشر بكفنه ؟

وكيف نوفق بين ما قد يبدو من تعارض فيما روى من الأحاديث فى هذا المجال ؟

وأخيرا يقف وقفة مع ما جاء من الأحاديث بشأن حشر النبى ﷺ بين أبى بكر وعمر ، فيسلط الضوء عليها ليتجلى لنا وجه الصواب ..

ولا أراك إلا متابعا لهذه الرحلة الروحية فى صحبة الإمام القرطبى لمشاهدة يوم ، ويا له من يوم !!، يوم مجموع له الناس !!

* * *

باب الحشـــر – ومعناه : الجمع

وهو على أربعة أوجه :

حشران فى الدنيا ، وحشران فى الآخرة !!

أما الذى فى الدنيا فقوله تعالى : ﴿ **هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر** ﴾ (١) .

قال الزهرى : كانوا من سبط (٢) لم يصبهم جلاء ، وكان الله عز وجل قد كتب عليهم الجلاء ، فلولا ذلك لعذبهم فى الدنيا .

وكان أول حشر حشروا إلى الشام .

قال ابن عباس : من شك أن الحشر فى الشام فليقرأ هذه الآية ؛ وذلك أن النبى ﷺ قال لهم :

« اخرجوا ...

قالوا : إلى أين ؟

قال : إلى أرض المحشر !! »

قال قتادة : هذا أول الحشر !

٢ – والثانى : ما رواه مسلم عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « يحشر الناس على ثلاث طرائق : راغبين ، وراهبين ، واثنين على بعير وثلاثة على بعير ، وتحشر بقيتهم النار تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، وتمسى معهم حيث أمسوا » [أخرجه البخارى] .

---

(١) ٢ : الحشر .

(٢) سبط : السِّبط مثل حمل وجمعه أسباط . ولد الولد والسبط أيضا الفريق من اليهود ، يقال للعرب : قبائل ولليهود أسباط .

وقال قتادة : الحشر الثانى : نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا [1] ، وتأكل منهم من تخلف .

قال القاضى عياض : هذا الحشر فى الدنيا قبل قيام الساعة وهو آخر أشراطها [2] . كما ذكر مسلم فى آيات الساعة .

٣ - أما الحشر الثالث فهو حشرهم إلى الموقف بين يدى الله سبحانه وتعالى . قال : ﴿ **وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا** ﴾ [3] .

٤ - أما الرابع : فهو حشرهم إلى الجنة والنار . قال الله تعالى : ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا** ﴾ [4] .

وسمى المتقون وفدا ؛ لأنهم يسبقون الناس إلى حيث يدعون إليه ، فهم لا يتباطئون ، لكنهم يجدون ويسرعون ، والملائكة تتلقاهم بالبشارات قال الله تعالى : ﴿ **وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون** ﴾ [5] فيزيدهم ذلك إسراعا ، وحُقَّ للمتقين أن يسبقوا لسبقهم فى الدنيا بالطاعات ﴿ **ونسوق المجرمين إلى جهنم وِرْدا** ﴾ [6] أى عِطاشاً وقال : ﴿ **ونحشر المجرمين يومئذ زُرْقا** ﴾ [7] . وقال : ﴿ **ونحشرهم يوم القيامة عُمياً ، وبُكماً ، وصُماً** ﴾ [8] وقال : ﴿ **الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شرٌّ مكاناً وأضل سبيلا** ﴾ [9] .

---

(١) قالوا : لجئوا إلى ما يحميهم من حر القيلولة وذلك عند الظهيرة .
(٢) أشراطها : الشَّرَط بفتحتين : العلامة مثل سبب وأسباب ، ومنه أشراط الساعة .
(٣) ٤٧ : الكهف .
(٤) ٨٥ : مريم .
(٥) ١٠٣ : الأنبياء .
(٦) ٨٦ : مريم .
(٧) ١٠٢ : طه . وعنى بالزرق فى هذا الموضع ما يظهر فى أعينهم من شدة العطش عند الحشر وقيل : يحشرون عميا .
(٨) ٩٧ : الإسراء .
(٩) ٣٤ : الفرقان .

وأخرج البخارى ومسلم عن أنس - رضى الله عنه - أن رجلا قال : يا رسول الله ، الذين يحشرون على وجوههم . أيُحشَر الكافر على وجهه ؟. قال رسول الله ﷺ : « أليس الذى أمشاه على الرجلين قادرا أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ؟ » . قال قتادة : - حين بلغه - : « بلى ، وعزة ربنا » .

قال أبو حامد : وذكر هذا الفصل ، وفى طبع الآدمى إنكار ما لم يأنس به ولم يشاهده ، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهى تمشى على بطنها لأنكر المشى من غير رِجْل ، والمشى بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك ، فإياك أن تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة لمخالفتها قياس الدنيا ، فإنك لو لم تشاهد عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكارا لها .

فأحضر - رحمك الله - صورتك وأنت قد وقفت عاريا ذليلا مدحورا متحيرا مبهوتا ، منتظرا لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاء .

باب

بيان الحشر إلى الموقف كيف هو ؟

وفى أرض المحشر ، وذكر الصخرة

وقوله تعالى : ﴿ واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ﴾ الآية

صخرة بيت المقدس :

أبو نعيم قال : حدثنا أبى ، قال : حدثنا إسحق ، قال : حدثنا محمد قال : حدثنا عبد الرازق ، قال : أخبرنا المنذر بن النعمان أنه سمع وهب ابن منبه يقول : قال الله تعالى لصخرة بيت المقدس : « لَأَضَعَنَّ عليك عرشى ، ولأحشرن عليك خلقى ، وليأتينك يومئذ داود راكبا » .

* * *

رأى بعض العلماء فى الآية :

وقال بعض العلماء فى قوله تعالى : ﴿ **واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب** ﴾ [١] . قال : إنه ملك قائم على صخرة بيت المقدس فينادى : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، ويا عظاما نخرة ، ويا أكفانا فانية ، ويا قلوبا خاوية ، ويا أبدانا فاسدة ، ويا عيونا سائلة ، قوموا لعرض رب العالمين !

قال قتادة : المنادى هو صاحب الصور ، ينادى من الصخرة من بيت المقدس . قال كعب : وهى أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا وقيل : باثنى عشر ميلا . ذكره القشيرى ، والأول ذكره الماوردى .

وقيل : إن المنادى جبريل . والله أعلم .

قال عكرمة : ينادى منادى الرحمن ، فكأنما ينادى فى آذانهم يوم يسمعون الصيحة بالحق يريد النفخ فى الصور : ﴿ **ذلك يوم الخروج . يوم تشقق الأرض عنهم سراعا** ﴾ [١] إلى المنادى صاحب الصور .. إلى بيت المقدس .. أرض المحشر ﴿ **ذلك حشر علينا يسير** ﴾ أى : هين سهل .

تساؤلات والإجابة عنها :

– (فإن قيل) : فإذا كانت الصيحة للخروج فكيف يسمعونها وهم أموات ؟

– (قيل له) : إن نفخة الإحياء تمتد وتطول ، فتكون أوائلها للإحياء ، وما بعدها للإزعاج من القبور ، فلا يسمعون ما يكون للإحياء ، ويسمعون ما يكون للإزعاج !.

ويحتمل أن تتطاول تلك النفخة ، والناس يحيون منها أولا فأولا ، وكلما حيى واحد سمع ما يحيى به من بعده إلى أن يتكامل الجميع للخروج ، وقد

---

(١) ق : ٤١ .

تقدم أن الأرواح فى الصور ؛ فإذا نفخ فيه النفخة الثانية ذهب كل روح إلى جسده ، فإذا هم من الأجداث : أى القبور ، إلى ربهم ينسلون ، وهذا يبين لك ما ذكرنا ، وبالله توفيقنا .

الحشر كيف هو ؟

قال محمد بن كعب القرظى : يحشر الناس يوم القيامة فى ظلمة ، وتطوى السماء ، وتتناثر النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادى مناد فيتبع الناس الصوت يومئذ ، فذلك قول الله عز وجل : ﴿ **يومئذ يتبعون الداعى لا عِوجَ له** ﴾ [1] الآية .

وقال الله عز وجل : ﴿ **إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت** ﴾ [2] . فجر عذبها فى ملحها ، وملحها فى عذبها فى تفسير قتادة . ﴿ **وإذا القبور بعثرت** ﴾ [3] . أى أخرج ما فيها من الأموات .

وقال تعالى : ﴿ **إذا السماء انشقت وأذنت لربها** ﴾ : أى سمعت وأطاعت ﴿ **وحقت** ﴾ [4] : أى وحُقَّ لها أن تفعل ، ﴿ **وإذا الأرض مُدَّت** ﴾ [5] تمد مَدّ الأديم ، وهذا إذا بدلت بأرض بيضاء كأنها فضة لم تعمل عليها خطيئة قط ، ﴿ **وألقت ما فيها** ﴾ [6] : من الأموات ، فصاروا على ظهرها .

---

(١) طه : ١٠٨ .
(٢) الانفطار : ١ - ٣ .
(٣) الانفطار : ٤ .
(٤) الإنشقاق : ١ - ٢ .
(٥) الانشقاق : ٣ .
(٦) الانشقاق : ٤ .

(مسلم) عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء [١] كقرصة النقى [٢] ليس فيها علم لأحد ، وخرج أبو بكر أحمد بن على الخطيب عن عبد الله بن مسعود : يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط ، وأظمأ ما كانوا قط ، وأعرى ما كانوا قط ، وأنصب [٣] ما كانوا ، فمن أطعم لله أطعمه الله ، ومن سقا لله سقاه ، ومن كسا لله كساه الله ، ومن عمل لله كفاه ، ومن نصر الله أراحه الله فى ذلك اليوم » .

عشرة أصناف :

وروى من حديث معاذ بن جبل قال : قلت : يا رسول الله ، أرأيت قول الله تعالى : ﴿ **يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا** ؟ ﴾ [٤] . فقال النبى ﷺ : « يا معاذ بن جبل ، لقد سألت عن أمر عظيم ، ثم أرسل عينيه بالبكاء والدموع ، ثم قال : « تحشر عشرة أصناف من أمتى أشتاتا ، قد ميزهم الله من جماعات المسلمين ، وبدل صورهم : فمنهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ، وبعضهم منكسين - أرجلهم أعلاهم ، ووجوههم يسحبون عليها ، وبعضهم عمى يتردَّون [٥] ، وبعضهم صم بكم لا يعقلون ، وبعضهم يمضغون ، ألسنتهم مدلاة على صدورهم يسيل منها القيح من أفواههم لعابا تقدرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلبون على جذوع النار ، وبعضهم أشد نتنا من الجيف ، وبعضهم يلبسون جلابيب سابغة [٦] من القَطِران !! :

---

(١) عفراء : ليست بناصعة البياض .
(٢) النقى : الخبز الأبيض .
(٣) النصب : بفتح الصاد : التعب ﴿ **فإذا فرغت فانصب** ﴾ .
(٤) ١٨ : النبأ .
(٥) التردى : السقوط فيما يشبه الحفر .
(٦) سابغة : مغطية .

١ – فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس يعنى : النمام !

٢ – وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت والحرام والمكس !

٣ – وأما المنكسون رءوسهم ووجوههم فأكلة الربا !

٤ – والعمى – من يجور فى الحكم !

٥ – والصم البكم الذين يعجبون بأعمالهم !

٦ – والذين يمضغون ألسنتهم – هم العلماء والقُصاص الذين يخالف قولهم فعلهم !

٧ – والمقطعة أيديهم وأرجلهم – الذين يؤذون الجيران !

٨ – والمصلبون على جذوع النار السعاة بالناس إلى السلطان !

٩ – والذين هم أشد نتنا من الجيف – الذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله من أموالهم !!

١٠ – والذين يلبسون الجلابيب – فأهل الكبر والفخر والخيلاء !!

وقال أبو حامد : فى كتاب كشف علم الآخرة :

(ومن الناس من يحشر بفتنته الدنيوية : فقوم مفتونون بالعود (١) معتكفون عليه دهرهم ، فعند قيام أحدهم من قبره يأخذه بيمينه ، فيطرحه من يده ويقول : سحقا لك !!... شغلتنى عن ذكر الله ، فيعود إليه ويقول : أنا صاحبك حتى يحكم الله بيننا وهو خيرُ الحاكمين .

* * *

---

(١) العود : آلة من المعازف يضرب بها ، والجمع عيدان وأعواد وأعود .

بـــــاب
الجمع بين آيات وردت فى الكتاب فى الحشر ظاهرها التعارض

منها : قوله تعالى : ﴿ ويوم نحشرُهم كأن لَّم يَلْبَثُوا إلا ساعةً من النهار يتعارفون بينهم ﴾ [١] .

وقال تعالى : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجُوهِهِم عُميا وبُكْما وصُما ﴾ [٢] وفى آية ثالثة أنهم يقولون : ﴿ يا ويلَنا مَن بعثَنا من مَرقدنا ؟! ﴾ [٣] وهذا كلام ، وهو مضاد للبكم ، والتعارف تخاطب ، وهو مضاد للصم والبكم معا ؟

وقال تعالى : ﴿ فلَنَسْأَلَنّ الذين أُرسلَ إليهم ولَنَسْأَلَنَّ المرسلين ﴾ [٤] .

والسؤال لا يكون إلا بالإسماع ، وإلا لناطق يتسع للجواب ؟!

وقال : ﴿ ونَحشُر المجرمين يومئذ زُرقا ﴾ [٥] .

وقال : ﴿ فإذا هُمْ من الأجداثِ إلى ربِّهم يَنْسِلُون ﴾ [٦] .

وقال : ﴿ يوم يَخرجون من الأجداثِ سِراعا كأنهم إلى نُصبٍ يوفضون ﴾ [٧] والنسلان ، والإسراع مخالفان للحشر على الوجوه ؟

والجواب لمن سأل عن هذا الباب أن يقال له :

---

(١) ٤٥ : يونس .
(٢) ٩٧ : الإسراء .
(٣) ٥٢ : يسٓ .
(٤) ٦ : الأعراف .
(٥) ١٠٢ : طه .
(٦) ٥١ : يسٓ . والأجداث : القبور جمع جدث ، والنَّسَلان : الإسراع فى المشى .
(٧) ٤٣ : المعارج . ويوفضون كأنهم يستبقون إلى علم قد نصب لهم .

إن الناس إذا أُحيوا ، وبعثوا من قبورهم ، فليست حالهم حالة واحدة ، ولا موقفهم ولا مقامهم واحدا ، ولكِنْ لهم مواقف وأحوال ، واختلفت الأخبار عنهم لاختلاف مواقفهم وأحوالهم ، وجملة ذلك أنها خمسة أحوال :

(الأولى) : حال البعث من القبور .

(والثانية) : حال السوق إلى موضع الحساب .

(والثالثة) : حال المحاسبة .

(والرابعة) : حال السوق إلى دار الجزاء .

(والخامسة) : حال مُقامهم فى الدار التى يستقرون فيها .

فأما حال البعث من القبور ، فإن الكفار يكونون كاملى الحواس والجوارح ؛ لقول الله تعالى : ﴿ **يتعارفون بينهم** ﴾ [(١)] وقوله : ﴿ **يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا** ﴾ [(٢)] وقوله : ﴿ **فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ [(٣)] وقوله : ﴿ **قال : كم لبثتم فى الأرض عدد سنين** [(٤)] إلى قوله : **لا تُرْجَعُون** ﴾ [(٥)] .

والحال الثانية : حال السوق إلى موضع الحساب ، وهم أيضا فى هذه الحال بحواس تامة ؛ لقوله عز وجل : ﴿ **اُحشُروا الذين ظلموا وأزواجَهم وما كانوا يعبدون من دونِ الله ، فاهدوهُم إلى صراطِ الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون** ﴾ [(٦)] .

ومعنى فاهدوهم : أى دلوهم ، ولا دلالة لأعمى أصم ، ولا سؤال لأبكم . فثبت بهذا أنهم يكونون بأبصار ، وأسماع ، وألسنة ناطقة .

---

(١) يونس : ٤٥ .
(٢) طه : ١٠٣ .
(٣) الزمر : ٦٨ .
(٤) ١١٢ : المؤمنون .
(٥) نهاية الآية رقم ١١٥ .
(٦) الصافات : ٢٤ .

والحالة الثالثة : وهى حالة المحاسبة ، وهم يكونون فيها أيضا كاملى الحواس ليسمعوا ما يقال لهم ، ويقرءوا كتبهم الناطقة بأعمالهم ، وتشهد عليهم جوارحهم بسيئاتهم ، فيسمعونها ، وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم يقولون : ﴿ **ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها** ﴾ [٢] وأنهم يقولون لجلودهم : ﴿ **لِمَ شَهِدْتُم علينا ؟!** ﴾ [٣] ، وليشاهدوا أحوال القيامة ، وما كانوا مكذبين فى الدنيا به من شدتها ، وتصرف الأحوال بالناس فيها .

وأما الحالة الرابعة : وهى السَّوْق إلى جَهنم ، فإنهم يسلبون فيها أسماعهم وأبصارهم وألسنتهم لقوله تعالى : ﴿ **ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُميا وبُكْماً وصُمًّا مأواهم جهنم** ﴾ [٤] .

ويحتمل أن يكون قوله تعالى : ﴿ **يُعرَفُ المجرمون بسيماهم فيُؤخَذُ بالنَّواصى والأقدام** ﴾ [٥] إشارة إلى ما يشعرون به من سلب الأبصار والأسماع والمنطق .

والحالة الخامسة : حال الإقامة فى النار ، وهذه الحالة تنقسم إلى :

(١) بُدُوّ .... و (٢) مآل ....

فبُدُوُّها : أنهم إذا قطعوا المسافة التى بين موقف الحساب وشفير [٦] جهنم عميا وبكما وصُمًّا إذلالاً لهم تمييزاً عن غيرهم ، ثم رُدَّت الحواسُّ إليهم ليشاهدوا النار ، وما أعدَّ الله لهم فيها من العذاب ، ويعاينوا [٧] ملائكة العذاب ، وكل ما كانوا به مكذبين فيستقرون فى النار ناطقين سامعين

---

(٢) ٤٩ : الكهف .
(٣) ٢١ : فصلت .
(٤) ٩٧ : الإسراء .
(٥) ٤١ : الرحمن .
(٦) شفير : حافة وشفر كل شىء حرفه .
(٧) يعاينوا ملائكة العذاب : يروهم عيانا .

مبصرين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ وُقِفُوا على النار ، فقالوا : يا ليتنا نُرَدُّ ولا نكذبَ بآياتِ ربنا ونكونَ من المؤمنين !!** ﴾ [١] ، وقال : ﴿ **كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا ادَّاركوا فيها جميعا قالت أُخراهم لأُولاهم ... وقالت أولاهم لأخراهم ..** ﴾ [٢] ، وقال : ﴿ **كلما أُلقِىَ فيها فوجٌ سألهم خزنتُها ألم يأتكم نذير ؟ ، قالوا : بلى ، قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء** ﴾ [٣] وأخبر تعالى : أنهم ينادون أهلَ الجنة فيقولون : ﴿ **أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله** ﴾ [٤] ، وأن أهل الجنة ينادونهم : ﴿ **أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟! قالوا : نعم** ﴾ [٥] ، وأنهم يقولون : ﴿ **يا مالك لِيَقْضِ علينا ربُّك** ﴾ [٦] فيقول لهم : ﴿ **إنكم ماكثون** ﴾ ، وأنهم يقولون لخزنة جهنم : ﴿ **آدعوا ربَّكم يخففْ عنا يوما من العذاب** ﴾ [٧] فيقولون لهم : ﴿ **أولم تك تأتكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى ، قالوا : فآدعوا ، وما دعاءُ الكافرين إلا فى ضلال** ﴾ [٨] .

وأما العقبى والمآل : فإنهم إذا قالوا : ﴿ **أخرجنا منها فإن عُدْنا فإنا ظالمون** ﴾ [٩] فقال الله تعالى : ﴿ **اخسئوا فيها ولا تكلمون** ﴾ [١٠] وكتب عليهم الخلود بالمثل الذى يضرب لهم ، وهو أن يُؤتَى بكبشٍ أملحَ [١١]

---

(١) ٢٧ : الأنعام .
(٢) ٣٨ : الأعراف ، مع بداية الآية ٣٩ .
(٣) ٨ : الملك وبعض الآية ٩ .
(٤) ٥٠ : الأعراف .
(٥) ٤٤ : الأعراف .
(٦) ٧٧ : الزخرف .
(٧) ٤٩ : غافر .
(٨) ٥٠ : غافر .
(٩) ١٠٧ : المؤمنون .
(١٠) ١٠٨ : المؤمنون .
(١١) كبش أملح : إذا كان أسود يعلو شعره بياض ، وقيل : نقى البياض ، وقيل ليس بخالص البياض ، بل فيه عفرة .

ويُسَمَّى : الموت ، ثم يذبح على الصراطِ بين الجنة والنار ، ويُنادَوْا : « يا أهل الجنةِ ، خلودٌ فلا موتَ ، ويا أهلَ النارِ خلودٌ فلا موتَ » يُسْلَبُوا فى ذلك الوقت أسماعَهم ، وقد يجوز أن يُسْلَبُوا الأبصارَ والكلام ، لكن سلب السمع يقين ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ **لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون** ﴾ [(١)] ، فإذا سُلبوا الأسماعَ صاروا إلى الزفير والشهيق .

ويحتمل أن تكونَ الحكمة فى سلب الأسماع من قِبَل [(٢)] أنهم سمعوا نداءَ الرب سبحانه على ألسنةِ رسُلِه فلم يجيبوه ، بل جحدوه ، وكذبوا به قبل قيام الحجة عليهم بصحته ، فلما كانت حجة الله عليهم فى الدنيا الاستماع عاقبهم الله على كفرهم فى الأخرى بسلب الأسماع !!، يبين ذلك أنهم كانوا يقولون للنبى ﷺ : ﴿ **وفى آذاننا وَقْرٌ ، ومن بيننا وبينك حجاب** ﴾ [(٣)] . وقالوا : ﴿ **لا تسمعوا لهذا القرآن والْغَوْا فيه** ﴾ [(٤)] . وإنَّ قوم نوح عليه السلام كانوا يَسْتَغْشُون [(٥)] ثيابَهم تسترا منه ؛ لئلا يروه ، ولا يسمعوا كلامه ، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن الكفار فى وقت نبينا محمد ﷺ مثله فقال : ﴿ **ألا إنهم يَثْنون صُدورَهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابَهم** ﴾ [(٦)] .

وإن سُلبت أبصارُهم ؛ فلِأنهم أبصروا الغيرَ فلم يعتبروا ..... والنطق ؛ فلأنهم أوتوه فكفروا ، فهذا وجه الجمع بين الآيات على ما قاله علماؤنا ، والله أعلم .

---

(١) ١٠٠ : الأنبياء .

(٢) من قِبَل (بكسر القاف وفتح الباء) : من جهة ، ومن ناحية .

(٣) ٥ : فصلت .

(٤) ٢٦ : فصلت . ومعنى : ﴿ **والغَوْا فيه** ﴾ . أى إذا سمعتم قارئه فتكلموا كلا ما لغوا وباطلا كيلا تسمعوه ولا تفهموا ما فيه .

(٥) يستغشون ثيابهم : يجعلونها غشاء وغطاء يسترهم ويحول دون الرؤية .

(٦) ٥ : هود . وكان المنافقون إذا مروا برسول الله ﷺ يثنى أحدهم صدره ، ويطأطىء رأسه ويتغشى : يغطى رأسه بثوبه . كى لا يراه النبى ﷺ .

بـــــاب

ما جاء فى حشر الناس إلى الله عز وجل حُفاة عُراة غُرْلا وفى أول من يكسى منهم ، وفى أول ما يتكلم من الإنسان

مسلم عن ابن عباس رضى الله عنه قال :

قام فينا رسولُ الله ﷺ بموعظة فقال :

« أيها الناس ، إنكم تُحشرون إلى الله حُفَاةً عراةً غُرْلاً ﴿ **كما بدأنا أولَ خَلْقٍ نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين** ﴾ [1] ، ألا وإن أولَ الناسِ يكْسَى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ، ألا وإنه يؤتى برجالٍ من أمتى فيُؤْخَذ بهم ذاتَ الشمالِ فأقول : ياربّ ، أصحابى !!، فيقول : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ؟! فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ **وكنتَ عليهم شهيدا ما دمتُ فيهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **العزيز الحكيم** ﴾ [2] قال : فيُقَال : إنهم لم يزالوا مدبرين مرتدين على أعقابهم مُذْ فارقتهم » . أخرجه البخارى أيضا ، والترمذى عن معاوية بن حيدة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى حديث ذكره قال : وأشار بيده إلى الشام فقال : « ههُنا إلى ههُنا تُحَشرون رُكبانا ، ومشاة ، وتُجَرُّون على وجوهكم يوم القيامة ، أفواهكم الفدام توفون سبعين أمة ، أنتم خيرهم على الله وأكرمهم على الله » وإن أولَ ما يُعْرِبُ عن أحدكم فخذه » [3] ، وفى رواية أخرى ذكرها ابن أبى شيبة : « وإن أول ما يتكلم من الإنسان فخذُه وكفه » .

---

(١) ١٠٤ : الأنبياء .

(٢) ١١٧ : المائدة ، وحتى نهاية الآية ١١٨ .

(٣) أعرب عن الشيء : أبان عنه وكشف المخبوء منه .

(فصل) : وقفة مع الأحاديث التى سبقت :

قوله : غُرْلاً : أى غير مختونين ، والفدام : مصفاة الكوز والإبريق قاله الليث . قال أبو عبيدة : يعنى أنهم مُنعوا الكلام حتى تتكلم أفخاذهم فشبه ذلك بالفدام الذى يجعل على الإبريق .

وقوله : أول من يكسى إبراهيم : فضيلة عظيمة لإبراهيم وخصوص له !! كما خص موسى عليه السلام بأن النبى ﷺ يجده معلقا بساق العرش مع أن النبى ﷺ أول من تنشقُّ عنه الأرض ، ولا يلزم من هذا أن يكون أفضل منه مطلقا ، بل هو أفضل مَن وافى القيامة على ما يأتى بيانه فى أحاديث الشفاعة ، والمقام المحمود ، إن شاء الله تعالى .

قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر فى كتاب (المفهم) له : « ويجوز أن يراد بالناس من عَدَاه من الناس ، فلم يدخل تحت خطاب نفسه . والله أعلم .

قلت : هذا حسن لولا ما جاء منصوصا خلافه :

فقد روى ابن المبارك فى رقائقه : أخبرنا سفيان عن عمر بن قيس عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث ، عن على رضى الله عنه قال :

« أول من يُكسَى خَليلُ الله إبراهيم قِبطيَّتين [1] ، ثم يكسى محمد ﷺ حلة حبرة [2] عن يمين العرش » [ذكره البيهقى أيضا] .

وروى عباد بن كثير عن أبى الزبير ، عن جابر رضى الله عنه قال : « إن المؤذنين والملبين يخرجون يوم القيامة من قبورهم ، يؤذن المؤذن ويلبى الملبى ، وأول من يكسى من حُلل الجنة إبراهيم خليل الله ، ثم محمد ﷺ ثم النبيون والرسل عليهم السلام ، ثم يكسى المؤذنون ، وتتلقاهم الملائكة على نجائب [3]

---

(١) قبطيتين : الواحدة منهما قبطية والجمع قباطى ثياب رقيقة من كتان كانت تعمل بمصر أشبه بالجبة .

(٢) الحِبَرة بوزن عنبة ثوب يمانى من قطن أو كتان مخطط وموشى .

(٣) النجائب : جمع نجيبة كرام الإبل .

من نور أحمر أزمتها (١) من زمرد أخضر ، رحالها (٢)من الذهب ويشيعهم من قبورهم سبعون ألف ملك إلى المحشر » [ذكره الحليمى فى كتاب (منهاج الدين) له] .

وذكر أبو نعيم الحافظ من حديث الأسود وعلقمة وأبى وائل ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : جاء ابنا مليكة إلى النبى ﷺ .. الحديث . وفيه : « فيكون أول من يكسى إبراهيم عليه السلام يقول : (اكسوا خليلى) فيؤتلا بريطتين (٣) بيضاوين فيلبسهما ثم يقعد مستقبل العرش ، ثم أوتَى بكسوتى فألبسها فأقوم عن يمينه قياما لا يقومه أحد غيرى ، يغبطنى (٤) فيه الأولون والآخرون ... وذكر الحديث » .

وخرج البيهقى بإسناده فى كتاب الأسماء والصفات عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم تُحشَرون حفاة عراة ، وأول من يكسى من الجنة إبراهيم عليه السلام يكسى حلة من الجنة ، ويؤتى بكرسى فيطرح عن يمين العرش ويؤتى بى فأكسى حلة من الجنة لا يقوم لها البشر ، ثم أوتى بكرسى فيطرح لى على ساق العرش » .

وهذا نص بأن إبراهيم أول من يكسى ، ثم نبينا بإخباره ﷺ فطوبى (٥) ثم طوبى لمن كسى فى ذلك الوقت من ثياب الجنة ؛ فإنه من لبسه فقد لبس جبة تقيه مكاره الحشر وعرقه ، وحر الشمس ، وغير ذلك من أهواله .

* * *

---

(١) أزِمَّتُها : جمع زمام وهو المِقْود والحبل الذى يقاد به البعير .

(٢) الرحال : جمع رحل ، وهو ما يوضع فوق ظهر الجمل للجلوس عليه .

(٣) ريطتين : الواحدة ريطة ، وهى الثوب الرقيق ، أو الملاءة .

(٤) الغبطة : أن تتمنى أن يكون لك مثل ما يعجبك لدى غيرك دون أن يزول عنه . أما الحسد فهو أن تتمنى زوال النعمة عن غيرك وانتقالها إليك . والغبطة غير مذمومة أما الحسد فهو قبيح ومنهى عنه .

(٥) طوبى : الجنة .. أو شجرة فيها ، أو الحسنى والخير .

فصل

فى حكمة تقديم إبراهيم عليه السلام بالكسوة

وتكلم العلماء فى حكمة تقديم إبراهيم عليه السلام بالكسوة ، فروى أنه لم يكن فى الأولين والآخرين لله عز وجل أخوف من إبراهيم عليه السلام ، فتعجل له كسوته أمانا له ليطمئن قلبه .

ويحتمل أن يكون ذلك لما جاء به الحديث ، من أنه أول من أمر بلبس السراويل [١] إذا صلى ، مبالغة فى التستر ، وحفظا لفرجه من أن يماس مصلاه ففعل ما أمر به ، فيجزى بذلك أن يكون أول من يستر يوم القيامة .

ويحتمل أن يكون الذين ألقوه فى النار جردوه ونزعوا عنه ثيابه على أعين الناس ، كما يُفْعَل بمن يُراد قتله ، وكان ما أصابه من ذلك فى ذات الله عزَّ وجلَّ فلما صبر واحتسب ، وتوكل على الله تعالى ، دفع الله عنه شر النار فى الدنيا والآخرة ، وجزاه بذلك العرى أن جعله أول من يُدْفَع عنه العرى يوم القيامة على رءوس الأشهاد ، وهذا أحسنها ، والله أعلم .

وإذا بدىء فى الكسوة بإبراهيم ، وثنى بمحمد ﷺ أوتى محمد بحُلَّة [٢] لا يقوم لها البشر [٣] ؛ لينجبر التأخير بنفاسة الكسوة ، فيكون كأنه كسى مع إبراهيم عليهما السلام [قاله : الحليمى] . وقوله : تجدون على أفواهكم الفدام ، الفدام : مصفاة الكوز والأبريق ، قاله الليث . قال أبو عبيد : يعنى أنهم منعوا الكلام حتى تتكلم أفخاذهم فشبه ذلك بالفدام الذى يجعل على الإبريق . قال سفيان : وفدامهم أن يؤخذ على ألسنتهم ، وهذا مثل .

* * *

---

(١) السراويل : جمع سروال .

(٢) حُلَّة : ثياب .

(٣) لا يقوم لها البشر : أى ليس فى طاقتهم ومقدرتهم إعداد مثلها لنفاستها .

بـــــاب

بيان قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ امرِىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه ﴾ (١)

مسلم – عن عائشة – رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حُفاةً عُراة غُرْلاً ، قلت : يا رسول الله ، الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : يا عائشة ، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » .

الترمذى – عن ابن عباس – رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « تحشرون حفاة عراة غرلا ، فقالت امرأة : أيبصر بعضنا – أو يرى بعضنا – عورة بعض ؟ قال : يا فلانة ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يُغنيه » قال : حديث حسن صحيح .

فصل

هل هناك من يحشر بكفنه ؟ وكيف نوفق بين ما قد يبدو من تعارض فى الأحاديث التى وردت فى هذا الشأن ؟

قلت : هذا الباب ، والذى قبله يدل على أن الناس يحشرون حفاة عراة غرلا أى غير مختونين ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ (٢) . قال العلماء : يحشر العبد أغْرَل (٣) وله من الأعضاء ما كان له يوم ولد ، فمن قطع منه عضو يرد فى القيامة عليه حتى الختان ، وقد عارض هذا الباب ما روى أبو داود فى سننه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه لما حضرته الوفاة دعا بثياب جدد ، فلبسها ، وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الميت يبعث فى ثيابه التى

---

(١) ٣٧ : عبس . ويغنيه أى يشغله عن التفكير أو النظر إلى غيره .

(٢) ١٠٤ : الأنبياء .

(٣) أغرل : والجمع غرل والأغرل : الأقلف والذى لم يختن .

دفن فيها » ، قال أبو عمر بن عبد البر : وقد احتج بهذا الحديث من قال : « إن الموتى يبعثون جملة على هيئاتهم » .

وحمله الأكثر من العلماء على الشهيد ، الذى أمر أن يُزَمَّل [1] فى ثيابه ، ويدفن فيها ، ولا يغسل عنه دمه ، ولا يغير عليه شىء من حاله ، بدليل حديث ابن عباس ، وعائشة رضى الله عنهما ، قالوا : ويحتمل أن يكون أبو سعيد سمع الحديث فى الشهيد فتأوله [2] على العموم . والله أعلم .

قلت : ومما يدل على قول الجماعة مما يوافق حديث عائشة وابن عباس قوله الحق : ﴿ **ولقد جئتمونا فُرادَى كما خلقناكم أولَ مرة** ﴾ [3] وقوله : ﴿ **كما بدأكم تعودون** ﴾ [4] .

ولأن الملابس فى الدنيا أموال ، ولا مال فى الآخرة ، زالت الأملاك بالموت ، وبقيت الأموال فى الدنيا ، وكل نفس يومئذ فإنما يقيها المكاره ما وجب لها بحسن عملها ، أو رحمة مبتدأة من الله عليها ، فأما الملابس فلا غنى فيها يومئذ إلا ما كان من لباس الجنة على ما تقدم فى الباب قبل .

وذهب أبو حامد فى كتاب (كشف علوم الآخرة) إلى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بالغوا فى أكفان موتاكم فإن أمتى تحشر بأكفانها ، وسائر الأمم عراة » [ورواه أبو سفيان مسندا] [5] .

---

(١) يُزَمَّل : يغطى بالثياب ، ومنه قول النبى ﷺ حين رجع من الغار : « زملونى زملونى » وفى القرآن سورة « المزمل » .

(٢) أى جعله غير خاص بالشهيد بحيث يكون عاما فى جميع الموتى .

(٣) ٩٤ : الأنعام .

(٤) ٢٩ : الأعراف .

(٥) المسند : قال الحاكم : هو ما اتصل إسناده إلى رسول الله ﷺ من أوله إلى منتهاه . وعندما ينتهى بسند الحديث إلى رسول الله ﷺ يكون عندئذ (مرفوعا) .

قال المؤلف – رحمه الله – وهذا الحديث لم أقف عليه . والله أعلم بصحته . وإن صح فيكون معناه – فإن أمتى الشهداء تحشر بأكفانها – حتى لا تتناقض الأخبار . والله أعلم .

ولا يعارض هذا الباب ما تقدم أول الكتاب من أن الموتى يتزاورون فى قبورهم بأكفانهم – فإن ذلك يكون فى البرزخ [1] ، فإذا قاموا من قبورهم خرجوا عراة – ما عدا الشهداء – والله أعلم .

بـــــاب

بشأن ما روى أن النبى ﷺ يحشر بين أبى بكر وعمر يوم القيامة

ذكر أبو بكر أحمد بن على بن ثابت عن عبد الله بن إبراهيم بن أبى عمرو الغفارى قال : حدثنا مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « أحشر يوم القيامة بين أبى بكر وعمر – رضى الله عنهما – حتى أقف بين الحرمين فيأتى أهل المدينة ومكة » غريب [2] من حديث مالك . [تفرد به عبد الله بن إبراهيم عنه] .

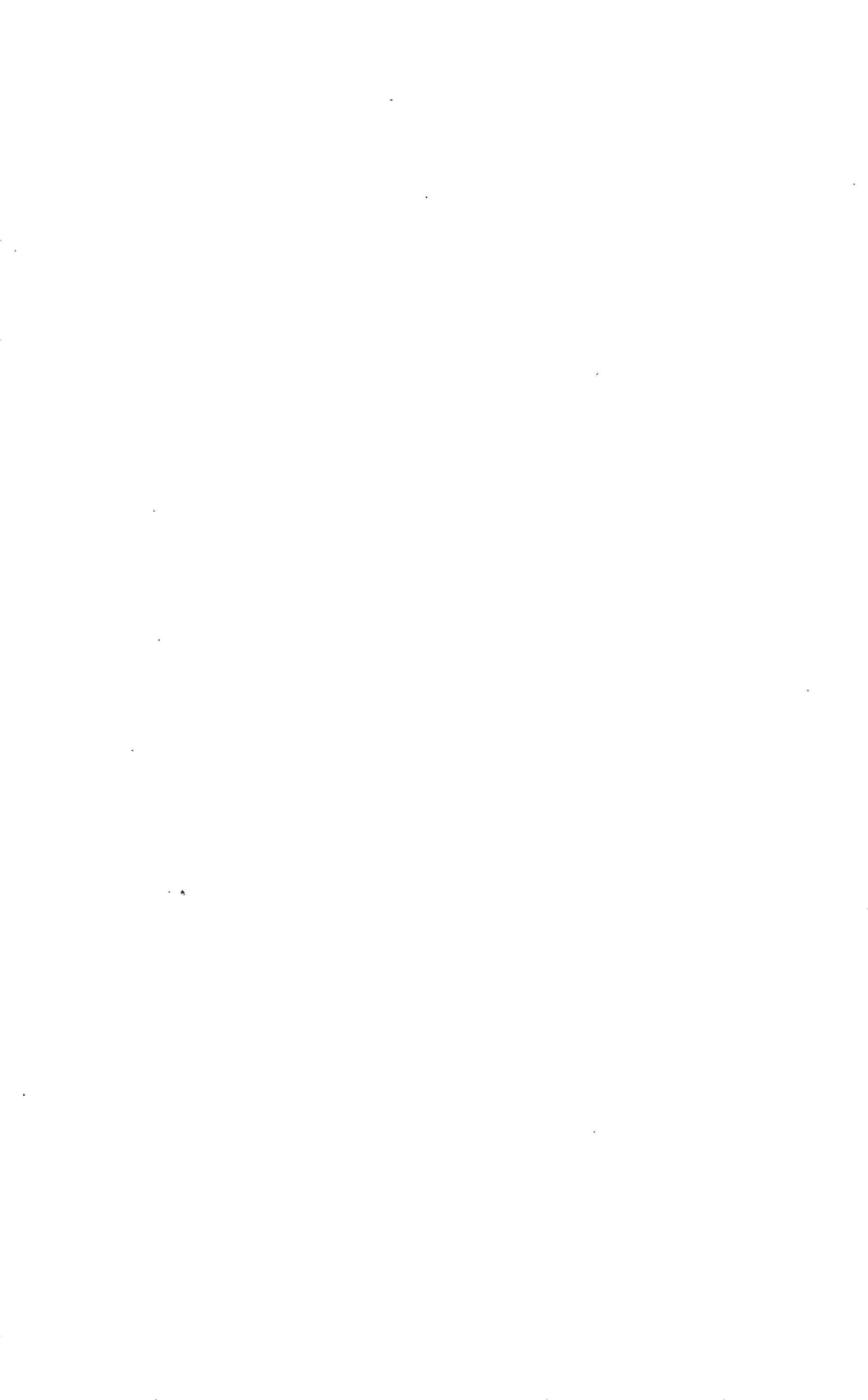
ويقال : لم يروه غير عبد العزيز بن عبد الله الهاشمى البغدادى عن الغفارى .

* * *

---

(١) إذا مات الإنسان انتقل إلى البرزخ وبقى فيه حتى يبعث . قال تعالى : ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ .

(٢) الغريب : ما تفرد بروايته راو واحد ، وأطلق عليه كثير من العلماء (الفرد) .



الباب الثالث

الفزع الأكبر والهول الأعظم

﴿ وعُرضوا على ربك صفاً
لقد جئتمونا كما خلقناكم
أول مرة !!
بل زعمتُمْ ألّن نجعلَ لكم موعدا ﴾

[الكهف : ٤٨]

بين يدى هذا البـــاب

يا له من يوم مجموع له الناس ... ويوم مشهود !! فى هذا اليوم يحتشد الناس من جميع الأجناس على أرض المحشر ... وكلهم ينتظرون العرض على الله ، ومنتهى أملهم ألا يطول بهم موقف الانتظار وكلهم يتمنى الانصراف ولو إلى النار من شدة الموقف !!

ويصور لنا الإمام القرطبى ما يلقاه الناس فى هذا الموقف من الأهوال العظام ، والأمور الجسام بادئا بدراسة متأنية للسور الثلاث التى تناولت أحداث يوم القيامة وأرشدنا النبى ﷺ إلى قراءتها وتفهم ما جاء فيها .

ومن غير القرطبى - المفسر - يستطيع أن يستلهم أسرارها ، ويقف على مراميها ؟!!

وبعد معايشة لهذه الأهوال تواتيه الفرصة فيحدثنا فى إخلاص وصدق عما ينجى من أهوال يوم القيامة وكربها حتى نسارع قبل أن يفوت الأوان !

ويعطى الأمل للكادحين فى طلب المعيشة مبينا ما للهموم فى طلب المعيشة من أثر فى تكفير الذنوب .

وإذا كان كل ما عظم شأنه تعددت صفاته وكثرت أسماؤه فقد قدم القرطبى عرضا - انفرد به - مفسرا تلك الأسماء والصفات حسب ما ذكره القاضى أبو بكر بن العربى فى سراج المريدين وربما زاد عليه ... فى عرض ممتع ، وبيان رائع !!

فهيا إلى مزيد من العلم والفهم .. فى صحبة الإمام القرطبى .. وفى يوم العرض على رب العالمين !

(بـاب)

قول النبى ﷺ : « مَن سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ : (إذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت ، وإذا السماء انشقت) وفى أسماء يوم القيامة »

روى الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ : ١ - ﴿ **إذا الشمس كورت** ﴾ و٢ - ﴿ **إذا السماء انفطرت** ﴾ . و٣ - ﴿ **إذا السماء انشقت** ﴾ . » قال : حديث حسن [١] .

لماذا كانت هذه السور الثلاث أخص بالقيامة ؟

قلت : وإنما كانت هذه السور الثلاث أخص بالقيامة ؛ لما فيها من :

انشقاق السماء وانفطارها ، وتكور شمسها وانكدار نجومها ، وتناثر كواكبها إلى غير ذلك من أفزاعها وأهوالها !! وخروج الخلق من قبورهم إلى سجونهم أو قصورهم بعد نشر صحفهم وقراءة كتبهم ، وأخذها بأيمانهم وشمائلهم ، أو من وراء ظهورهم فى موقفهم على ما يأتى بيانه :

كل ما عظُم شأنه تعدّدت صفاته وكثرت أسماؤه :

فهو يوم انشقاق السماء وانفطارها :

قال الله تعالى : ﴿ **إذا السّماءُ انشقت** ﴾ [٢] وقال : ﴿ **إذا السماءُ انفطرت** ﴾ [٣] وقال : ﴿ **ويوم تشَقّقُ السماءُ بالغمام** ﴾ [٤] فتراها واهية منفطرة متشققة كقوله تعالى : ﴿ **وفُتِّحتِ السماءُ فكانت أبوابا** ﴾ [٥]

---

(١) الحديث الحسن : هو ما اتصل سنده بنقل عدل قل ضبطه ، وسلم عن شذوذ وعلة .

(٢) الآية رقم ١ من سورة الانشقاق .

(٣) الآية رقم ١ من سورة الانفطار .

(٤) ٢٥ : الفرقان .

(٥) ١٩ : النبأ .

ويكون الغمام سترة بين السماء والأرض .

وقيل : إن (الباء) بمعنى (عن) أى تشقق عن سحاب أبيض ، ويقال : انشقاقها لما يخلص إليها من حر جهنم ، وذلك إذا بطلت المياه ، وبرزت النيران ، فأول ذلك أنها تصير حمراء صافية كالدهن ، وتتشقق لما يريد الله من نقص هذا العالم ورفعه . وقد قيل : إن السماء تتلون ، فتصفر ، ثم تحمر ، أو تحمر ثم تصفر كالمهرة تميل فى الربيع إلى الصفرة فإذا اشتد الحر مالت إلى الحمرة ثم إلى الغبرة . [قاله الحليمى] .

يوم التكويـــر :

وقوله تعالى : ﴿ **إذا الشمس كورت** ﴾ (١) قال ابن عباس رضى الله عنه ، تكويرها : إدخالها فى العرش ، وقيل : ذهاب ضوئها . قاله الحسن وقتادة . وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد ، وقال أبو عبيدة : كورت مثل تكوير العمامة تلف فتمحى . وقال الربيع بن خيثم : كورت - رمى بها ، ومنه كورته فتكور : أى سقط . قلت : وأصل التكوير : الجمع . مأخوذ من كار - العمامة - على رأسه يكورها ، أى لاتها وجمعها فهى تكور ، ثم يمحى ضوؤها ثم يرمى بها . والله أعلم .

يـوم الانكـــدار :

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا النجوم انكدرت** ﴾ (٢) أى انتثرت . قيل : تتناثر من أيدى الملائكة لأنهم يموتون ، وفى الخبر : إنها معلقة بين السماء والأرض بسلاسل بأيدى الملائكة ، وقال ابن عباس - رضى الله عنه - انكدرت : تغيرت ، وأصل الانكدار : الانصباب ، فتسقط فى البحار فتصير معها نيرانا إذا ذهبت المياه .

---

(١) ١ : التكوير .

(٢) ٢ : التكوير .

يــوم التســـيير :

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا الجبال سُيِّرت** ﴾ [1] هو مثل قوله : ﴿ **ويومَ نُسيِّر الجبالَ** ﴾ [2] أى تحول عن منزلة الحجارة فتكون كثيبا [3] مهيلا : أى رملا سائلا . وتكون كالعهن [4] ، وتكون هباء [5] منبثا ، وتكون سرابا مثل السراب الذى ليس بشىء .

وقيل : إن الجبال بعد اندكاكها أنها تصير كالعهن من حر جهنم كما تصير السماء من حرها كالمهل . قال الحليمى : وهذا والله أعلم لأن مياه الأرض كانت حاجزة بين السماء والأرض ، فإذا ارتفعت وزيد مع ذلك فى إحماء جهنم أثر فى كل واحد من السماء والأرض ما ذكر .

يــوم التعطيـــل :

قوله : ﴿ **وإذا العِشار عُطِّلت** ﴾ [6] أى عطلها أهلها فلم تحلب من الشغل بأنفسهم ، والعشار : الإبل الحوامل ، واحدها – عُشَراء ، وهى التى أتى عليها فى الحمل عشرة أشهر ، ثم لايزال ذلك اسمها حتى تضع وبعدما تضع . وإنما خص العشار بالذكر ؛ لأنها أعز ما يكون على العرب ، فأخبر أن تعطل يوم القيامة ، ومعناه : أنهم إذا قاموا من قبورهم وشاهد بعضهم بعضا ، ورأوا الوحوش والدواب محشورة ، وفيها عشارهم التى كانت أنْفَس أموالهم ، لم يعبئوا بها ، ولم يهمهم أمرها .

---

(١) ٣ : التكوير .
(٢) ٤٧ : الكهف .
(٣) الكثيب : هو الرمل المتجمع ، وجمعه كثبان ، وتصبح حجارة الجبال رمالا سائلة غير متماسكة .
(٤) العهن : الصوف ، أو ما كان منه مصبوغا .
(٥) هباء : الهباء الغبار ، ودقائق التراب ساطعة ومنثورة على وجه الأرض .
(٦) ٤ : التكوير .

ويحتمل تعطل العشار إبطال الله تعالى أملاك الناس عما كان ملكهم إياها فى الدنيا ، وأهل العشار يرونها فلا يجدون إليها سبيلا [1] .

وقيل العشار : السحاب ، يعطل مما يكون فيه وهو الماء فلا يمطر .

وقيل العشار : الديار ، تعطل فلا تسكن .

وقيل : الأرض التى يعشر [2] زرعها تعطل فلا تزرع .

والقول الأول أشهر ، وعليه من الناس الأكثر .

يـوم الحشـر للجميـع :

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا الوحوش حُشِرت** ﴾ [3] أى جمعت ، والحشر : الجمع ، وقد تقدم .

يـوم التسجيـر :

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا البحار سُجِّرت** ﴾ [4] أى أوقدت وصارت نارا ، [رواه الضحاك عن ابن عباس – رضى الله عنهما –] وقال قتادة : غار ماؤها فذهب وقال الحسن والضحاك : فاضت .

قال ابن زمنين : ﴿ **سُجِّرت** ﴾ حقيقته ملئت فيفضى بعضها إلى بعض فتصير شيئا واحدا ، وهو معنى قول الحسن .

ويقال : إن الشمس تلف ثم تلقى فى البحار ؛ فمنها تحمى وتنقلب نارا .

قال الحليمى : ويحتمل إن كان هذا هكذا أن البحار فى قول من فسر التسجير بالامتلاء هو أن النار حينئذ تكون أكثرها ؛ لأن الشمس أعظم من

---

(١) أى يحال بينهم وبينها ، وتنقطع أسباب الاتصال .

(٢) أى يؤخذ العشر منه .

(٣) ٥ : التكوير .

(٤) ٦ : التكوير .

الأرض مرات كثيرة ، فإذا كورت وألقيت فى البحر فصارت ناراً ازدادت امتلاءً .

يـوم التزويـج :

وقوله تعالى : ﴿ وإذا النفوس زُوِّجت ﴾ [1] تفسير الحسن : أن تلحق كل شيعة شيعتها : اليهود باليهود ، والنصارى بالنصارى ، والمجوس بالمجوس . وكل من كان يعبد من دون الله شيئا يلحق بعضهم ببعض ، والمنافقون بالمنافقين ، والمؤمنون بالمؤمنين .

وقال عكرمة : المعنى - تُقْرن بأجسادها ، أى تُردُّ إليها .

وقيل : يقرن الغاوى [2] بمن أغواه من شيطان أو إنسان .

وقيل : يقرن المؤمنون بالحور العين ، والكافرون بالشياطين .

ويـوم السـؤال :

وقوله : ﴿ وإذا الموءودة سئلت ﴾ [3] يعنى : بنات الجاهلية كانوا يدفنونهن أحياءً لخصلتين : إحداهما - كانوا يقولون : إن الملائكة بنات الله ، فألحقوا البنات به !

الثانية : مخافة الحاجة والإملاق [4] ، وسؤال الموءودة على وجه التوبيخ لقاتلها ، كما يقال للطفل إذا ضُرِبَ : لم ضُربت ؟ وما ذنبك ؟ وقال الحسن : أراد الله أن يوبخ قاتلها ؛ لأنها قُتِلت بغير ذنب !!

وبعضهم يقرأ : ﴿ وإذا الموءودة سألت ﴾ تعلق الجارية بأبيها فتقول : بأى ذنب قتلتنى ؟!

---

(١) ٧ : التكوير .
(٢) غوى : خاب ، وضل ، وانهمك فى الجهل وهو خلاف : رشد وهو غاوٍ ، والجمع غواة .
(٣) ٨ : التكوير .
(٤) الإملاق : الفقر .

وقيل : معنى سئلت : يسأل عنها ، كما قيل : ﴿ **إن العهد كان مسئولا** ﴾ [1] .

يــوم النشــر :

وقوله : ﴿ **وإذا الصحف نشرت** ﴾ [2] أى للحساب ، وسيأتى .

يــوم الكشــط والطــى :

وقوله : ﴿ **وإذا السماء كشطت** ﴾ [3] قيل : معناه – طويت ، كما قال الله تعالى : ﴿ **يوم نطوى السماءَ كَطىِّ السِّجلِّ للكتب** ﴾ [4] . أى كَطَىِّ الصحيفةِ على ما فيها فاللام بمعنى على . يقال : كشطت السقف ، أى قلعته فكأن المعنى : قلعت ، فطويت ، والله أعلم .

والكشط والقشط سواء ، وهو القلع .

وقيل : السجل كاتب للنبى ﷺ . ولا يعرف فى الصحابة من اسمه : سجل .

يــوم التسعيــر :

وقوله : ﴿ **وإذا الجحيم سُعِّرَت** ﴾ [5] أى أُوقِدَت .

ويوم إزلاف الجنــة لأهلهــا :

وقوله : ﴿ **وإذا الجنة أزلفت** ﴾ [6] . أى : قُرِّبت لأهلها ، وأُدْنِيَتْ علمت نفس ما أحضرت ، أى من عملها ، وهو مثل قوله : ﴿ **علمت نفس**

---

(١) الإسراء : ٣٤ .
(٢) التكوير : ١٠ .
(٣) التكوير : ١١ .
(٤) الأنبياء : ١٠٤ .
(٥) التكوير : ١٢ .
(٦) التكوير : ١٣ .

ما قدمت وأخرت ﴾ [١] . ومثل قوله : ﴿ **يُنَبَّأُ الإنسانُ يومئذ بما قدَّم وأَخَّر ﴾** [٢] فهو يوم الانشقاق ، ويوم الانفطار ، ويوم التكوير ، ويوم الانكدار ، ويوم التسيير ، قال الله تعالى : ﴿ **وتسير الجبال سيرا ﴾** [٣] و﴿ **إذا الجبال سُيِّرت ﴾** [٤] (ويوم التعطيل ، ويوم التسجير ، ويوم التفجير ، ويوم الكشط ، والطى) .

يـــوم المـــد :

وهو يوم المد ؛ لقوله تعالى : ﴿ **وإذا الأرضُ مُدَّت ﴾** [٥] . إلى غير ذلك من أسماء القيامة ، وهى الساعة الموعود أمرُها ، ولعِظَمِها أكثر الناس السؤال عنها لرسول الله ﷺ حتى أنزل الله عز وجل على رسوله : ﴿ **يسألونكَ عن الساعة أيان مُرساها ، قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثَقُلت فى السمواتِ والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ﴾** [٦] . وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته وكثرت أسماؤه ، وهذا فى جميع كلام العرب ؛ ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه ، وتأكَّد لديهم نفعه وموقعه ، جمعوا له خمسمائة اسم ، وله نظائر ، فالقيامة لما عظم أمرها وكثرت أهوالها ، سماها الله تعالى فى كتابه بأسماء عديدة ، ووصفها بأوصاف كثيرة : منها ما ذكرناه مما وقع فى هذه السور الثلاث .

بعث الأيام يوم القيامـــة :

وقيل : إن الله تعالى يبعث الأيام يوم القيامة على هيئتها ، فتوقف بين يدى الله تعالى ، ويوم الجمعة فيها زهراء مضيئة ، يعرفها الخلائق فيوم القيامة

---

(١) ١٤ : التكوير .
(٢) ١٣ : القيامة .
(٣) ١٠ : الطور .
(٤) ٣ : التكوير .
(٥) ٣ : الإنشقاق .
(٦) ١٨٧ : الأعراف .

يوم يتضمن الأيام كلها فسمى بكل حال يوما ، فقيل : ﴿ **يوم يُنفَخ فى الصور** ﴾ [١] ثم قيل : ﴿ **يوم يكون الناس كالفراش المبثوث** ﴾ [٢] ثم قيل : ﴿ **يومَ ينظُر المرءُ ما قدمت يداه** ﴾ [٣] فهذه حالة أخرى .

ثم قيل : ﴿ **يومئذ تُعرَضون** ﴾ [٤] ثم قيل : ﴿ **يومئذ يَصْدُرُ الناس أشتاتا** ﴾ [٥] فهذه أحوال ؛ فقد يجرى يوم القيامة بطوله على هذه الأحوال كل حال منها كاليوم المتجدد ؛ ولذلك كررت فى قوله تعالى : ﴿ **وما أدراك ما يوم الدين ، ثم ما أدراك ما يوم الدين ؟!!** ﴾ [٦] ؛ لأن ذلك اليوم وما بعده يوم ، واليوم العظيم متضمن لهذه الأيام ، فهو لله يوم ، وللخلائق أيام قد عرفت أيامهم فى يومه ، وقد بطل الليل والنهار !!

قال الترمذى الحكيم : ومما قيل فى معنى ما ذكرنا من النظم قول بعضهم :

مثل لنفسك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور
إذا كورت شمس النهار وأدنيت ... حتى على رأس العباد تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت ... وتبدلت بعد الضياء كدور
وإذا البحار تفجرت من خوفها ... ورأيتها مثل الجحيم تفور
وإذا الجبال تقلعت بأصولها ... فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا العشار تعطلت وتخربت ... خلت الديار فما بها معمور
وإذا الوحوش لدى القيامة أحشرت ... وتقول للأملاك : أين نسير ؟!
وإذا تُقَاةُ المسلمين تزوجت ... من حورٍ عينٍ زانهن شعور
وإذا الموءودة عن شأنها ... وبأى ذنب قتلها ميسور
وإذا الجليل طوى السما بيمينه ... طى السجل كتابه المنشور
وإذا الصحائف عند ذاك تساقطت ... تبدى لنا يوم القصاص أمور

---

(١) ٧٣ : الأنعام .
(٢) ٤ : القارعة .
(٣) ٤٠ : النبأ .
(٤) ١٨ : الحاقة .
(٥) ٦ : الزلزلة .
(٦) ١٧ - ١٨ المطففين .

وإذا الصحائف نُشِّرت فتطايرت وتهتكت للمؤمنين ستور
وإذا السماء تكشطت عن أهلها ورأيت أفلاك السماء تدور
وإذا الجحيم تسعرت نيرانها فلها على أهل الذنوب زفير
وإذا الجنان تزخرفت وتطيبت لفتى على طول البلاد صبور
وإذا الجنين بأمه متعلق يخشى القصاص وقلبه مذعور
هذا - بلا ذنب - يخاف جناية كيف المصر على الذنوب دهور

ومنها : الساعة :

قال الله تعالى : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة** ﴾ (١) . وقال : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون** ﴾ (٢) . وقال : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون** ﴾ (٣) . وقال : ﴿ **ويومَ تقومُ الساعةُ أدْخِلُوا آلَ فرعونَ أشدَّ العذاب** ﴾ (٤) وهو فى القرآن كثير .

والساعة - كلمة يعبر بها فى العربية : عن جزء من الزمان غير محدود . وفى العُرْف : على جزء من أربعة وعشرين جزءاً من يوم وليلة ، واللَّذيْن هما أصل الأزمنة (٥) ، وتقول العرب : أفعل كذا الساعة ، وأنا الساعة فى أمر كذا ، تريد الوقت الذى أنت فيه ، والذى يليه تقريبا له ، وحقيقة الإطلاق فيها : أن الساعة بالألف واللام - عبارة فى الحقيقة عن الوقت الذى أنت فيه ، وهو المسمى بالآن ، وسميت به القيامة :

إما لقربها ؛ فإن كل آت قريب .

وإما أن تكون سميت بها تنبيها على ما فيها من الكائنات العظام التى تصهر الجلود وتكسر العظام .

---

(١) ٥٥ : الروم .
(٢) ١٢ : الروم ، ويبلس المجرمون : أى يصابون باليأس .
(٣) ١٤ : الروم .
(٤) ٤٦ : غافر .
(٥) أى اليوم والليلة هما أصل الأزمنة .

وقيل : إنما سميت بالساعة ؛ لأنها تأتى بغتة فى ساعة !

وقيل : إنما سميت بالساعة ؛ لأن الله تعالى يأمر السماء أن تمطر بماء الحيوان حتى تنبت الأجساد فى مدافنها ومواضعها حيث كانت من بحر أو بر وتستقل وتتحرك بحياتها بماء الحيوان ، وليست فيها أرواح ثم تدعى الأرواح : فأرواح المؤمنين تتوقد نورا ، وأرواح الكافرين تتوهج ظلمة !، فإذا دعا الأرواح ألقاها فى الصور ، ثم يأمر إسرافيل ؛ أن ينفخ فى الصور ، فإذا نفخ فيه خرجت من الصور ثم أمرت أن تلحق الأجساد ، فتبعث إلى الأجساد فى أسرع من اللمحة .

وإنما سميت الساعة : لسعى الأرواح إلى الأجساد فى تلك السرعة فهى سائع ، وجمعها : ساعة ، كقولك : بائع ، وباعة ، وضائع ، وضاعة ، وكائل وكالة ، فوصف أن سائر أموره فى السرعة كلمح البصر ، وأمر السائق أقرب من لمح البصر . [قاله الترمذى الحكيم] .

وذكر أبو نعيم الحافظ بإسناده عن وهب بن منبه قال : (إذا قامت الساعة صرخت الحجارة صراخ النساء ، وقطرت العظاة [1] دماً .

ومنها : القيامـــة :

قال الله تعالى : ﴿ **لا أُقسمُ بيومِ القيامة** ﴾ [2] .

وهى فى العربية : مصدر قام يقوم ، ودخلها التأنيث للمبالغة [3] ، على عادة العرب .

واختلف فى تسميتها على أربعة أقوال :

الأول : لوجود هذه الأمور فيها .

---

(١) دويبة ملساء أصغر من الحرذون تمشى مشيا سريعا ثم تقف والحرذون نوع من الزحافات .

(٢) الآية الأولى من سورة القيامة .

(٣) التاء اللاحقة ببعض الأوزان ليست الفارقة بين المذكر والمؤنث بل إنها تفيد المبالغة مثل راوية ونابغة ، أو تأكيد المبالغة كما فى علامة .

الثانى : لقيام الخلق من قبورهم إليها . قال الله تعالى : ﴿ **يوم يَخْرُجون من الأجداثِ سراعا** ﴾ (١) .

الثالث : لقيام الناس لرب العالمين . كما روى مسلم عن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - : ﴿ **يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين** ﴾ (٢) قال : « يوم يقوم أحدكم فى رشحه إلى نصف أذنيه » . قال ابن عمر رضى الله عنهما : (يقومون مائة سنة) . ويروى عن كعب : (يقومون ثَلَثَمائِةِ سنة) .

الرابع : لقيام الروح والملائكة صفا . قال الله تعالى : ﴿ **يومَ يقومُ الروحُ والملائكةُ صفًا** ﴾ (٣) .

قال علماؤنا : واعلم أن كل ميت مات فقد قامت قيامته . ولكنها : قيامة صغرى ، وكبرى .

فالصغرى - هى ما يقوم على كلِّ إنسان فى خاصته ، من خروج روحه ، وفراق أهله ، وانقطاع سعيه ، وحصوله على عمله . إن كان خيرا فخير ، وإن كان شرا فشر .

والقيامة الكبرى هى : التى تعم الناس وتأخذهم أخذة واحدة ! والدليل على أن كل ميت يموت فقد قامت قيامته - قول النبى ﷺ لقوم من الأعراب ، وقد سألوه : متى القيامة ؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال : « إن يعش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم » [أخرجه مسلم وغيره] .

وقال الشاعر :

خرجت من الدنيا وقامت قيامتى ... غداة أقبل الحاملون جنازتى

---

(١) ٤٣ : المعارج .
(٢) ٦ : المطففين .
(٣) ٣٨ : النبأ .

وعجل أهلى حفر قبرى وصيَّروا خروجى. وتعجيلى إليه كرامتى
كأنهم لم يعرفوا قط سيرتى غداة أتى يومى على وساعتى

ومنها : يوم النفخـــة :

قال الله تعالى : ﴿ **يوم ينفخ فى الصور** ﴾ [1] وقد مضى القول فيه .

ومنها : يوم الزلزلة ويوم الراجفة :

قال الله تعالى : ﴿ **يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة** ﴾ [2] . وقد تقدم .

ومنها : يوم الناقـــور :

كقوله تعالى : ﴿ **فإذا نقر فى الناقور** ﴾ [3] ، وقد تقدم القول فيه والحمد لله .

ومنها : يوم القارعـــة :

سميت بذلك ؛ لأنها تقرع القلوب بأهوالها ، يقال : قد أصابتهم قوارع الدهر ، أى أهواله وشدائده ، قالت الخنساء :

تعرفنى الدهر نهشا وحزًّا وأوجعنى الدهر. قرعا وغمزا

أرادت أن الدهر أوجعها بكُبْرَيَاتِ نوائبه ، وصُغْرَياتها .

ومنها : يوم البعـــث :

وحقيقته إثارة الشيء عن خفاء ، وتحريكه عن سكون ، قال عنترة :

وعصابةٍ شم الأنوف بعثتهم ليلا ، وقد مال الكرى بطلاها

---

(١) ١٠٢ : طه .
(٢) ٦ – ٧ : النازعات .
(٣) ٨ : المدثر .

وقال امرؤ القيس :

وفتيان صدق قد بعثت بسحرة   فقاموا جميعا بين غاث ونسوان

وقد تقدم القول فيه وفى صفته والحمد لله .

ومنها : يوم النشــور !!

وهو عبارة عن الإحياء ، يقال : قد أنشر الله الموتى فنُشِروا ، أى : أحياهم الله فحيوا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وانظر إلى العظام كيف نُنشزها** ﴾ (١) أى : نحييها ، وقد يكون معناه التفريق ، من ذلك قولك : أمرهم نشر .

ومنها : يــوم الخــروج !!

قال الله تعالى : ﴿ **يوم يخرجون من الأجداثِ سراعا** ﴾ (٢) . فأوله الخروج من القبور ، وآخره خروج المؤمنين من النار ، ثم لا خروج ولا دخول على ما يأتى .

ومنها : يوم الحشــر !!

وهو عبارة عن الجمع ، وقد يكون مع الفعل إكراه ، قال الله تعالى : ﴿ **وأرسل فى المدائن حاشرين** ﴾ (٣) . أى : من يسوق السحرة كرها . وقد مضى القول فى الحشر مستوفى ، والحمد لله .

ومنها : يــوم العــرض !!

قال الله تعالى : ﴿ **يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية** ﴾ (٤) .

---

(١) ٢٥٩ : البقرة ، وننشزها كما يقول الطبرى : نحييها ، وأصل الإنشاز التركيب والإحياء ، وفى القرآن من الأدلة على يوم النشور الكثير : ﴿ **فأحيينا به بلدة ميتا كذلك النشور** ﴾ [٩ - فاطر] ، و﴿ **وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾ [١٥ - الملك] ، والنشور والإنشاز بمعنى .

(٢) ٤٣ : المعارج .

(٣) ١١١ : الأعراف .

(٤) ١٨ : الحاقة .

وقال : ﴿ وعُرضوا على ربك صفا ﴾ (١) . وحقيقته إدراك الشيء بإحدى الحواس ليعلم حاله ، وغايته – السمع والبصر ، فلا يزال الخلق قياما فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ما شاء الله أن يقوموا ، حتى يُلْهموا ، أو يهتموا فيقولون : قد كنا نستشفع فى الدنيا ، فهلم فلنسأل الشفاعة إلى ربنا فيقولون : ائتوا آدم ، الحديث ، وسيأتى .

كيفيــة العــرض :

قال ابن العربى : وفى كيفية العرض أحاديث كثيرة المعول منها على تسعة أحاديث فى تسعة أوقات :

الأول : الحديث المشهور الصحيح . رواه أبو هريرة ، وأبو سعيد الخدرى رضى الله عنهما ، واللفظ له ، قال : إن ناسا فى زمن النبى ﷺ قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : « هل تُضَارُّون فى رؤية الشمس بالظهيرة صحْوا ليس معها سحاب ؟! وهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحاب ؟! » قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « ما تضارون فى رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما » (٢) ، إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن ليتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون فى النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بَرٍّ وفاجر ، وغير أهل الكتاب ، فيدعى اليهود فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد : (عُزيرَ ابنَ الله) فيقال لهم : كذبتم ، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فماذا تبغون ؟ قالوا : عطشنا يا ربنا فاسقنا ، فيشار : ألا تَرِدُون (٣) ؟ فيُحشرون إلى النار ، كأنها سَراب ، يحطم

---

(١) ٤٨ : الكهف .

(٢) أرشدهم ﷺ إلى دليل حسى فى الدنيا وهو رؤية الشمس والقمر وكيف يتسنى لنا رؤيتهما دون أن يضايق أحد منا الآخر أو يزاحمه أو ينازعه ... أو يسبب أدنى ضرر لغيره ، فكذلك يوم القيامة تكون رؤية الله سبحانه ، ولله المثل الأعلى .

(٣) ألا تَرِدُون : عرض ساخر عليهم ليردوا ما يتراءى لهم من بعيد أنه ماء وليس بماء ، بل هو سراب خادع جزاء ما كانوا يفعلون ! وتصور إنسانا بلغ به العطش منتهاه ، وعرض عليه أن يرد ويشرب =

بعضها بعضا ، فيتساقطون فى النار ، ثم تدعى النصارى ، فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال لهم : كذبتم ، ما اتخذ الله من صاحبة [١] ولا ولد ، فيقال لهم : ماذا تبغون ؟ فيقولون : عطشنا يا ربنا فاسقنا ، فيشار : ألا تَرِدُون ، فيحشرون إلى جهنم ، كأنها سراب يحطم بعضها بعضا ، فيتساقطون فى النار ، حتى إذا لم يبق إلا من يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين فى أدنى صورة من التى رأوه فيها ، قال : فماذا تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد . قالوا : يا ربنا ، فارقنا الناس فى الدنيا أفقر ما كنا إليهم ، ولم نصاحبهم فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، لا نشرك بالله شيئا - مرتين أو ثلاثا - حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب ! فيقول : هل بينكم وبينه آية [٢] فتعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق ، فلا يبقى من كان يسجد نفاقا ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة ، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ، ثم يرفعون رءوسهم ، وقد تحول فى الصورة التى رأوه فيها أول مرة ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ! ثم يضرب الجسر على جهنّم ، وتحل الشفاعة ، ويقولون : اللهم سلم سلم ، وذكر الحديث ، وسيأتى تمامه .

الثانى : صح من حديث عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من نوقش الحساب عذب . قلت : يا رسول الله ، أليس الله يقول : ﴿ **فسوف يُحاسَب حسابا يسيرا** ؟ ﴾ [٣] قال : ليس ذلك الحسابُ ذلك العرض . وسيأتى .

الثالث : روى الحسن عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « تعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات » . وسيأتى .

من ذاك الماء الذى يتراءى له فيقبل مندفعا وكله أمل فى أن يرتوى فإذا بالنار تلاقيه بأمواجها كأنها سراب !! ووجد الله عنده فوفاه حسابه !!

(١) زوجة حتى يكون له ولد .

(٢) آية : أى علامة .

(٣) ٨ : الانشقاق .

الرابع : روى عن أنس – رضى الله عنه – أنه قال : عن النبى ﷺ : « يجاء بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج »[1] الحديث . وسيأتى .

الخامس : ثبت عن أبى هريرة – رضى الله عنه – وأبى سعيد الخدرى ، – واللفظ له – : « يُؤْتَى بعبدٍ يوم القيامة ، فيقال له : ألم أجعل لك سمعا وبصرا ، ومالا وولداً ، وتركتك ترأس وترتع[2] ، فكنت تظن أنك مُلَاقِيَّ يومَك هذا ؟! فيقول : لا .. ، فيقال له : اليوم أنساك كما نسيتنى » . وهذا حديث حسن صحيح . قلت : خرجه مسلم والترمذى مطولا .

السادس : ثبت من طرق صحاح أن النبى ﷺ قال : « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيضع عليه كنفه ، فيقول له : عبدى تذكر يوم كذا وكذا حين فعلت كذا وكذا ، فلا يزال يقرره حتى يرى أنه هلك !! .. ثم يقول له : عبدى ، أنا سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم » .

السابع : وفى الصحيح عن أبى ذر – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة وآخر أهل النار خروجاً من النار : رجل يؤتى به يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارها » . وذكر الحديث .

الثامن : وفى الصحيح عن أنس – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « يخرج من النار أربعة ، فيُعرَضون على الله ، فيلتفت أحدهم ، فيقول : أَيْ ربِّ[3] ، إذا أخرجتنى منها ، فلا تُعِدْنى فيها ؛ فينجيه الله منها » .

---

(١) البَذَج : محركة الباء والذال ولد الضّأن كالعتود من المعز .

(٢) ترأس وتربع (بالباء) كان رئيس القوم فى الجاهلية يأخذ المرباع بكسر الميم وهو ربع الغنيمة ، ثم صارت خُمسا فى الإسلام ، ويقال : ربعت القوم أربعهم إذا أخذت من غنيمتهم ربع مالهم أو المرباع .

وقد سبقت رواية الحديث : (تربع) بالباء أما رواية (ترتع) بالتاء فيكون المعنى : تلهو وتنعم . يقال : خرجنا نلعب ونرتع : أى ننعم ونلهو .

(٣) أى : أداة نداء ينادى ويدعى بها القريب ، كما أن يا للبعيد .

وروى مسلم – « يجمع الله الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تزلف [1] لهم الجنة ، فيأتون آدم ، فيقولون : يا أبانا استفتح [2] لنا الجنة ، فيقول لهم : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم ؟!.. لست بصاحب ذلك ... » وذكر حديث الشفاعة ، قال الله تعالى : ﴿ **ويوم يُعرَضُ الذين كفروا على النار** ... ﴾ [3] وذلك قوله فى الحديث المتقدم : « ألا تردون ؟! » « فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضُه بعضا » قال القاضى أبو بكر بن العربى : وهذا مما أغفله الأئمة فى التفسير .

التاسع : العرض على الله – ولا أعلمه فى الحديث – إلا قوله فى النص المتقدم : « حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بَرّ وفاجر ، أتاهم رب العالمين ... » وذكر الحديث .

قلت : إذا تتبعت الأحاديث فى هذا الباب على هذا السياق كان الحسن والصحيح منها أكثر من تسعة .

وقد خرج مسلم عن أبى بردة الأسلمى – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ... » الحديث . وسيأتى .

وقوله فى الحديث الآخر : « إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبدٍ من عباده ، فيوقفه بين يديه ، فيسأله عن جاهه [4] ، كما يسأله عن عمله » وخرج مسلم عن عدى بن حاتم – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « ما

---

(١) أى : قربت لأهلها وأدنيت منهم .

(٢) استفتح : يقول علماء اللغة : إن الهمزة والسين والتاء للطلب . فإذا وجدناها فى أول فعل كان ذلك الفعل مطلوبا حصوله . وعلى ذلك فإن استفتح .. أى اطلب لنا من ربنا فتحها فأنت أقرب إليه منا .

(٣) ٢٠ ، ٣٤ من سورة الأحقاف .

(٤) جاهه : الجاه القدر والشرف وعلو المنزلة ، وما يعتز به الإنسان فى الدنيا من تلك المظاهر .

منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان ... »[1] الحديث ، وسيأتى .

وخرج البخارى : عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يُدعى نوح يوم القيامة فيقول : لبيك ، وسعديك[2] يارب ... » الحديث وسيأتى .

ويتضمن من غير رواية البخارى – عرض اللوح المحفوظ ، ثم إسرافيل ، ثم جبرائيل ، ثم الأنبياء نبيا نبيا ، صلوات الله عليهم أجمعين . وسيأتى .

وخرج الترمذى وابن ماجه : حديث الرجل الذى ينشر عليه تسعة وتسعون سجلا[3] . وسيأتى .

وهذا كله من باب العرض على الله !!

وإذا تتبعت الأحاديث كانت أكثر من هذا فى مواطن مختلفة ، وأشخاص متباينة . والله أعلم .

وفى بعض الخبر أنه يتمنى رجالٌ أن يُبْعث بهم إلى النار ، ولا تُعرض قبائحهم على الله ، ولا يكشف مساويهم على رءوس الخلائق .

قلت : وأما ما وقع ذكره فى الحديث من كشف الساق ، وذكر الصورة فيأتى إيضاح ذلك وكشفه إن شاء الله فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه من هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) ترجَم الكلام : فسره بلسان آخر فهو ترجُمان بفتح التاء وضم الجيم أو بضمهما معا .

(٢) لبيك وسعديك وحنانيك : ألفاظ مثناة فى ظاهرها دون معناها ؛ إذا المراد الكثرة والتكرار الذى يزيد على اثنين بمعنى : أقيم على إجابتك إقامة بعد إقامة ، وأسْعِد إسعاداً لك بعد إسعاد ، وأتحنن تحننا عليك بعد تحنن .

(٣) السِّجلّ : كتاب القاضى ، والجمع سجلات ، وأسجلْت للرجل إسجالا : كتبت له كتابا ، وسجّل القاضى : قضى وحكم وأثبت حكمه فى السجل .

طول هذا اليوم ووقوف الخلائق فيه :

وأما ما جاء من طول هذا اليوم ، ووقوف الخلائق فيه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فقد جاء من حديث أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » ، فقلت : ما أطول هذا ! ، فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من الصلاة المكتوبة [1] يصليها فى الدنيا » ذكره قاسم بن أبى أصبغ ، وقيل غير هذا . وسيأتى .

ومنها : يــوم الجمــع :

وحقيقته فى العربية – ضم واحد إلى واحد ، فيكون شفعا ، أو زوجا إلى زوج فيكون جمعا ، قال الله تعالى : ﴿ **يوم يجمعكم ليوم الجمع** ﴾ [2] وقال : ﴿ **لَيَجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه** ﴾ [3] وهو فى القرآن كثير .

ومنها : يــوم التَّفَــرق :

قال الله تعالى : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يُحبَرون ، وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ، فأولئك فى العذاب محضرون** ﴾ [4] ، وهو معْنى قوله تعالى : ﴿ **فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير** ﴾ [5] .

ومنها : يوم الصَّدْع والصَّدَر :

---

(١) المكتوبة : المفروضة ، ومنه : ﴿ **كتب عليكم الصيام** ﴾ أى فرض والصلوات المكتوبة هى الصلوات الخمس . والوقت الذى تشغله هذه الصلوات فى دنيانا ليس طويلا ، وبخاصة على الخاشعين .

(٢) ٩ : التغابن .

(٣) ٨٧ : النساء ، ١٢ : الأنعام .

(٤) الروم : ١٤ – ١٦ .

(٥) ٧ : الشورى .

قال الله تعالى : ﴿ **يومئذ يصدر الناسُ أشتاتا ليُرَوْا أعمالهم** ﴾ [(١)]
وقال : ﴿ **يومئذ يَصَّدَّعُون** ﴾ [(٢)] . ومعناهما : معنى الاسم الذى قبله .

ومنها : يـوم البعـثرة :

ومعناه : تتبع الشىء المختلط مع غيره حتى يخلص منه ، فيخلص الله تعالى الأجسام من التراب ، والكافرين من المؤمنين والمنافقين ، ثم يخلص المؤمنين من المنافقين كما فى الحديث الصحيح : « إن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين فى صعيد [(٣)] واحد » [خرجه مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه] .

ومنها ما روى : « أنه يخرج عنق من النار ؛ فيلتقط الكفار لقط الطائر حب السمسم » ، وهو صحيح أيضا ، وسيأتى .

وقال ﷺ : « يؤخذ برجال ذات الشمال ، فأقول يارب ، أصحابى فيقول : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك » .

ومنها : يـوم الفــزع :

وحقيقته : ضعف النفس عن حمل المعانى الطارئة عليها خلاف العادة ، فإن استمر كان جبنا ، وعند ذلك تتشوق النفس إلى ما يقويها ؛ فلأجل ذلك قالوا : فزعت من كذا !!، أى : ضعفت عن حمله عند طريانه [(٤)] ، على خلاف العادة . وفزعت إلى كذا ، أى تشوقت نفسى عند ذلك إلى ما يقويها على ما نزل بها ، والآخرة كلها خلاف العادة ، وهى فزع كلها ، وفى التنزيل : ﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر** ﴾ [(٥)] . وقد اختلف فيه فقيل : هو

---

(١) ٦ : الزلزلة .
(٢) الروم : ٤٣ ، ومعنى يصدعون : يتفرقون بعد جمعهم إلى الجنة أو النار ، ومعنى يصدر الناس أشتاتا : متفرقين عن موقف الحساب ، فآخذ إلى الجنة ، وآخذ إلى النار .
(٣) الصعيد : الأرض . والطريق .
(٤) طَرَيَانِه : حدوثه ، وطرأ الشىء يطرأ : طُرْآنا حصل بغتة .
(٥) ١٠٣ : الأنبياء .

قوله : ﴿ **لا بشرى يومئذٍ للمجرمين** ﴾ [1] وقيل : إذا طبقت النار على أهلها ، وذبح الموت بين الجنة والنار .

وقال الحسن : هو وقت يؤمر بالعباد إلى النار ، وعنه : أن الفزع الأكبر النفخة الآخرة ، وتتلقاهم الملائكة بالبشارة حتى يخرجوا من قبورهم .

ومنها : يــوم التنــاد :

يوم التناد : بتخفيف الدال من النداء ، وتشديدها من : ندَّ إذا ذهب ، وهو قوله تعالى : ﴿ **يوم تُوَلُّون مُدْبرين** ﴾ [2] وهو الذهاب فى غير قصْد . وروى أيضا عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « يأمر الله إسرافيل ، فينفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل السموات والأرض ... » الحديث ، وقد تقدم ، وهى التى يقول الله فيها : ﴿ **وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق** ﴾ [3] فيسير الله الجبال ، ويرج الأرض بأهلها رجا ، وهى التى يقول الله : ﴿ **يوم ترجُفُ الراجفة ، تتبعها الرادفة ، قلوب يومئذ واجفة ، أبصارها خاشعة** ﴾ [4] فيميد الناس على ظهرها [5] ، فتُذهَل المراضع وتضع الحوامل ، وتشيب الولدان ، وتولى الناس مدبرين ، ينادى بعضهم بعضا وهو الذى يقول الله تعالى فيه : ﴿ **يوم التنادِ ، يوم تولون مدبرين** ﴾ [6] .

قال ابن العربى : وقد رُويت فى ذلك آثار كثيرة ، هذا أَمْثلُها فدعوها ، فالمعنى واحد ، يكفينا منها ومن هولها ، ومن تحقيق المعنى لها .

قلت : قد بينا أقوال العلماء فى ذلك عند ذكر حديث أبى هريرة -

---

(١) ٢٢ : الفرقان .
(٢) ٣٣ : غافر .
(٣) ١٥ : ص . وما ينظر : معناها : ما ينتظر . و﴿ **مالها من فواق** ﴾ أى فتور وانقطاع .
(٤) النازعات : ٦ - ٩ .
(٥) يميد الناس : يميلون ويضطربون .
(٦) نهاية الآية رقم ٣٢ ، وبداية الآية رقم ٣٣ من سورة غافر .

رضى الله عنه – فى باب : أين تكون الناس ؟! فتأمله هناك .

ومنها : يـوم الدعـاء :

وهو النداء أيضا ، والنداء على ثمانية وجوه فيما ذكر ابن العربى :

الأول : نداء أهلِ الجنةِ أهلَ النار بالتقريع .

الثانى : نداء أهل النار لأهل الجنة بالاستغاثة كما أخبر الله تعالى عنهم .

الثالث : يُدْعَى كلُّ أُناس بإمامهم ، وهو قوله : « لتتبع كل أمة ما كانت تعبد » .

قال المؤلف : ويقال : بكتابهم ، وقيل : بنبيهم ، قال سَرِيُّ السِّقَطى : تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها ، فيقال : يا أمة موسى ، يا أمة عيسى ، ويا أمة محمد غير المحبين لله ... أما المحبون لله فإنهم ينادون : يا أولياءَ الله ، هلُمُّوا [1] إلى الله سبحانه ، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحا .

الرابع : نداء المَلَك – ألا إن فلان ابن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا ، وإن فلان ابن فلان قد شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا . وسيأتى .

الخامس : النداء عند ذبح الموت : « يا أهل الجنة خلود ، فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » .

السادس : نداء أهل النار – يا حسرتَنا ، ويا ويلتَنا !!

السابع : قول الأشهاد : ﴿ **هؤلاء الذين كذبوا على ربِّهم ألَا لعنةُ الله على الظالمين** ﴾ [2] .

الثامن : نداءُ الله تعالى أهلَ الجنة فيقول : « يا أهل الجنة ، هل رضيتم » ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من

---

(١) هلموا : اسم فعل أمر معناه : أقبلوا : وتعالَوْا ، وسارعوا .

(٢) ١٨ : هود .

خلقك ؟!! فيقول : « أعطيتكم أفضلَ من ذلك : رضائى » .

قال المؤلف – رضى الله عنه – ونداء تاسع ، ذكره أبو نعيم بن مروان ابن محمد قال : قال أبو حازم الأعرج : يخاطب نفسه ، يا أعرج ، ينادَى يوم القيامة ، يا أهل خطيئة كذا ، وكذا ، فتقوم معهم ، ثم ينادى ، يا أهل خطيئة أخرى فتقوم معهم ، فأراك يا أعرج تريد أن تقوم مع أهل كل خطيئة !، وفى التنزيل : ﴿ **ويوم يناديهم فيقول : أين شركائى ؟!** ﴾ [1] ... الآية التى فى القصص ، وحم السجدة [2] : ﴿ **ويوم يناديهم فيقول : ماذا أَجَبْتُم المرسلين ؟!** ﴾ [3] .

والنداء فى الأخبار كثير ، يأتى بيانها وذكرها فى باب من يدخل الجنة بغير حساب .

ومنها : يـوم الواقعــة :

وأصلُ (وقع) فى كلام العرب : كان ووُجِد ، وجاءت الشريعة فى تأكيد ذلك بثبوت ما جد ، قال الله تعالى : ﴿ **وإذا وقع القولُ عليهم أخرجنا لهم دابةً من الأرض تكلِّمُهم** ﴾ [4] .

والمراد بالقول هنا : إخبار البارى عن الساعة ، وأنها قريبة ، ومن أعظم علاماتها : الدابة ، وسيأتى ذكرها [5] ، وما للعلماء فيها من الأشراط إن شاء الله تعالى ، وقوله : كاذبة – مصدر كالباقية والعاقبة – أى ليس لوقعتها مقالة كاذبة .

---

(١) ٦٢ : القصص ، وكذلك الآية رقم ٧٤ القصص .

(٢) يقصد سورة فصلت ففيها الآية رقم ٤٧ : ﴿ **ويوم يناديهم أين شركائى قالوا آذناك ما مِنا من شهيد** ﴾

(٣) ٦٥ : القصص .

(٤) ٨٢ : النمل .

(٥) سبق ذلك فى الباب الأول من هذا الكتاب وجعل تمهيدا له .

ومنها : الخافضة الرافعة :

أى ترفع قوما فى الجنة ، وتخفض آخرين فى النار !، والخفض والرفع يستعملان عند العرب فى المكان والمكانة [1] ، والعز والإهانة ، ونسب - سبحانه - الخفض والرفع للقيامة - توسّعا ، ومَجازا على عادة العرب فى إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما ، مما لم يكن منه الفعل ، يقولون : ليل قائم ونهار صائم ، وفى التنزيل : ﴿ **بل مكر الليل والنهار** ﴾ [2] .

والخافض والرافع - على الحقيقة - إنما هو الله تعالى وحده ، فرفع أولياءه فى أعلى الدرجات ، وجعل أعداءه فى أسفل الدركات [3] ، قال الله تعالى : ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ، ونسوق المجرمين إلى جهنم وِرْدا** ﴾ [4] .

وقال ﷺ : فى حديث جابر - رضى الله عنه - « نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس » . قال ابن العربى : وهذا حديث فيه تخليط فى كتاب مسلم لم يتقنه رواية ، ومعناه : أن جميع الخلق ، على بسيط [5] من الأرض إلا محمدا ﷺ وأمته ، فإنهم يرفعون جميعهم على شبه من الكوم [6] ، ويخفض الناس عنهم . وفى رواية : « أكون أنا وأمتى يوم القيامة على تل فيكسونى ربى حلة خضراء ، ثم يؤذن لى ؛ فذلك المقام المحمود » .

---

(١) وفرق بين المكان والمكانة .. فالمكان حسى ، والمكانة معنوية ، ويرتفع إنسان فى نظر الآخرين أو يسقط من نظرهم فتلك مكانة . ويصعد الجبل أو يجلس على منصة فذلك مكان ، ويمنح أعلى الدرجات أو يجرد منها فهذه مكانة وقد يكون الرفع فى المكان على حسب الزيادة فى المكانة كما سيأتى بالنسبة للنبى ﷺ .

(٢) ٣٣ : سبأ .

(٣) للتكريم درجات يصعد فيها ، وللإهانة والانحطاط والهبوط دركات كما قال تعالى : ﴿ **فى الدرك الأسفل من النار** ﴾ .

(٤) ٨٥ ، ٨٦ : مريم .

(٥) بسيط : أى مبسوط كالبساط ليس فيه مرتفعات فالأرض منبسطة أى بسطها الله وسواها .

(٦) الكُوم : الموضع المشْرف أى المطل على غيره كالتل ، وجمعه أكوام أشبه بما نتعارف عليه ب (المنصة) .

قلت : وهذا الرفع فى المكان بحسب الزيادة فى المكانة ....

أنـواع الرفـع :

قال ابن العربى : وهى أنواع :

فرفع **محمدا** ﷺ بالشفاعة فى أول الخلق ، وبأنه أول من يدخل الجنة ويقرع بابها .

ورفع **العادلين** بالحديث الصحيح : « المقسطون يوم القيامة على منابرَ من نور عن يمين الرحمن – وكلتا يديه يمين – » .

ورفع **القُرَّاء** إلى حيث انتهت قراءتهم ، يقال : « اقرأ ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ؛ فإن منزلتك عند آخِرِ آية تقرؤها » . وسيأتى .

ورفع **الشهداء** فقال فى الحديث الصحيح : « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله ... الحديث » وسيأتى .

ورفع **كافل** اليتيم فقال ﷺ : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة » وأشار مالك بالسبابة والوسطى : يريد فى الجوار .

وقال ﷺ : « إن أهل الجنة لَيتراءون أهلَ الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى الغائر فى أفق السماء ، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما » .

ورفع **عائشة** علَى فاطمة – رضى الله عنهما –، فإن عائشة مع النبى ﷺ ، وفاطمة مع على رضى الله عنهما .

ومنها : يـوم الحسـاب :

ومعناه أن البارى سبحانه يعدد على الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة : يعدد عليهم نعمه ، ثم يقابل البعض بالبعض ، فما يشف [1] منها على الآخر حكم للمشفوف بحكمه الذى عينه للخير بالخير ، وللشر بالشر .

---

(١) يشف : يزيد .

وجاء عن النبى ﷺ أنه قال : « ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله ، ليس بينه وبينه ترجمان » ، فقيل : إن الله يحاسب المكلفين بنفسه ، ويخاطبهم معا ولا يحاسبهم واحدا بعد واحد ، والمحاسبة حكم ؛ فلذلك تضاف إليه ، كما يضاف الحكم إليه ؛ قال تعالى : ﴿ **أَلَا له الحكم** ﴾ [1] . وقال : ﴿ **وهو خير الحاكمين** ﴾ [2] .

وفى الخبر : « أنه يوقف شيخٌ للحساب فيقول الله له : يا شيخ ، ما أنصفت !! غذوتك بالنعم صغير ؛ فلما كبرتك عصيتنى !! أما إنى لا أكون لك كما كنت لنفسِك ، اذهب فقد غفرتُ لك ما كان قبل » .

وإنه ليؤتى بالشاب - كثير الذنوب - فإذا وقف تضعضعت أركانه واصطكت ركبتاه ، فيقول الرب جل جلاله : « أما استحييتنى ؟! أما راقبتنى ؟!، أما خشيتَ نقمتى ؟!، أما علمت أنى مطلع عليك ؟! خذوه إلى أمه الهاوية » [3] .

وقيل : إن الملائكة يحاسِبُون - بأمر الله - كما أن الحكام يحكمون بأمر الله تعالى ، وقد قال تعالى : ﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا** ﴾ [4] إلى قوله : ﴿ **ولا يكلمهم الله** ﴾ [5] وإن من لم يكن بهذه الصفة ؛ فإن الله تعالى يكلمه : فيكلم المؤمنين ، ويحاسبهم حسابا يسيرا - من غير ترجمان - إكراما لهم كما أكرم موسى - عليه السلام - فى الدنيا بالكليم .

ولا يكلم الكفار ؛ فتحاسبهم الملائكة ، ويميزهم بذلك عن أهل الكرامة فتتسع قدرته لمحاسبة الخلق كلهم معا ، كما تتسع قدرته لأحداث خلائق كثيرة

---

(١) ٦٢ : الأنعام .

(٢) ٨٠ : يوسف .

(٣) هذه المساءلة وتلك الاستفهامات تحمل توبيخا وتقريعا وتأنيبا لذلك الشاب !

(٤) ٧٧ : آل عمران .

(٥) من بقية الآية السابقة .

معا . قال الله تعالى : ﴿ **ما خلْقُكم ولا بعثُكم إلا كنفسٍ واحدَة** ﴾ [١] أى إلا كخلق نفس واحدة .

ويروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه : سئل عن محاسبة الخلق فقال : « كما يرزقهم فى غداةٍ [٢] واحدة كذلك يحاسبهم فى ساعة واحدة » .

وفى صحيح مسلم حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلت لرسول الله ﷺ : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟! قال : « هل تُضارُّون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليست فى سحابة ؟! » قالوا : لا . قال : « فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر وليس فى سحابة ؟! » قالوا : لا . قال : « فوالذى نفس محمد بيده لا تضارون فى رؤية ربكم إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما . قال : فيلقى العبد فيقول : أيا فُلُ [٣] ، ألم أكرمك ، وأسوِّدْك ، وأزوجك وأسخر لك الخيَل والإبلَ ، وأذرك [٤] ترأس وترتع ؟ فيقول : بلى ! فيقول : أفظننت أنك مُلَاقِيَّ ؟! فيقول : لا ! فيقول : إنى أنساك كما نسيتنى ! ثم يلقى الثانى ، فيقول له ، ويقول – هو – مثل ذلك بعينه !! ثم يلقى بالثالث فيقول له مثل ذلك ، فيقول : يارب ، آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وتصدقت وصمت ، ويثنى بخير ما استطاع . قال : فيقول : ها هنا إذاً ، ثم يقول : الآن نبعث شاهدا عليك ، فيقول فى نفسه من ذا الذى يشهد علىّ ؟ فيختم على فيه ، ويقال لفخذه : انطقى ، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليعذر [٥] من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذى يسخط الله عليه ، وقد قال الله تعالى :

---

(١) ٢٨ : لقمان .

(٢) الغداة : أول النهار ، أو ما بين الفجر وطلوع الشمس .

(٣) أيا فُلُ : من أدوات النداء : أيا ، وهَيَا ، وفُلُ ، منادى وكما يقال : فلان كناية عن أسمائنا يقال للواحد : يا فُلُ .

(٤) أذرك : أتركك وشأنك ، وهى من الأفعال التى ليس لها ماضٍ ومثلها يدع وفى القرآن الأمر منها : ﴿ **ذرنى ومن خلقت وحيدا** ﴾ .

(٥) أعْذر : صار ذا عيْب وفساد ، وفى حديث : « لن يهلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم » أى حتى تكثر ذنوبهم وعيوبهم .

﴿ **اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾ [١] . أى : حاسباً . فعيلاً بمعنى فاعل ، وإذا نظر فيها ورأى أنه قد هلك ، فإن أدركته سابقة حسنة ، وضعت له (لا إله إلا الله) فى كِفَّة فرجحت له السموات والأرض » ، وفى رواية : « فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة » . وسيأتى . وقال : « من نوقش الحساب عذب » .

ومنها : يــوم الســؤال :

والبارىء – سبحانه وتعالى – يسأل الخلق فى الدنيا والآخرة تقريرا لإقامة الحجة ، وإظهارا للحكمة ، قال الله تعالى : ﴿ **سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة** ﴾ [٢] . وقال : ﴿ **واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر** ﴾ [٣] .

وقال : ﴿ **وآسأل من أرسلنا من قَبْلِك من رُسُلِنا** ﴾ [٤] . وهو فى القرآن كثير . وقال : ﴿ **لِيَسْأَل الصادقين عن صدقهم** ﴾ [٥] . وقال : ﴿ **وإذا الموءودة سئلت** ﴾ [٦] . وقال : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون** ﴾ [٧] . قيل : عن (لا إله إلا الله) . وقال : ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾ [٨] . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ... » الحديث . وسيأتى .

وروى ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « ألا كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته ؛ فالأمير الذى على الناس راعٍ ومسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ على أهل بيته ، وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت زوجها ، وهى

---

(١) ١٤ : الإسراء .
(٢) ٢١١ : البقرة .
(٣) ١٦٣ : الأعراف .
(٤) ٤٥ : الزخرف .
(٥) ٨ : الأحزاب .
(٦) ٨ : التكوير .
(٧) ٩٢ ، ٩٣ : الحجر .
(٨) ٣٦ : الإسراء .

مسئولة عنه ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » .

ومنها : يوم الشهادة ، ويوم يقوم الأشهاد :

والشهادة على أربعة أنواع :

١ – شهادة محمد ﷺ وأمته تحقيقا لشهادة الرسل على قومها .

٢ – شهادة الأرض والأيام والليالى بما عمل فيها وعليها .

٣ – شهادة الجوارح ، قال الله تعالى : ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم** ﴾ (١) . وقال : ﴿ **وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟** ﴾ (٢) وذلك بين أيضا فى حديث أبى هريرة – رضى الله عنه –.

٤ – شهادة الأركان : لحديث أنس رضى الله عنه . وفيه : « ويختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بأعماله » . وسيأتى بيان هذا الباب كله . إن شاء الله تعالى .

ومنها : يـوم التبديـل :

قال الله تعالى : ﴿ **يوم تُبَدَّل الأرضُ غير الأرضِ والسموات** ﴾ (٣) وقد تقدم القول فى ذلك مستوفى .

ومنها : يـوم التـلاق :

قال الله تعالى : ﴿ **لينذر يوم التلاق** ﴾ (٤) .

وهو عبارة عن اتصال المعنيين بسبب من أسباب العلم ، والجسمين وهو أنواع أربعة :

---

(١) ٢٤ : النور .
(٢) ٢١ : فصلت .
(٣) ٤٨ : إبراهيم .
(٤) ١٥ : غافر .

الأول : لقاء الأموات لمن سبقهم إلى الممات ، فيسألونهم عن أهل الدنيا - كما تقدم .

الثانى : عمله . وقد تقدم .

الثالث : لقاء أهل السموات لأهل الأرض فى المحشر . وقد تقدم .

الرابع : لقاء الخلق للبارىء - سبحانه وتعالى - وذلك يكون فى عرصات القيامة وفى الجنة . على ما يأتى .

ومنها : يـوم الآزفـة :

تقول العرب : أزف كذا ، أى قرب ، قال الشاعر :

أزف الترحل غير أن رِكابنا لما [1]تَزَلْ برحالنا وكأن قد

وهى قريبة جدا ، وكل آتٍ قريب - وإن بعد مداه - قال الله تعالى : ﴿ **وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا** ﴾ [2] . وما يستبعد الرجل من الساعة ، ومدته ساعة ؟!

ومنها : يـوم المـآب :

ومعناه : الرجوع إلى الله تعالى ، ولم يذهب عن الله شىء فيرجع إليه ! وإنما حقيقته : أن العبد يخلق الله فيه ما شاء من أفعاله لما خلق فيه علما ، وخلق فيه إيثاراً [3] واختيارا ظن الناس أنه شىء ، أو أن له فعلا ، فإذا أماته ، وسلب

---

(١) لما : أداة جزم تجزم المضارع وهى مثل (لم) فى العمل غير أنها لا تقترن بأداة شرط فلا يقال : (إن لما تقم) ويقال : إن لم تقم ، ومنفيها مستمر النفى إلى الحال مثل : ﴿ **لما يذوقوا عذاب** ﴾ أى لم يذوقوه فى الماضى وحتى الآن . أما لم فمنفيها يحتمل الاتصال والانقطاع مثل (لم يكن شيئا مذكورا) ولهذا يجوز أن تقول : لم يكن ثم كان ، وكذلك الغالب فى منفىّ لما أن يكون قريبا من الحال بخلاف لم ، وأيضا : منفى لما متوقع ثبوته بخلاف منفى لم .

(٢) ١٧ : الشورى .

(٣) الإيثار : تفضيل أحد الأمرين على الآخر ، وهو دليل الإرادة والاختيار أما الأثرة فهو الأنانية وحب النفس ، والإيثار فيه تفضيل غيرك على نفسك ولهذا كان ممدوحا قال تعالى : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم** ﴾ .

ما كان أعطاه أذعن وآب فى وقت لا ينفعه الإياب ، ولم يزل عن الله تعالى فى حال ؛ فهو الأواب .

ومنها : يـوم المصيـر :

وهو يوم المآب بعينه ، قال الله تعالى : ﴿ **ولله ملك السموات والأرض ، وإلى الله المصير** ﴾ (١) . فالخلق سائرون إلى أمر الله تعالى . وآخر ذلك دارُ القرار : وهى الجنة أو النار ، قال الله تعالى فى حق الكافرين : ﴿ **قل تمتعوا فإن مصيرَكم إلى النار** ﴾ (٢) .

ومنها : يـوم القضـاء :

وهو أيضا يوم الحكم ، ويوم الفصل ، وسيأتى : أن أول ما يقضى فيه الدماء . وقال ﷺ : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها ... » الحديث . وفيه : « كلما بردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد » .

والفصل : هو الفرق والقطع ، فيفصل يومئذ بين المؤمن والكافر ، والمسىء والمحسن . قال الله تعالى : ﴿ **يوم القيامة يَفْصِلُ بينكم ...** ﴾ (٣)الآية .

وهو يوم الحكم ؛ لأن إنفاذَ الحكم هو إنفاذ العلم ، قال الله تعالى : ﴿ **الملك يومئذ لله يحكم بينهم ...** ﴾ (٤) الآية . وقال : ﴿ **ذلك حكم الله يحكم بينكم** ﴾ (٥) .

---

(١) ٤٢ : النور .
(٢) ٣٠ : إبراهيم .
(٣) ٣ : الممتحنة .
(٤) ٥٦ : الحج .
(٥) ١٠ : الممتحنة .

ومنها : يــوم الــوزن :

قال الله تعالى : ﴿ **والوزن يومئذ الحق** ... ﴾ [1] الآية . وسيأتى الكلام فى الميزان ووزن الأعمال فيه فى أبواب إن شاء الله .

ومنها : يــوم عقيــم :

وهو فى اللغة عبارة عمن لا يكون له ولد ، ولما كان الولد يكون بين الأبوين ، وكانت الأيام تتوالى قبل وبعد جعل الاتباع بالتعدية فيها كهيئة الولادة ، ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقيم .

ومنها : يــوم الجــدال :

قال الله تعالى : ﴿ **يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها** ﴾ [2] أى : تخاصم ، وتحاج عن نفسها ، وجاء فى الخَبر [3] : « أن كل أحد يقول يوم القيامة : نفسى نفسى !! من شدة أهوال يوم القيامة ، سوى محمد ﷺ فإنه يسأل فى أمته على ما يأتى .

وفى حديث عمر – رضى الله عنه – أنه قال لكعب الأحبار [4] : يا كعبُ ، خَوِّفنا ، هَيِّجْنا ، حَدِّثْنا ، نَبِّهْنا !، فقال كعب : يا أميرَ المؤمنين ، والذى نفسى بيده لو وافيتَ يومَ القيامة بمثلِ عملِ سبعين نبيا لأَتَتْ عليك تارات ولا يهمك إلا نفسك ، وإن لجهنم زفرة ، لا يبقى ملك مقرب ولا نبى

---

(١) ٨ : الأعراف .

(٢) ١١١ : النحل .

(٣) الخبر مرادف للحديث على الصحيح ، وقيل : الحديث ما جاء عن النبى ﷺ والخبر ما جاء عن غيره . وقيل : الخبر أعم من الحديث فيشمل ما جاء عن النبى وغيره ، والحديث خاص بما جاء عن النبى ﷺ .

(٤) كعب بن ماتع الحميرى ثقة من الثانية ، مخضرم ، مات فى خلافة عثمان وقد زاد على المائة ليس له فى البخارى رواية ، وفى مسلم رواية لأبى هريرة عنه .

منتخب إلا وقع جاثيا على ركبتيه ، حتى إن إبراهيم الخليل لَيُدلى بالخَلَّة فيقول : رب أنا خليلك إبراهيم لا أسألك اليوم إلا نفسى !

قال : يا كعب : أين نجد ذلك فى كتاب الله ؟ قال : قوله تعالى : **﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ، وتُوَفَّى كل نفسٍ ما عملت وهم لا يُظلمون ﴾** (١) .

وقال ابن عباس رضى الله عنه فى هذه الآية :

(ما تزال الخصومة بالناس يوم القيامة ، حتى تخاصمَ الروحُ الجسد ؛ فتقول الروح : ربِّ ، الروح منك أنت خلقته ، لم يكن لى يد أبطش بها ، ولا رجل أمشى بها ، ولا عين أبصر بها ، ولا أذن أسمع بها ، ولا عقل أعقل به ، حتى جئتُ فدخلت فى هذا الجسد ، فضعف عليه أنواع العذاب ونجنى .

فيقول الجسد : ربِّ ، أنت خلقتنى بيدك ، فكنت كالخشبة ليس لى يد أبطش بها ، ولا قدم أسعى بها ، ولا بصر أبصر به ، ولا سمع أسمع به ، فجاء هذا كشعاع الشمس ؛ فبه نطق لسانى ، وبه أبصر عينى ، وبه مشت رجلى ، وبه سمعت أذنى ، فضعف عليه أنواع العذاب ، ونجنى .

قال : فيضرب الله لهما مثلا : أعمى ، ومُقعد ، أدخلا بستانا فيه ثمار فالأعمى لا يبصر الثمر ، والمقعد لا ينالها ، فنادى المقعد للأعمى ، ائتنى فاحملنى ، آكل وأطعمك ، فدنا منه ، فحمله ، فأصابا من الثمرة ، فعلى من يكون العذاب ؟ قالا : عليهما . قال : عليكم جميعا العذاب !) .

قال المؤلف – رضى الله عنه وأرضاه – : ومن هذا الباب قول الأمم : كيف يشهد علينا من لم يدركنا ؟!.. إلى غير ذلك مما فى معناه ، وسيأتى .

ومنها : يــوم القِصــاص :

وفيه أحاديث كثيرة ، يأتى ذكرها فى (باب) إن شاء الله تعالى .

---

(١) ١١١ : النحل .

ومنها : يــوم الحاقّــة :

وسميت بذلك ؛ لأن الأمور تحق فيها ، قاله الطبرى ، كأنه جعلها من باب : (لَيْلِي نائم) [1] . كما تقدم .

وقيل سميت : حاقة ؛ لأنها كانت من غير شك .

وقيل سميت بذلك ؛ لأنها أحقت لأقوام النار .

ومنها : يــوم الطامّــة :

معناها : الغالبة ، من قولك : طمَّ الشيءُ إذا علا وغلب ، ولما كانت تغلب كل شيء كان لها هذا الاسم حقيقة دون كل شيء .

قال الحسن : الطامّة – النفخة الثانية .

وقيل : حين يساق أهل النار إلى النار .

ومنها : يــوم الصاخّــة :

قال عكرمة : الصاخّة : النفخة الأولى ، والطامة : النفخة الثانية .

قال الطبرى : أحسَبُه من : صَخَّ فلان فلاناً ، إذا أصَمَّه .

قال ابن العربى : الصاخّة التى تورث الصَّمم ، وإنها المُسْمِعة . وهذا من بديع الفصاحة ؛ حتى لقد قال بعض أحداث الأسنان ، حديثى الأزمان :

أصَمَّ بك الناعـــــى وإن كنت أسمعـــــا !!

وقال آخر :

أصمنى شرهم أيام فرقتهم فهل سمعتم الشر يورث الصمما ؟!!

---

(١) فكما أسندنا النوم إلى الليل تجوزا مع أنه لا ينام وإنما يُنام فيه فهو ظرف للنوم كذلك ، نقول عن الساعة إنها الحاقة تجوزا باعتبار أن الأمور تحق فيها ، وهذا رأى الإمام الطبرى .

ولَعَمْر الله [1] ، إن صيحة القيامة مسمعة تصم عن الدنيا ، وتسمع أمور الآخرة ، وبهذا كله كان يوما عظيما ، كما قال الله تعالى فى وصفه بالعظيم .

وكل شيء كبر فى أجزائه فهو عظيم ، وكذلك ما كبر فى معانيه . وبهذا المعنى كان البارى عظيما ؛ لسعة قدرته وعلمه ، وكثرة ملكه الذى لا يحصى .

ولما كان أمر الآخرة لا ينحصر كان عظيما بالإضافة إلى الدنيا .

ولما كان محدثا له أول صار حقيرا بالإضافة إلى العظيم الذى لا يحد !

ومنها : يــوم الوعيــد :

وهو أن البارى – سبحانه – أمَرَ ، ونَهىَ ، ووعَد وأَوْعد [2] فهو أيضا يوم الوعد ، والوعد للنعيم ، والوعيد للعذاب الأليم .

وحقيقة الوعيد : هو الخبر عن العقوبة عند المخالفة .

والوعد : الخبر عن المثوبة عند الموافقة ..

وقد ضل – فى هذه المسألة – المبتدعة ، وقالوا :

إن من أذنب ذنبا واحدا فهو مخلد فى النار تخليد الكفار أخذا بظاهر هذا اللفظ فى (آى) ؛ فلم يفهموا العربية ، ولا كتاب الله ، وأبطلوا شفاعة رسول الله ﷺ وسيأتى الرد عليهم فى أبواب من هذا الكتاب . إن شاء الله .

---

(1) أسلوب من أساليب القسم . حيث تدخل لام القسم على المصدر (عمر) المفتوح العين ، فتقول : لعمرك لأفعلن كذا ، وهو هنا يحلف بحياته وبقائه ، وفى القرآن : ﴿ **لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ .

(2) يقال : إن هناك فرقا بين وعد وأوعد ، فوعد فى الخير وأوعد تستخدم فى الشر ، ولذا يفخر أحدهم فيقول :

وإنى لمخلف إيعادى ومنجز موعدى . فهو إذا أوعد إيعادا بشر يخلف ولا ينجز ، أما إذا وعد وعدا وموعدا فهو صادق الوعد منجزه .

ومنها : يــوم الديــن :

وهو فى لسان العرب : الجزاء . قال الشاعر :

حصادك يوما ما زرعت وإنما يدان الفتى فيه كما هو دائن

وقال آخر :

واعلم يقينا أن ملكك زائل واعلم بأنك كما تدين تدان

ومنها : يــوم الجــزاء :

قال الله تعالى : ﴿ **اليوم تُجْزَون ما كنتم تعملون** ﴾ [1] وقال : ﴿ **اليوم تُجزى كل نفس بما كسبت** ﴾ [2] ، وهو أيضا – يوم الوفاء . قال الله تعالى : ﴿ **يومئذ يوفيهم الله دينَهم الحق** ﴾ [3] . أى : حسابهم ، وجزاءهم . والجنة جزاء الحسنات ، والنار جزاء السيئات ، قال الله تعالى فى المعنيين : ﴿ **جزاء بما كانوا يكسبون** ﴾ [4] و﴿ **جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ [5] وقال فى جهة الوعيد : ﴿ **كذلك نجزى كل كفور** ﴾ [6] .

ومنها : يــوم الندامــة :

وذلك أن المحسن إذا رأى جزاء إحسانه ، والكافر جزاء كفره ، ندم المحسن أن لا يكون مستكثرا [7] ، وندم المسىء أن لا يكون استعتب [8] ، فإذا صار الكافر إلى عذاب لا نفاد له تحسر ؛ فلذلك سمى يوم الحسرة ، قال الله تعالى : ﴿ **وأنذِرهم يومَ الحَسْرةِ إذْ قُضىَ الأمرُ** ﴾ [9] وذلك عند ذبح

---

(١) ٢٨ : الجاثية .
(٢) ١٧ : غافر .
(٣) ٢٥ : النور .
(٤) ٩٥ : التوبة .
(٥) ٢٤ : الواقعة ، ١٤ : الأحقاف .
(٦) ٣٦ : فاطر .
(٧) مستكثرا من إحسانه فاعلا لمزيد من الخير .
(٨) استعتب : طلب من الله الرضا عنه .
(٩) ٣٩ : مريم .

الموت على ما يأتى ، وهم فى غفلة ، يعنى الآن عن ذلك اليوم .

والحسرة : عبارة عن استكشاف المكروه بعد خفائه .

ومنها : يـوم عسـير :

وهذا فى حق الكافرين خاصة ، والعسر ضد اليسر ، فهو عسير على الكافرين ؛ لأنهم لا يرون فيه أملا ، ولا يقطعون فيه رجاء ، حتى إذا خرج المؤمنون من النار طلبوا مثل ذلك ؛ فيقال لهم : ﴿ **اخسئوا فيها ولا تكلمون** ﴾ [1] فحينئذ يكون المنع الصريح على ما يأتى بيانه فى أبواب النار ، إن شاء الله تعالى .

وأما المؤمنون فتنحل عقدهم بيسر إلى يسر ، فينحل طول الوقوف إلى تعجيل الحساب وتثقيل الموازين ، وجواز [2] الصراط والظلال بالأعمال ، ولا تنحل للكافرين من هذه العقد عقدة واحدة إلا إلى أشد منها حتى إلى جهنم دار القرار .

ومنها : يـوم مشهـود

سمى بذلك ؛ لأنه يشهده كل مخلوق .

وقيل : سمى بذلك ؛ لأن الشهداء يشهدون فيه على ما يأتى . والله أعلم .

ومنها : يـوم التّغابُن [3] :

سمى بذلك ؛ لأن الناس يتغابنون فى المنازل عند الله : فريق فى الجنة

---

(١) ١٠٨ : المؤمنون .

(٢) جواز الصراط : اجتيازه والمرور عليه .

(٣) يوم التغابن : يوم غبن أهل الجنة أهل النار فهؤلاء فى الجنة وأولئك فى السعير .

وفريق فى السعير ، وحقيقة فى لسان العرب : ظهور الفضل فى المعاملة لأحد المتعاملين ، والدنيا والآخرة دار العملين وحالين . وكل واحد منهما لله ، ولا يعطى أحدهما إلا لمن ترك نصيبه من الأخرى ، قال الله تعالى : ﴿ **من كان يريد العاجلة عَجَّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد** ﴾ [١] . وقال : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وما له فى الآخرة من نصيب** ﴾ [٢] . ومَن أراد الآخرة فسعيه مشكور ، وحظه فى الآخرة موفور .

ومنها : يوم عبوس قمطريــر :

والقمطرير : الشديد ، وقيل : الطويل . وأما العبوس : فهو الذى يُعْبَس فيه . سمى باسم ما يكون فيه ، كما يقال : ليل قائم ، ونهار صائم . وكُلوح الوجه وعبوسه : هو قبض ما بين العينين ، وتغيير السَّحْنة [٣] عن عادتها الطلقة . يقال : يوم طلق إذا كانت شمسه نيرة فاترة ، وإذا كانت شمسه مُدْجية [٤] قد غطاها السحاب ، قيل : يوم عبوس .

وأول العبوس والكلوح عند الخروج من القبور ، ورؤية الأعمال فى الصور القبيحة كما تقدم !

وآخر ذلك كلوح النار ، وهو الكلوح الأعظم ، يشوى الوجوه ويسقط الجلود على ما يأتى . ومع العبوس تشخص الأبصار ، وهى ثبوتها راكدها على منظر واحد لهول ، لا ينتقل منه إلى غيره كما قال سبحانه : ﴿ **لِيومٍ تَشْخَصُ فيه الأبصارُ** ﴾ [٥] .

---

(١) ١٨ : الإسراء .
(٢) ٢٠ : الشورى .
(٣) السَّحْنةُ والسَّحْنَاءُ و(يحركان) لين البشرة والهيئة واللون .
(٤) مُدْجية : أى مظلمة ، والدجى : الظلام .
(٥) ٤٢ : إبراهيم .

ومنها : يوم تُبلى السرائر :

ومعناه : إخراج المخبآت بالاختبار بوزن الأعمال فى الصحف وبكشف الساق عند السجود على ما يأتى .

ومنها : يوم لا تملك نفس لنفس شيئا :

وهو مثل قوله تعالى : ﴿ **واتقوا يوما لا تَجْزِى نفسٌ عن نفسٍ شيئا ولا يُقبَل منها شفاعةٌ ، ولا يُؤْخذ منها عدلٌ ولا هم ينصرون** ﴾ (١) .

وقال : ﴿ **يوم لا يُغنى مولىً عن مولىً شيئاً** ﴾ (٢) .

فكل نفس بما كسبت رهينة ؛ لا يغنى أحد عن أحد شيئا ؛ بل ينفصل كل واحد عن أخيه وأبيه ؛ ولذلك كان يوم الفصل ، ويوم القرار . قال الله تعالى : ﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتا** ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ (٤) إما لأنه يجزى ، ويقضى ، ويعطى ، ويغنى بغير اختياره من حسناته ما عليه من الحقوق على ما يأتى بيانه فى أحاديث المفلس إن شاء الله .

ومنها : يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دَعًّا :

والدَّعُّ : الدفع ، أى يدفعون إلى جهنم ويسحبون فيها على وجوههم كما قال الله تعالى : ﴿ **يوم يُسحبون فى النارِ على وجوهِهم** ﴾ (٥) .

ومنها : يوم التَّقَلُّب ، وهو التحول :

قال الله تعالى : ﴿ **يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار** ﴾ (٦)

---

(١) ٤٨ : البقرة ، ومعنى : ﴿ **لا يؤخذ منها عدل** ﴾ : فداء (فدية) .

(٢) ٤١ : الدخان .

(٣) ١٧ : النبأ .

(٤) ٣٤ - ٣٧ : عبس .

(٥) ٤٨ : القمر .

(٦) ٣٧ : النور .

أى قلوب الكفار وأبصارهم ، فتقلب قلوب الكفار : انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر ، فلا هى ترجع إلى أماكنها ، ولا هى تخرج !

فأما تقلب الأبصار ، فالزرقة بعد الكَحَلِ [١] ، والعمى بعد البصر !
وقيل : تتقلب القلوب بين الطمع فى النجاة ، والخوف من الهلاك !!

والأبصار : تنظر من أى ناحية يُعطَوْن كتبُهَم ؟! وإلى أى ناحية يُؤخَذ بهم ؟! وقيل : إن قلوبَ الشاكِّين تتحول عما كانت عليه من الشك ، وكذلك أبصارهم ؛ لرؤيتهم اليقين . إلا أن ذلك لا ينفعهم فى الآخرة !

ومنها : يوم الشُّخوصِ والإقنـــاع :

قال الله تعالى : ﴿ **إنما يؤخرهم ليومٍ تَشْخَصُ فيه الأبصار** ﴾ [٢] أى لا تغمض فيه من هول ما ترى فى ذلك اليوم . [قاله الفراء] .

وقال ابن عباس رضى الله عنه : تشخص أبصار الخلائق يومئذ إلى الهواء لشدة الحيرة ، فلا يغتمضون ﴿ **مهطعين** ﴾ [٣] أى : مديمى النظر .

قال مجاهد والضحاك : ﴿ **مقنعى رءوسهم** ﴾ [٤] أى : رافعى رءوسهم وإقناع الرأس : رفعه . [قاله ابن عباس ومجاهد] ، وقال الحسن : وجوه الناس يومئذ إلى السماء ؛ لا ينظر أحد إلى أحد .

فإن قيل : قال الله تعالى فى غير هذه الآية : ﴿ **خاشعة أبصارهم** ﴾ [٥] وقال : ﴿ **خُشَّعا أبصارهم** ﴾ [٦] فكيف يكون الرافع رأسه ، الناظر نظرا طويلا حتى إن طرفه لا يرتد إليه - خاشع البصر ؟!

---

(١) الكَحَل بفتحتين : سواد فى منابت شجر الأجفان خلقة وقد قالوا وليس التكحل فى العينين كالكَحَل !
(٢) ٤٢ : إبراهيم .
(٣) بعض الآية ٤٣ من سورة إبراهيم .
(٤) بعض الآية ٤٣ من سورة إبراهيم .
(٥) ٤٣ : القلم .
(٦) ٧ : القمر .

فالجواب : أنهم يخرجون حال المضى إلى الموقف خاشعة أبصارهم وفى هذه الحالة وصفهم الله تعالى بخشوع الأبصار ، وإذا توافَوْا وضمهم الموقف ، وطال القيام عليهم فإنهم يصيرون من الحيرة كأنهم لا قلوب لهم ، ويرفعون رءوسهم ، فينظرون النظر الطويل ، ولا يرتد إليهم طرفهم ، كأنهم قد نسوا الغمض أو جهلوه ، فهو تعسير عليهم .

ومنها : يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون !

وذلك حين يقال لهم : ﴿ **اخسئوا فيها ولا تكلمون** ﴾ [1] وتطبق عليهم جهنم على ما يأتى فى أبواب النار .

ومنها : يوم ﴿ لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ !!

وإن أُذن لهم بأن يمكنوا منها ، لا بأن يقال لهم : اعتذروا .. كقوله : ﴿ **ربنا إنا أطعنا سادتَنا وكُبراءَنا** .. ﴾ [2] الآية . وكقوله : ﴿ **ربنا أخرِجنا منها** .. ﴾ [3] الآية . ومنها : ﴿ **ولا يَكتمون الله حديثا** ﴾ [4] .

ومنها : يـوم الفتنـة !

قال الله تعالى : ﴿ **يومَ هُم على النارِ يُفْتَنُون** ﴾ [5] . أى : يُعذَّبون من قولك : فتنت الذهب ، إذا رميت به فى النار .

ومنها : يوم لا مَرَدَّ له من الله !

يريد يوم القيامة ، أى لا يرده أحد بعدما حكم الله به وجعل له أجلا ووقتا .

---

(١) ١٠٨ : المؤمنون .
(٢) ٦٧ : الأحزاب .
(٣) ١٠٧ : المؤمنون .
(٤) ٤٢ : النساء .
(٥) ١٣ : الذاريات .

ومنها : يـوم الغاشيـة !

وسميت بذلك ؛ لأنها تغشى الناس بإفزاعها أى تعمهم بذلك . ومنه غاشية السرج ، ومنها : ﴿ **فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد** ﴾ (١) .

ومنها : يوم لا بيع فيه ولا خِـلال !

قال الله تعالى : ﴿ **قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سِرًّا وعلانيةً من قبلِ أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال** ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيعٌ فيه ولا خُلَّةٌ ولا شفاعة** ﴾ (٣) .

والخُلَّةُ ، والخِلال : الصداقة والمودة .

ومنها : يوم لا ريبَ فيـه !

وإن وقع فيه ريب الكفار ، أى : شك ، فليس فيه ريب لقيام الأدلة الظاهرة عليه ، كما قال الله تعالى : ﴿ **أفى الله شك ؟!** ﴾ (٤) فليس فى البارى شك ؛ لقيام الأدلة عليه ، ولشهادة أفعاله ، ولاقتضاء المحدث أن يكون له محدث . ولكن قد شك فيه قوم ، ونفاه آخرون !

ولم يوجب ذلك شكا فيه ، لقيام الأدلة عليه ، فكذلك يوم القيامة لا ريب فيه ، ولا شك فيه مع النظر فى الدليل والعلم ؛ فإذا خلق الله تعالى الرين على القلب كان الشك . قال الله تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله هو الحق وأنه يُحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور** ﴾ (٥) .

---

(١) ٢٥ – ٢٦ : الفجر .
(٢) ٣١ : إبراهيم .
(٣) ٢٥٤ : البقرة .
(٤) ١٠ : فاطر .
(٥) ٦ – ٧ : الحج .

ومنها : ﴿ يوم تَبيضُّ وجوه وتسْوَدُّ وجوه ﴾ [1] !

وسيأتى بيانه إن شاء الله .

ومنها : يــوم الأذان :

دخل طاووس على هشام بن عبد الملك فقال له : اتق الله واحذر يوم الأذان ، فقال : وما يوم الأذان ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ **فأذَّنَ مؤذِّنٌ بينهم أنْ لَعنةُ الله على الظالمين** ﴾ [2] فصعق هشام !، فقال طاووس : هذا ذل الصفة ، فكيف ذل المعاينة ؟!

ومنها : يــوم الشفاعــة !

قال الله تعالى : ﴿ **من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟** ﴾ [3] وقال تعالى : ﴿ **ولا يشفعون إلا لمن ارتضى** ﴾ [4] وقال : ﴿ **ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له** ﴾ [5] . وقال : ﴿ **فما لنا من شافعين** ﴾ [6] . وسيأتى بيانه .

ومنها : يــوم العَــرق !

وسيأتى بيانه فى أحاديث فى الباب بعد هذا بحول الله وقوته .

ومنها : يوم القلق والجَوَلان !

وهو عبارة عن عدم الاستقرار والثبوت . يقال : قلق الرجل يقلق قلقا : إذا لم يستقر ، ومثله : جال يجول – إذا لم يثبت .

---

(١) ١٠٦ : آل عمران .
(٢) ٤٤ : الأعراف .
(٣) ٢٥٥ : البقرة .
(٤) ٢٨ : الأنبياء .
(٥) ٢٣ : سبأ .
(٦) ١٠٠ : الشعراء .

ومنها : يوم الفـــرار !

قال الله تعالى : **﴿ يوم يَفِرُّ المرءُ من أخيه * وأمِّه وأبيه * وصاحبتِهِ وبنيه ﴾** [1] فيفر كل واحد من صاحبه حذرا من مطالبته إياه : إما لما بينهم من التبعات ، أو لئلا يروا ما هو فيه من الشدة .

وقال عبد الله بن طاهر الأبهرى : يفر منهم لما يتبين له من عجزهم وقلة حيلتهم إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه ، ولو ظهر لك ذلك فى الدنيا لما اعتمد شيئا سوى ربه تعالى .

وقال الحسن : أول من يفر يوم القيامة من أبيه – إبراهيم . وأول من يفر من ابنه – نوح ، وأول من يفر من امرأته – لوط .

قال : فيرون أن هذه الآية نزلت فيهم ، وهذا فرار التبرى – نجانا الله من أهوال هذا اليوم – بحق محمد نبى الرحمة ، وصحبه الكرام البررة ، وجعلنا ممن حشر فى زمرتهم ، ولا خالف بنا عن طريقهم ومذهبهم بمنه وكرمه . آمين وصل الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

قال المؤلف : وقد سرد تسمية هذه الأيام على التوالى – من غير تفسير – غير واحد من العلماء منهم :

* ابن نجاح فى سبل الخيرات .

* وأبو حامد الغزالى – فى غير موضع من كتبه – كالإحياء وغيره .

* والقتبى فى كتاب عيون الأخبار .

* وهذا تفسيرها حسب ما ذكره القاضى أبو بكر بن العربى فى سراج المريدين ، وربما زدنا عليه فى ذلك . والحمد لله على ذلك .

* ولا يمتنع أن تسمى بأسماء غير ما ذكرنا بحسب الأحوال الكائنة فيه من الازدحام ، والتضايق ، واختلاف الأقدام ، والخزى ، والهوان ، والذل ،

---

(١) ٣٤ – ٣٦ : عبس .

والافتقار ، والصَّغار والانكسار ، ويوم الميقات والمرصاد إلى غير ذلك من الأسماء وسيأتى التنبيه على ذلك إن شاء الله بعد هذا .

* * *

بـــــاب

ما يَلْقَى الناسُ فى الموقف من الأهوال العظام والأمور الجسام

جمع الخلائق فى الموقف فى ذلة وخضوع !

قال المحاسبى فى كتاب (التوهم والأهوال) : يحشر الله الأمم من الإنس والجن عراة أذلاء قد نزع الملك من ملوك الأرض ، ولزمهم الصَّغار (١) بعد عتوهم ، والذلة بعد تجبّرهم على عباد الله فى أرضه .

ثم أقبلت الوحوش من أماكنها منكسةً رءوسها بعد تَوَحُّشِها من الخلائقِ وانفرادها – ذليلةً من هول يوم النشور ، من غير ريبةٍ ولا خَطِيَّةٍ أصابتها حتى وقفت من وراء الخلق بالذلة والانكسار ؛ لذلك الجبار !

وأقبلت الشياطين بعد تمردها وعتوها خاضعة ذليلة للعرض على الملك الديان .

انفطار السماء وانشقاقهـا !!

حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامِّها ، تناثرت نجوم السماء من فوقهم ، وطُمِست الشمس والقمر ؛ فأظلما عليهم ، ومارت (٢) سماء الدنيا من فوقهم ، فدارت من فوقهم بعظمها فوق رءوسهم ، وجميع ذلك بعينك ، وعين أهل الموقف ، ينظرون إلى هوله ، ثم انشقت فوق رءوسهم ، وهى خمسمائة عام ؛ فيا هول صوت انشقاقها فى سمعهم ، وتمزقت وتفطرت لهول يوم القيامة من عظم يوم الطامَّة ، ثم ذابت حتى صارت مثل الفضة المذابة كما

---

(١) الصَّغار : الضيم والذل والهوان سمى به لأنه يصغر إلى الإنسان نفسه بعد العتو والتجبر فى الأرض .

(٢) مارت : اضطربت ، وتموجت بسرعة .

قال الجبار تبارك وتعالى : ﴿ **فإذا انشقت السماء فكانت وردَةً كالدهان** ﴾ [1] . وقال : ﴿ **يوم تكون السماء كالمُهْلِ ، وتكون الجبال كالعهن** ﴾ [2] . أى : كالصوف المنفوش ، وهو أضعف الصوف !

فزع الخلائق لهبوط الملائكة وإحداقهم بهم !!

وهبطت الملائكة من حافاتها إلى الأرض بالتقديس لربها ، فتَوهَّمْ انحدارهم من السماء لعظم أجسامهم ، وكثرة أخطارهم ، وهول أصواتهم ، وشدة فرقهم [3] من خوف ربهم ، فَتَوَهَّمْ فزَعَك حينئذ ، وفزع الخلائق لنزولهم مخافة أن يكونوا قد أُمِروا بهم ، فأخذوا مصافهم محدقين بالخلائق ، منكسى رءوسهم ؛ لعْظيم هول يومهم ، قد تسربلوا [4] أجنحتهم ، ونكسوا رءوسهم بالذلة والخضوع لربهم ، وكذلك ملائكة كل سماء ، إلى السماء السابعة ، قد أضعف أهل كل سماء على أهل السماء الذين قبلهم فى العدة ، وعظم الأجسام ، والأصوات .

دُنُوّ الشمس من الرءوس حيث لا ظل إلا ظله !

حتى إذا وافى الموقف أهل السموات السبع ، والأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين ، ثم أدنيت من الخلائق قاب قوسين أوٍ قوس [5] ؛ فلا ظلَّ ذلك اليوم إلا ظلَّ عرش الرحمن ، فمن بينِ مستظلٍّ بظلِّ العرش ، وبين مُضْحٍ بحر الشمس قد صهرته ، واشتد فيها كربه ، وأقلقته !

---

(١) ٣٧ : الرحمن ، وكانت وردة : أى كان لونها أحمر ، وكالدهان : كالدهن فى إشراق لونه .

(٢) ٨ ، ٩ : المعارج . وكالمهل : مثل عكر الزيت . أو الشىء المذاب .

(٣) الفرَق : الفزع والخوف .

(٤) تسربلوا : لبسوا وجعلوها غطاء لهم والسربال كل ما يلبس .

(٥) قاب قوسين أو قوس : القاب ما بين مقبض القوس والسية ، ولكل قوس قابان .
والسيّة (مخففة الياء) ما عطف من طرف القوس والجمع سيات .
والمقصود أن الشمس تقترب من الرءوس بمقدار قابى القوس .

ازدحام الأمم واشتداد العرق والعطش !

وقد ازدحمت الأمم ، وتضايقت ، ودفع بعضها بعضا ، واختلفت الأقدام ، وانقطعت الأعناق من العطش ، قد اجتمع عليهم فى مقامهم حر الشمس ، مع وهج أنفاسهم ، وتزاحم أجسامهم ففاض العرق منهم على وجه الأرض ، ثم على أقدامهم ، ثم على قدر مراتبهم ومنازلهم عند ربهم من السعادة والشقاء :

فمنهم من يبلغ العرق منكبيه ، وحَقْوَيه (١) !

ومنهم إلى شحمة أذنيه !

ومنهم من ألجمه العرق فكاد أن يغيب فيه !

رأى القرطبى فيما ذكره المحاسبى :

قلت : ذكر المحاسبى وغيره : أن انفطار السماء ، وانشقاقها بعد جمع الناس فى الموقف ، وقد قدمنا أن ذلك يكون قبل ذلك ، وهو ظاهر القرآن كما ذكرنا . والله أعلم ، وقد جاء ذلك مرفوعا فى حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - وقد تقدم .

وما ذكره المحاسبى مروى عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : « إذا كان يوم القيامة ، مُدت الأرض مد الأديم (٢) ، وزيد فى سعتها كذا ، وكذا ، وجمع الخلائق بصعيد واحد : جنهم وإنسهم ، فإذا كان ذلك قبضت هذه السماء عن أهلها ، فينتشرون على وجه الأرض ، فلأَهلُ (٣) السماءِ أكثر من أهل جميع الأرض جنهم وإنسهم بالضعف ... » الحديث [ذكره ابن المبارك فى رقائقه] .

---

(١) الحقوين : مثنى حَقْو بفتح الحاء وسكون القاف وهو موضع شد الإزار وهو الخاصرة . ويسمون الإزار الذى يشد على العورة حَقْواً .

(٢) الجلد المدبوغ ويكون أملس ليس به تعاريج أو غضون .

(٣) دخول اللام المفتوحة على كلمة أهل السماء يفيد تأكيد الكلام بعدها ، وفى القرآن : ﴿ لَيُوسفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا ﴾ .

قال : أخبرنا عوف عن أبى المنهال سيار بن سلامة الرياحى قال : أخبرنا شهر بن حوشب . قال : حدثنى ابن عباس . فذكره .

قال ابن المبارك : وأخبرنى جويبر عن الضحاك قال :

« إذا كان يوم القيامة ، أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها ، فتكون الملائكة على حافاتها ، حتى يأمر الرب فينزلون إلى الأرض ، فيحيطون بالأرض ، ومن فيها ثم يأمر السماء التى تليها ، فينزلون إلى الأرض ، فيحيطون بالأرض ومن فيها ، ثم يأمر السماء التى تليها ، فينزلون فيكونون صفا خلف ذلك الصف ، ثم السماء الثالثة ، ثم الرابعة ، ثم الخامسة ، ثم السادسة ، ثم السابعة فينزل الملك الأعلى فى بهائه وجلاله وملكه ، وبجنبته اليسرى جهنم ، فيسمعون زفيرها وشهيقها ، فلا يأتون قطرا من أقطارها إلا وجدوا صفوفا قياما من الملائكة ؛ فذلك قول الله تعالى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان** ﴾ [1] والسلطان : العذر . وذلك قول الله عز وجل : ﴿ **وجاء ربُّك والملك صفا صفا** ﴾ [2] . وقال : ﴿ **وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، والمَلَك على أرجائها** ﴾ [3] . يعنى على حافاتها ، يعنى بأرجائها : ما تشقق منها ، فبينما هم كذلك إذْ سمعوا الصوت فأقبلوا إلى الحساب » . قلت : ولا يصح إسنادهما ؛ فإن شهرا ، وجويبرا قد تُكُلِّم فيهما ، وضعفوهما ، قال البخارى – فى التاريخ – : جويبر بن سعيد البلخى عن الضحاك قال لى : قال يحيى : كنت أعرف جويبرا بحديثين ، ثم أخرج هذه الأحاديث بعد فضعفه .

وأما شهر – فقال مسلم : – فى صدر كتابه – سئل ابن عوف عن حديث شهر وهو قائم على أُسْكُفَّةِ [4] الباب ، فقال : إن شهرا تركوه .. إن

---

(١) الرحمن : ٣٣ .

(٢) الفجر : ٢٢ .

(٣) الحاقة : ١٦ ، وبعض الآية ١٧ ، والأرجاء : الجوانب والنواحى جمع رَجاً .

(٤) أُسْكُفَّة الباب : قال فى المصباح . بضم الهمزة عتبته العليا ، وقد تستعمل فى السفلى . واقتصر فى التهذيب ، ومختصر العين عليها فقال : الأُسْكُفَّةُ عتبة الباب التى يوطأ عليها ، والجمع أُسكفات .

شهرا تركوه . قال مسلم : يقول أخذته ألسنة الناس ، تكلموا فيه .

وقال عنه شعبة : وقد لقيت شهرا فلم أعتد به .

وذكر أبو حامد فى كِتَاب – كشف علم الآخرة – نحوا مما ذكره المحاسبى عن ابن عباس – رضى الله عنه – والضحاك فقال : إن الخلائق إذا اجتمعوا فى صعيد واحد الأولين والآخرين أمر الجليل – جل جلاله – بملائكة سماء الدنيا أن يتولوهم؛ فيأخذ كل واحد منهم إنسانا وشخصا من المبعوثين : إنسا وجنا ووحشا وطيرا وحولوهم إلى الأرض الثانية ، وهى أرض بيضاء من فضة نورية وصارت الملائكة من وراء العالمين حلقة واحدة ؛ فإذا هم أكثر من أهل الأرض بعشر مرات !!

ثم إن الله – سبحانه وتعالى – يأمر ملائكة السماء الثانية ، فيحدقون بهم حلقة واحدة ، فإذا هم مثلهم عشرين مرة ، ثم تنزل ملائكة السماء الثالثة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة ، فإذا هم أكثر منهم ثلاثين ضعفا ، ثم تنزل ملائكة السماء الرابعة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة أكثر منهم بأربعين صفا ، ثم تنزل ملائكة السماء الخامسة ، فيحدقون من ورائهم حلقة واحدة فيكونون مثلهم خمسين مرة ، ثم تنزل ملائكة السماء السادسة ، فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة وهم مثلهم ستين مرة ، ثم تنزل ملائكة السماء السابعة ، فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة ، وهم مثلهم سبعين مرة !! والخلق تتداخل ، وتندمج ؛ حتى يعلو القدم ألف قدم لشدة الزحام ، وتخوض الناس فى العرق على أنواع مختلفة : إلى الأذقان .. وإلى الصدر .. وإلى الحقوين .. وإلى الركبتين ، ومنهم من يصيبه الرشح اليسير كالقاعد فى الحمام ، ومنهم من تصيبه البله كالعاطش إذا شرب الماء !

وكيف لا يكون القلق والعرق والأرق وقد قربت الشمس من رءوسهم ، حتى لو مد أحدهم يده لنالها ، ويضاعف حرها سبعين مرة !!

وقال بعض السلف : لو طلعت الشمس على الأرض كهيئتها يوم القيامة لأحرقت الأرض ، وذابت الصخر ، وجفت الأنهار ، فبينما الخلائق يموجون فى

تلك الأرض البيضاء التى ذكرها الله تعالى حيث يقول : ﴿ **يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض** ﴾ [1] . وهم على أنواع فى المحشر على ما تقدم فى حديث معاذ .

والملوك كالذر - كما قد ورد فى الخبر فى وصف المتكبرين ، وليس هم كهيئة الذر ، غير أن الأقدام عليهم حتى صاروا كالذر فى مذلتهم وانخفاضهم .

وقوما يشربون ماء باردا عذبا صافيا ، لأن الصبيان يطوفون على آبائهم بكئوس من أنهار الجنة يسقونهم .

القيامة كما رآها بعض السلف (مناماً)

وعن بعض السلف أنه نام فرأى القيامة قد قامت ، وكأنه فى الموقف عطشان ، وصبيان صغار يسقون الناس ، قال : فناديتهم ، ناولونى شربة !! فقال لى واحد منهم : ألك فينا ولد ؟ فقلت : لا . قال : فلا إذاً . ولهذا فضل التزويج . ولهذا الولد الساقى شروط ذكرناها فى الإحياء .

وقوم قدموا ، على رءوسهم ظل يمنعم من الحر ، وهى الصدقة الطيبة ، لا يزالون كذلك ألف عام ، حتى إذا سمعوا نقر الناقور الذى وصفناه فى كتاب الإحياء وهو بعض أسرار القرآن ، فتوجل له القلوب ، وتخشع الأبصار لعظيم نقره ، وتشتاف الرءوس من المؤمنين والكافرين يظنون أن ذلك عذاب يزداد بهم فى هول يوم القيامة ، فإذا بالعرش تحمله ثمانية أملاك ، قدم الملك منهم عشرين ألف سنة ، وأفواج الملائكة ، وأنواع الغمام بأصوات التسبيح ، لهم هَرْج عظيم ، لا تطيقه العقول ، حتى يستقر العرش فى تلك الأرض البيضاء التى خلقها الله لهذا الشأن خاصة ، فتطرق الرءوس ، وتخنس وتشفق البرايا ، وترعب الأنبياء ، وتخاف العلماء ، وتفزع الأولياء والشهداء من عذاب الله سبحانه الذى لا يطيقه شيء ؛ إذ غشاهم نور الشمس التى كانوا فى حرها فلا يزالون يموج بعضهم فى بعض ألف عام ، والجليل - سبحانه - لا يكلمهم

---

(١) ٤٨ : إبراهيم .

كلمة واحدة ! فحينئذ يذهب الناس إلى آدم فيقولون : يا أبا البشر ، الأمر علينا شديد !

وأما الكافر ، فيقول : يارب أرحنى ! ولو إلى النار ؛ من شدة ما يرى من الهول .

يقولون (لآدم) : أنت الذى خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ونفخ فيك من روحه ؛ اشفع لنا فى فصل القضاء !

وذكر أمر الشفاعة من نبى إلى نبى ، وأن ما بين إتيانهم من نبى إلى نبى - ألف عام - حتى تنتهى الشفاعة إلى نبينا محمد ﷺ على ما يأتى بيانه من أمر الشفاعة فى أحاديث . إن شاء الله تعالى .

ونحو من هذا ذكره الفقيه أبو بكر بن برجان فى كتاب - الإرشاد - له قال : إذا كان يومُ جَمْعِ الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، وكورت الشمس ، وانكدرت النجوم ، ومارت السماء فوق الخلائق مورا ، وتفطرت من عظيم هول ذلك اليوم ، وتشققت بالغمام المنزل من عليهن فوقهن ، ثم صارت وردة كالدهان ، وكشطت سماءً سماءً ، ونزلت الملائكة تنزيلا وقام الخلائق ، وطال قيامهم ، أقل ما قيل فى قيامهم مقدار أربعين عاما إلى ثلثمائة عام ، وأيًّامَّا كان ، فاليوم يسعه ! قال رسول الله ﷺ : « ما مِن صاحبِ إبلٍ ... » الحديث . وفيه : « رُدَّت عيه أولاها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » وسيأتى بكماله . وهم فى قيامهم ذلك فى الظلمة دون الجسر ، كما فى صحيح مسلم من حديث ثوبان : « عراة غرلا ، أعطشَ ما كانوا ، وأجوع ما كانوا عليه قط ! فلا يسقى ذلك اليوم إلا من سقى الله عز وجل ، ولا يطعم إلا من أطعم الله ، ولا يكسى إلا من كسى الله ، ولا يُكفَى إلا من اتكل على الله » . ومصداق ذلك من كتاب الله - عز وجل - قوله الحق : ﴿ **يوفون بالنذر** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **فوقاهم الله شرَّ ذلك اليوم** ﴾ [1] أى من إزالة

---

(١) الإنسان : ٧ - ١١ .

الجوع والعطش والعرى إلى غير ذلك من أهوال القيامة وأفزاعها على ما يأتى بيانه فى هذا الباب الذى يليه .

وروى أبو بكر بن أبى شيبه ، عن أبى معاوية عن عاصم ، عن أبى عثمان عن سلمان قال : تُعطَى الشمس – يوم القيامة حرَّ عشر سنين ! ثم تُدنى من جماجم الناس حتى تكون قاب قوسين ، قال : فيعرقون ، حتى يرشح العرق فى الأرض قامة ، ثم يرتفع حتى يغرغر الرجل . قال سلمان : حتى يقول الرجل غرغر [١] ، فإذا رأوا ما هم فيه قال بعضهم لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ائتوا أباكم آدم ، فيشفع لكم ... الحديث بطوله ، وسيأتى مرفوعا من حديث أبى هريرة ، وأخرجه ابن المبارك قال : أنبأنا سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى عن سلمان قال : تُدنى الشمس من الناس يوم القيامة ، حتى تكون من رءوسهم قاب قوسين ، فتعطى حر عشر سنين ، وليس على أحد يومئذ طحرية ، ولا يرى فيها عورة مؤمن ولا مؤمنة ، ولا يضر حرها يومئذ مؤمنا ولا مؤمنة !

وأما الآخرون – أو قال الكفار – فتطبخهم طبخا ؛ فإنما تقول أجوافهم : غِقْ .. غِقْ [٢] .

قال نعيم : الطحرية : الخرقة ، وأخرجه هناد بن السرى ، حدثنا قبيصة عن سفيان عن سليمان التيمى فذكره سواء إلا أنه قال : ولا يجد حرها – بدل – ولا يضر .

وقال : وأما الكافر – أو الآخرون – فتطبخهم طبخا ، حتى يسمع لأجوافهم : غق غق .

وروى مسلم بن سليم بن عامر عن المقداد بن الأسود – رضى الله عنه – قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق

---

(١) غرغر : جاد بنفسه عند الموت .

(٢) غِق . غِق : قال فى القاموس هى حكاية صوت الغليان . وهى بكسر الغين .

حتى تكون منهم كمقدار ميل » ، قال سليم بن عامر ، فو الله ما أدرى ما يعنى بالميل – أمسافة الأرض أو الميل الذى تكحل به العين ؟!

قال : « فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاما » ، قال : وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه . وأخرجه ورواه الترمذى – وزاد بعد قوله : تكحل به العين ، فتصهرهم الشمس .

وذكر ابن المبارك : أخبرنا ملك بن مغول عن عبيد الله بن العيزار قال : إن الأقدام يوم القيامة مثل النبل فى القرن ، والسعيد الذى يجد لقدميه موضعا يضعهما عليه ، وإن الشمس تدنى فى رءوسهم – إما قال : ميلا أو ميلين – ثم يزاد فى حرها بضعة وستون ضعفا ، وعند الميزان ملك إذا وزن العبد ، نادى : ألا إن فلان ابن فلان قد ثقلت موازينه ، وسعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا ، ألا إن فلان ابن فلان قد خفت موازينه وشقى شقاء لا يسعد بعده أبدا .

ما رواه مسلم والبخارى والترمذى فى العرق :

روى مسلم عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « إن العرق يوم القيامة ليذهب فى الأرض سبعين باعا . وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس ، أو آذانهم » – يشك ثور أيهما – قال : أخرجه البخارى .

وعن ابن عمر – رضى الله عنهما – عن النبى ﷺ : ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ [١] . قال : « يوم يقوم أحدهم فى رشحه إلى نصف أذنيه » [أخرجه البخارى والترمذى وقال : حديث صحيح مرفوعا [٢] وموقوفا] .

---

(١) ٦ : المطففين .

(٢) المرفوع : هو ما أضيف إلى النبى ﷺ من قول أو فعل ، أو تقرير أو صفة ، وسواء كان متصلا ، أو منقطعا ، أو مرسلا . ونفى الخطيب أن يكون مرسلاً . =

وروى هناد بن السرى (١) قال : حدثنا محمد بن الفضيل عن ضرار ابن مرة عن عبد الله بن المكتب ، عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال له رجل : إن أهل المدينة ليوفون الكيل ، يا أبا عبد الرحمن ، قال : وما يمنعهم أن يوفوا الكيل وقد قال الله تعالى : ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ حتى بلغ : ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ (٢) . قال : إن العرق ليبلغ أنصاف آذانهم (٣) من هول يوم القيامة وعظمه .

وخرج الوائلى من حديث ابن وهب قال : حدثنى عبد الرحمن ابن ميسرة عن أبى هانىء ، عن أبى عبد الرحمن الحيلى ، عن عبد الله ابن عمرو - رضى الله عنهما - قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ ثم قال : « كيف بكم إذا جمعكم الله عز وجل كما يجمع النبل فى الكنانة (٤) خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم » قال الوائلى : غريب ، جيد الإسناد (٥) !

وقد خرج مسلم لابن وهب ، عن أبى هانىء نفسه ، عن الحيلى ، عن عبد الله ، أحاديث ابن المبارك قال : أخبرنا الأوزاعى ، قال : سمعت بلال ابن سعيد يقول : إن للناس يوم القيامة جولة ، وهو قوله - عز وجل - :

أما الموقوف فهو ما يروى عن الصحابة ولا يتجاوز به إلى رسول الله ﷺ وهناك صور من الموقوف فى ألفاظها وشكلها لكن المدقق يرى أنها بمعنى المرفوع وأطلقوا عليها اسم المرفوع (حكما) أى أنها من الموقوف لفظا المرفوع حكما كأن يخبر الصحابى عن يوم القيامة .

(١) هنّاد بن السَّرِىّ : بكسر الراء الخفيفة ، ابن مصعب التيمى ، أبو السرى الكوفى ، ثقة من العاشرة ، مات سنة ثلاث وأربعين ، وله إحدى وتسعون سنة [تقريب التهذيب ٣٢١ / ٢] .

(٢) نهاية الآية السادسة من سورة المطففين .

(٣) كناية عن كثرته وشدة الموقف .

(٤) الكنانة : وعاء النبل والجعبة التى يوضع فيها ؛ ولهذا قيل مصر كنانة الله فى أرضه أى هى مركز القوة ومستقر العدة والسلاح .

(٥) الحديث الغريب : هو ما تفرد بروايته راو واحد ، وأطلق عليه كثير من العلماء الفرد . وقد تكون الغرابة فى المتن ، وقد تكون فى الإسناد ، فغرابة المتن تكون بأن يتفرد بروايته راو واحد ، أو فى بعضه ، كما إذا زاد فيه واحد زيادة لم يقلها غيره ، أما غرابة الإسناد كما إذا كان أصل الحديث محفوظا من وجه آخر أو وجوه ، ولكنه بهذا الإسناد غريب .

﴿ **يقول الإنسان يومئذ أين المفر ؟** ﴾ [1] وقوله : ﴿ **ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت** ﴾ [2] .

وفى حديث جويبر عن الضحاك ؛ فينزل المَلَكُ ومجنبته اليسرى جهنم فيسمعون زفيرها وشهيقها ، فلا يأتون قطرا من أقطارها إلا وجدوا صفوفا قياما من الملائكة فذلك قوله : ﴿ **يا معشرَ الجنِ والإنس إن استطعتم أن تنفُذوا من أقطارِ السموات والأرض فانفُذوا لا تنفذون إلا بسلطان** ﴾ [3] . والسلطان : العذر .

وقال رسول الله ﷺ : « خوفنى جبريل من يوم القيامة حتى أبكانى ! فقلت : يا جبريل : ألم يغفر لى ربى ذنبى : ما تقدم ، وما تأخر ؟! فقال لى : يا محمد ، لتَشهدَنَّ من هول ذلك اليوم ما ينسيك المغفرة » . [ذكره أبو الفرج بن الجوزى – رحمه الله .

فصل

حر الشمس .. ومن أولئك الذين لا يضرهم ؟

قلت : ظاهر ما رواه ابن المبارك عن سلمان : أن الشمس لا يضر حرها مؤمنا ولا مؤمنة – العموم فى المؤمنين .

وليس كذلك لحديث المقداد المذكور بعده ، وإنما المراد : لا يضر حرها مؤمنا كامل الإيمان ، أو من استظل بظل عرش الرحمن كما فى الحديث الصحيح : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه » الحديث . [رواه الأئمة : مالك وغيره] ، وسيأتى فى الباب بعد هذا .

وكذلك ما جاء أن المرء فى ظل صدقته ، وكذلك الأعمال الصالحة أصحابها فى ظلها إن شاء الله ، وكل ذلك من ظل العرش . والله أعلم .

---

(١) ١٠ : القيامة .
(٢) ٥١ : سبأ .
(٣) ٣٣ : الرحمن .

وأما غير هؤلاء فمتفاوتون فى العرق على ما دل عليه حديث مسلم .
قال ابن العربى : وكل واحد يقوم عرقه معه ، فيغرق فيه إلى أنصاف ساقيه وإلى جانبيه مثلا يمنة من يبلغ كعبيه ، ومن الجهة الشمال من يبلغ ركبتيه ، ومن أمامه من يكون عرقه إلى نصفه ، ومن خلفه من يبلغ العرق صدره ، وهذا خلاف المعتاد فى الدنيا ؛ فإن الجماعة إذا وقفوا فى الأرض المعتدلة أخذهم الماء أخذا واحدا ولا يتفاوتون كما ذكرنا مع استواء الأرض ، ومجاورة المحل ، وهذا مع القدرة التى تخرق العادات فى زمن الآيات !

وقال الفقيه أبو بكر بن برجان فى كتاب – الإرشاد – له : (ولا يبعدن عليك هذا – يرحمك الله – أن يكون الناس كلهم فى صعيد واحد ، وموقف سواء ، يشرب أحدهم أو بعضهم من الحوض ، ولا يشرب الغير ، ويكون النور يسعى بين يدى البعض فى الظلمات مع قرب المكان ، وازدحام الناس ، ويكون أحدهم يغرق فى عرقه ، حتى يلجمه ، أو يبلغ منه عرقه ما شاء الله جزاء لسعيه فى الدنيا والآخرة فى ظل العرش على قرب المكان والمجاورة .

كذلك كانوا فى الدنيا ، يمشى المؤمن بنور إيمانه فى الناس ، والكافر فى ظلام كفره ، والمؤمن فى وقاية الله وكفايته ، والكافر والعاصى فى خذلان الله ، وعدم العصمة ، والمؤمن السنى يكرع فى سنة رسول الله ﷺ ويروى ببرد اليقين ويمشى فى سبل الهداية بحسن الاقتداء ، والمبتدع عطشان إلى ما روى المؤمن به حيران لا يشعر سالك فى مسالك ضلالات البدع وهو لا يدرى ؛ كذلك فى الوجود الأعمى لا يجد نور بصر البصير ، ولا ينفعه دواء ، إنما هى بواطن ظهرت وظواهر بطنت فتشعر لذلك ، وتفطن . واستعن بالله يعنك ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

وقال أبو حامد : واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب فى سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد [1] فى قضاء حاجة مسلم ، وتحمل مشقة فى أمر بمعروف أو نهى عن منكر ، فسيخرجه الحياء والخوف فى صعيد القيامة ، ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرر لعلم أن تعب العارف فى تحمل مصاعب الدنيا أهون أمرا ، وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار فى القيامة ، فإنه يوم عظيم شديد طويل مدته .

وذكر أبو نعيم عن أبى حازم أنه قال : لو نادى منادٍ من السماء : أَمِنَ أهلُ الأرض من دخول النار لحق عليهم الوجل [2] من هول ذلك الموقف ، ومعاينة ذلك اليوم .

* * *

---

(١) يقصد تكرار السعى والجهد والعمل على إنجاز وقضاء تلك الحاجة مرة بعد أخرى ، وليس التردد بمعنى التحير بين : أن يقضى الحاجة أو يتركها ؛ فذلك غير مراد هنا ألبتة .

(٢) الوجل : الخوف والفزع والرعب ، وفى القرآن : ﴿ **قالوا لا تَوْجَلْ إنا نبشرك بغلام حليم** ﴾ [٥٣ : الحجر] .

بـــاب
ما ينجى من أهوال يوم القيامة ومن كربهـا !!

١ - أعمال خاصة تنجى من أهوال خاصة :

روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من نفَّس عن مسلم كُربةً من كُرب الدنيا نَفَّسَ الله عنه كربةً من كُرَب يوم القيامة ... » . وذكر الحديث .

٢ - بر الوالدين ينجى من أهوال قبض الروح :

وخرَّج الترمذى الحكيم - فى نوادر الأصول - قال : حدثنى أبى - رحمه الله - قال : حدثنا عبد الله بن نافع قال : حدثنى ابن أبى فديك ، عن عبد الرحمن بن أبى عبد الله ، عن سعيد بن المسيب ، عن عِبد الرحمن ابن سمرة - رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن فى مسجد المدينة فقال : « إنى رأيت البارحةَ عجبا !! رأيت رجلا من أمتى جاء ملَكُ الموت ؛ ليقبضَ روحَه ، فجاءه برُّه بوالديه ، فرد عنه » .

٣ - الوضوء ينجى من عذاب القبر :

ورأيت رجلا من أمتى قد بسط عليه عذاب القَبر ، فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك .

٤ - ذكر الله ينجى من احتواش الشياطيـن :

ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الشياطين [١] فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم .

---

(١) احتوشته الشياطين : أحاطوا به ، واحتوش القوم بالصيد أحاطوا به . [المصباح المنير / ٢١٤] .

٥ – الصلاة تنجى من احتواش ملائكة العذاب :

ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته ، فاستنقذته من أيديهم .

٦ – الصيام ينجى من شدة العطش :

ورأيت رجلا من أمتى يلهث عطشا كلما ورد حوضا مُنِعَ منه فجاءه صيامُه فسقاه وأرواه .

٧ – الاغتسال من الجنابة ينجى من الطرد والحرمان :

ورأيت رجلا من أمتى – والنبيون قعود حلقا حلقا – كلما دنا لحلقه طردوه ، فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذ بيده ، وأقعده بجنبى .

٨ – الحج والعمرة ينجيان من الظلمة المحيطة :

ورأيت رجلا من أمتى ، من بين يديه ظُلمة ، ومن خلفه ظلمة ، وعن يمينه ظلمة ، وعن شماله ظلمة ، ومن فوقه ظلمة ، ومن تحته ظلمة ، فهو متحير فيها ، فجاءته حَجَّتُهُ ، وعمرته فاستخرجاه من الظلمة ، وأدخلاه فى النور .

٩ – صلة الرحم تنجى من مقاطعة المؤمنين لصاحبها :

ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين فلا يكلمونه ، فجاءته صلةُ الرحم فقالت : يا معشرَ المؤمنين ، كلّموه ، فكلموه .

١٠ – الصدقة تنجى من شرر النار ووهجها :

ورأيت رجلا من أمتى يتقى شرر النار ووهجها بيده عن وجهه ، فجاءته صدقتُه فصارت سترا على وجهه ، وظلا على رأسه .

١١ – الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ينجى من أخذ الزبانية :

ورأيت رجلا من أمتى ، قد أخذته الزبانية [١] من كل مكان ، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، فاستنقذه من أيديهم وأدخلاه مع ملائكة الرحمة .

١٢ – حسن الخلق ينجى من الحجب عن الله :

ورأيت رجلا من أمتى – جاثيا على ركبتيه – بينه وبين الله حجاب ! فجاءه حسن خلقه ، فأخذ بيده ، فأدْخله على الله .

١٣ – الخوف من الله ينجى من هُوِىّ الصحيفة من قبل الشمال :

ورأيت رجلا من أمتى قد هوت صحيفته من قِبَل شماله ، فجاءه خوفه من الله تعالى ، فأخذ صحيفته ، فجعلها فى يمينه .

١٤ – الأفراط يثقلون الميزان :

ورأيت رجلا من أمتى قد خف ميزانه ، فجاءته أفراطه [٢] ، فثقَّلوا ميزانه .

١٥ – الوجل من الله ينقذ من التردى فى جهنم :

ورأيت رجلا من أمتى قائما على شفير جَهنَّم ، فجاءه وَجَله من الله فاستنقذه من ذلك ، ومضى .

١٦ – البكاء من خشية الله ينقذ من النار ويخرج صاحبه منها :

ورأيت رجلا من أمتى هوى فى النار ، فجاءته دموعه التى بكى من من خشية الله فى الدنيا ، فاستخرجته من النار .

---

(١) الزبانية : سموا بهذا الاسم ، لأنهم يدفعون أهل النار إليها لأن الزَّبن فى اللغة هو الدفع ، وقيل حرب زبون ؛ لأنها تدفع عن الإقدام خوف الموت .

(٢) الأفراط : جمع فَرَط وهو المتقدم فى طلب الماء ليقوم بتهيئة أدوات السقيا لقومه ، ويقال للطفل الميت : (اللهم اجعله لنا فرطا) . أى أجراً متقدما يسبقنا ويتلقانا .

١٧ - حسن الظن بالله ينجى من الرعدة على الصراط :

ورأيت رجلا من أمتى - قائما على الصراط يرعد كما ترعد السعفة - فجاءه حسن ظنه بالله ، فسكن رعده ومضى .

١٨ - الصلاة على النبى ﷺ تأخذ بيد صاحبها على الصراط ، وتنجيه من الزحف والحبو :

ورأيت رجلا من أمتى على الصراط - يزحف أحيانا ، ويحبو أحيانا - فجاءته صلاته على ، فأخذت بيده ، ومضى على الصراط .

١٩ - شهادة أن لا إله إلا الله تفتح أبواب الجنة التى غُلِّقت :

ورأيت رجلا من أمتى - انتهى إلى أبواب الجنة فغُلِّقَت الأبواب دونه - فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ، فَفَتَّحتْ له الأبواب وأدخلته الجنة » .

قلت : هذا حديث عظيم ، ذكر فيه : أعمالا خاصة تنجى من أهوال خاصة . والله أعلم .

وقد ينجى منها كل ما ثبت فى صحيح مسلم : عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال :

٢٠ - التجاوز عن المعسر أو إنظاره ، أو التنفيس عنه :

قال رسول الله ﷺ : « حوسب رجلٌ مِمَّن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيءٌ إلا أنه كان يخالطُ الناس ، وكان موسرًا ، فكان يأمر غلمانَه أن يتجاوزوا عن المعسر . قال : قال الله عز وجل : « أنا أحقُّ بذلك منه ؛ تجاوَزوا عن عبدى » .

وخرج عن حذيفة عن النبى ﷺ أن رجلا مات ، فدخل الجنة ، فقيل له : ما كنت تعمل ؟ فقال : إنى كنت أبايع الناس ، فكنت أُنظِر المعْسِر [١] ،

---

(١) أُنظِرُ المعسَرَ : انتظر عليه حتى تتحول حاله إلى اليسار ، وفى القرآن : ﴿ **فنظِرة إلى ميسرة** ﴾ وهذا من أخلاق الإسلام فى المعاملات .

وأتجاوز في السكة ، أو في النقد ، فغفر له . فقال أبو مسعود – رضى الله عنه – : وأنا سمعته من رسول الله ﷺ . [رواه مسلم من طرق ، وخرجه البخارى] .

وروى مسلم عن أبى قتادة – رضى الله عنه – أنه طلب غريما [1] له فتوارى عنه ، ثم وجده فقال : إنى معسر . قال : آللَّهِ . فقال : آللَّهِ . قال : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سرَّه أن يُنَجِّيَهُ الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر ، أو يضَعَ عنه » [2] .

وعن أبى اليسر - واسمه كعب بن عمرو – رضى الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من أنظر معسرا ، أو وضع عنه أظله الله فى ظله » [خرجه مسلم] .

وقال أنس بن مالك – رضى الله عنه – : « من أنظر مديونا فله بكل يوم عند الله وزن أُحَد ، ما لم يطلبه » .

٢١ – وهناك سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه :

وروى الأئمة عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه :

١ – الإمام العادل .

٢ – وشاب نشأ فى عبادة الله .

٣ – ورجل قلبه معلق بالمساجد .

٤ – ورجلان تحابَّا فى الله ، اجتمعا عليه ، وتفرقا عليه .

٥ – ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله !

---

(١) الغزيم : من عليه الدين .

(٢) نفس الله كربته تنفيسا كشفها ، ووضع دينه أسقطه عنه .

٦ - ورجل تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه .

٧ - ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » .

(ومعْنى فى ظله : أى فى ظل عرشه ، وقد جاء هكذا تفسيرا فى الحديث) .

٢٢ - إشباع الجائع ، وكسوة العريان ، وإيواء المسافر تُعيذُ صاحبَها من الأهوال !

وروى أبو هدبة إبراهيم بن هدبة قال : حدثنا أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أشبع جائعا ، وكسا عُريانا وآوى مسافرا ، أعاذه الله من أهوال يوم القيامة » .

٢٣ - تقديم لقمة الحلوى لأخيك يصرف عنك مرارة الموقف :

وخرج الطبرانى سليمان بن أحمد عن يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من لقم أخاه لقمة حلواء صرف الله عنه مرارة الموقف يوم القيامة » .

٢٤ - ما جاء فى التنزيل تحقيقا لهذا الباب وجامعا له :

وفى التنزيل تحقيقا لهذا الباب ، وجامعا له ، قوله الحق : ﴿ **يوفون بالنذر** ﴾ [١] إلى قوله : ﴿ **فوقاهم الله شر ذلك اليوم** ﴾ [٢] مع قوله : ﴿ **إنا لا نُضيعُ أجر من أحسن عملا** ﴾ [٣] ومع قوله - فى غير موضع - بعد ذكر الأعمال الصالحة : ﴿ **فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ [٤] .

* * *

---

(١) ٧ : الدهر .
(٢) ١١ : الإنسان .
(٣) ٣٠ : الكهف .
(٤) ٣٨ : البقرة .

بـــــاب
من الذنوب ما لا يكفـره إلا الهموم فى طلب العيش

ذكر أبو نعيم – الحافظ – قال : حدثنا سليمان بن أحمد قال : حدثنا أحمد بن يحيى بن خالد قال : حدثنا محمد بن سلام قال : حدثنا يحيى بن بكير قال : حدثنا مالك عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الصلاة ، ولا الصوم ، ولا الحج ، ولا العمرة » ! قال : وما يكفرها يا رسول الله ؟ قال : « الهموم فى طلب المعيشة » [١] .

قال أحمد بن يحيى : فقلت : كيف سمعت هذا من يحيى بن بكير فلم يسمعه أحد غيرك ؟ قال : كنت عند يحيى جالسا فجاءه رجل ، فذكر ضعفه ، فقال : قال ابن بكير : حدثنا مالك فذكره .

* * *

---

(١) وهذا الحديث يلقى الضوء على نظرة الإسلام للعمل والكفاح فى طلب المعيشة ، والسهر على من يرعى ، وحتى اللقمة يضعها الرجل فى فم امرأته ، يثاب عليها ... فبشراكم يا من تحملون الهموم فى طلب المعيشة .

الباب الرابع

الشفاعة والمقام المحمود بين يدى الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيــوم ...
لا تأخذه سِنةٌ ولا نــوم ...
له ما فى السموات وما فى الأرض ...
من ذا الذى يَشفع عنده إلا بإذنِــه ؟!!
يعلمُ ما بين أيديهم وما خَلْفَهم ...
ولا يُحيطون بشىءٍ من علِمه إلا بما شاء ...
وسع كرسِيُّهُ السمواتِ والأرضَ ...
ولا يئوده حَفظهمـا ...
وهو العلى العظـيم .... ﴾

[آية الكرسى : ٢٥٥ – البقرة]



بين يدى هذا البــاب

وعندما يبلغ الغم والكرب بالناس ما لا يطيقون ولا يحتملون ، تتطلع نفوسهم إلى المنقذ والمخلص والشفيع ... وليس من يرقى – فى نظرهم – إلى هذه المنزلة إلا المصْطَفَون الأخيار من أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . من عهد آدم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين !

ويعرض الإمام القرطبى ذلك الحوار الرائع الممتع بينهم وبين الأنبياء حتى يصلوا إلى عيسى – عليه السلام – فيدلهم على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ .

ويتساءل القرطبى عن سر هذه الشفاعة وهدفها ، ثم يلقى الضوء على آراء العلماء فى المراد « بالمقام المحمود » ولا يفوته – وهو صاحب التذكرة – أن يصور طبقات الناس وأنواعهم بحسب جرائمهم لعلنا نتعظ ونعتبر قبل أن تمضى الأيام وينتهى الأجل !

وإذا كنا نعيش مع القرطبى أحداث « يوم الفزع الأكبر » فإننا نراه قد أفرد فصلا خاصا يحدثنا فيه عن فزعات ثلاث !!

وأخيرا يحدثنا عما يقوم به نبينا ﷺ من شفاعات لنا مبينا من يشفع للكافرين ؟ ثم يحدثنا عن أسعد الناس بشفاعة المصطفى ﷺ وربما يوحى اعتذار الأنبياء عن الشفاعة بما لهم من ذنوب فى نفس المسلم ما قد يراه ماسًّا بعصمتهم أو يفتح بابا لخواطر لا تليق بهم ؛ لهذا نراه لا يختم هذا الباب حتى يعقد فصلا كاملا حول عصمة الأنبياء ، وهل تقع منهم صغائر لا تزرى بفاعلها بعد النبوة ؟

يعرض ذلك كله فى أمانة ونزاهة ودقة علمية متناولا آراء القدامى والمحدثين مما يشفى نفوس الظامئين إلى علم لا تشوبه أباطيل المخرفين ولا أكاذيب الوضاعين !!

نسأل أن يجعلنا ممن تنفعهم شفاعة الشافعين وليسوا عن التذكرة معرضين !!

* * *

بـــاب

الشفاعـة العامـة لنبينـا ﷺ

روى مسلم عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : أُتى النبى ﷺ يوما بلحم فرفع إليه الذراع ، وكانت تعجبه ، فنهس [1] منها نهسَة فقال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وهل تدرون بم ذاك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، فيُسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : ائتوا آدم .

طلب الشفاعة من آدم ورده :

فيأتون آدم ، فيقولون : يا آدم ، أنت أبونا أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟! ألا ترى ما قد بلغنا ؟! فيقول آدم : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته [2] !.. نفسى .. نفسى ، اذهبوا إلى نوح .

طلب الشفاعة من نوح – عليه السلام – ورده عليهم :

فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى الأرض ، وسماك الله عبدا شكوراً ، اشفع لنا إلى ربنا ، ألا ترى ما نحن فيه ؟! ألا ترى ما قد بلغنا ؟! فيقول لهم نوح : إن ربى قد غضب اليوم غضبا شديدا لم يغضب قبله مثله ،

---

(١) نهس : قيل إن النهس بالسين المهملة يكون بأطراف الأسنان أما النهش بالشين فهو تناول بالأسنان وبالأضراس مع القبض على اللحم ونثره .

(٢) وقد جاء القرآن بهذا : ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى** ﴾ [١٢١ : طه] .

ولن يغضب بعده مثله . **وإنه** قد كانت لى دعوة دعوت بها على قومى [1] . نفسى .. نفسى . **اذهبوا إلى** إبراهيم .

طلب الشفاعة من إبراهيم عليه السلام ورده عليهم :

فيأتون إبراهيم ، فيقولون : يا إبراهيم ، أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ؛ ألا ترى ما نحن فيه ؟! ألا ترى ما قد بلغنا ؟! فيقول لهم إبراهيم : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وذكر كذباته [2] ، نفسى .. نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى موسى .

طلب الشفاعة من موسى – عليه السلام – ورده عليهم :

فيأتون موسى – عليه السلام – فيقولون : يا موسى ، أنت رسول الله فضلك الله برسالته وبتكليمه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟! ألا ترى ما قد بلغنا ؟! فيقول لهم موسى : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها [3] ! نفسى .. نفسى . اذهبوا إلى عيسى فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى ، أنت رسول الله ، وكلّمت الناس فى المهد ، وكَلِمةٌ من الله ألقاها إلى مريم وروح منه ، فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟! ألا ترى ما قد بلغنا ؟! فيقول لهم عيسى : إن ربى قد غضب اليوم غضبا شديدا لم يغضب

---

(١) إشارة إلى قوله فى سورة نوح الآية رقم ٢٦ : ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين دَيَّارا** ﴾ .

(٢) إشارة إلى قوله فى معرض استدراج قومه إلى معرفة الإله الحق حين رأى كوكبا قال : ﴿ **هذا ربى** ﴾ ﴿ **فلما أفل قال** : **لا أحب الآفلين** ﴾ وهكذا قال عن القمر والشمس ليصل بهم إلى الخالق آتيا لهم بسلطان مبين .

(٣) إشارة لما جاء فى القرآن فى سورة القصص الآية ١٥ ﴿ **فوكزه موسى فقضى عليه** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا** ﴾ [٤٠ : طه] .

قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله !! (ولم يذكر ذنبا)[1] نفسى .. نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى محمد ﷺ .

طلب الشفاعة من خاتم النبيين ﷺ :

فيأتون ، فيقولون : يا محمد ، أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخرّ[2] ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟! فأنطلق ، فآتى تحت العرش ، فأقع ساجدا لربى ، ثم يفتح الله على ، ويلهمنى من محامده ، وحسن الثناء عليه ، شيئا لم يفتحه لأحد غيرى من قبلى ، ثم قال :

« يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تُعْطَهْ ، واشفع تُشَفَّعْ » فأرفع رأسى فأقول : « يارب ، أمتى .. أمتى ، فيقال : يا محمد ، أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة . وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب . والذى نفس محمد بيده ، إن ما بين المصراعين[3] من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر[4] ، أو كما بين مكة وبُصرى »[5] . وفى البخارى : كما بين مكة وحمير[6] .

* * *

---

(١) لعله ما تشير إليه الآية : ﴿ **أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك** ﴾ ويؤيده ما جاء عن أبى سعيد الخدرى بصدد اعتذار عيسى عليه السلام عن الشفاعة قائلا : (إنى عبدت من دون الله) .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى فى أول سورة الفتح : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما** ﴾ ﷺ .

(٣) المصراعين : لكل باب مصراعان يفتتحان أو يغلقان ، وقد يغلق أحدهما ويفتح الآخر وتسميه العامة : (ضلفة) بدلا من المصراع .

(٤) هَجَر : بفتحتين بلد بقرب المدينة يذكر ويؤنث ، فإن ذكر صرف وإن أنث منع من الصرف ، وإليه تنسب القلال على لفظها فيقال : هَجَرية ، وقلال هجر بالإضافة إليها .

وهجر أيضا من بلاد نجد والنسبة إليها هاجرى فرقا بين البلدين وقد أطلقت على الإقليم وهو المراد بالحديث : أنه ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر . [المصباح المنير . جزء ثان / ٨٧٢] .

(٥) بُصْرى : على وزن حُبلى بلدة بالشام .

(٦) حمير : كدرهم . موضع غربى صنعاء اليمن .

(فصل)

ما هدف هذه الشفاعة العامة لأهل الموقف ؟

هذه الشفاعة العامة التى خُصَّ بها نبينا محمد ﷺ من بين سائر الأنبياء هى المراد بقوله عليه السلام : « لكل نبى دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبى دعوته ، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى » [رواه الأئمة : البخارى ومسلم ، وغيرهما] .

الشفاعة لتعجيل الحساب والإراحة من هول الموقف :

وهذه الشفاعة العامة لأهل الموقف إنما هى ليعجل حسابهم ، ويراحوا من هول الموقف ، وهى الخاصة به ﷺ ، وقوله أقول : « يارب ، أمتى .. أمتى » اهتمام بأمر أمته ، وإظهار محبته فيهم ، وشفقته عليهم .

وقوله : فيقال : يا محمد ، « أَدخِل الجنة من أمتك من لا حساب عليه » يدل على أنه شُفِّع فيما طلب من تعجيل حساب أهل الموقف ؛ فإنه لما أمر بإدخال من لا حساب عليه من أمته ، فقد شرع فى حساب من عليه حساب من أمته وغيرهم .

إلهام من الله :

وكان طلب هذه الشفاعة من الناس بإلهام من الله تعالى لهم حتى يظهر فى ذلك اليوم مقام نبيه ﷺ المحمود الذى وعده ؛ ولذلك قال كل نبى : لست لها ، حتى انتهى الأمر إلى محمد ﷺ فقال : « أنا لها » .

وروى مسلم عن قتادة عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيهتمون لذلك . وفى رواية : « فيلهمون ، فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا . قال : فيأتون آدم » . وذكر الحديث .

وذكر أبو حامد أن بين إتيانهم من آدم إلى نوح ألف عام ، وكذا بين كل نبى إلى محمد ﷺ .

الناس فى الموقف على طبقات مختلفة ، وأنواع متباينة :

وذكر أيضا أن الناس فى الموقف على طبقات مختلفة ، وأنواع متباينة بحسب جرائمهم : كمانع الزكاة ، والغَالّ [١] ، والغادر [٢] على ما يأتى بيانه .

وآخرون قد عظمت فروجهم وهى تسيل صديدا ، يتأذى بنتنها جيرانهم .

وآخرون قد صلبوا على جذوع النيران !

وآخرون قد خرست ألسنتهم على صدورهم أقبح ما يكون ! وهؤلاء المذكورون هم الزناة واللوطية [٣] والكاذبون .

وآخرون قد عظمت بطونهم كالجبال الرواسى ، وهم آكلوا الربا ، وكل ذى ذنب قد بدا سوء ذنبه . قاله فى كتاب (كشف علوم الآخرة) . وذكر فى آخر الكتاب أن الرسل يوم القيامة على المنابر ، والأنبياء والعلماء على منابر صغار ومنبر كل رسول على قدره ، والعلماء العاملون على كراسى من نور ، والشهداء والصالحون كقراء القرآن ، والمؤذنون على كثبان من مسك ، وهذه الطائفة العاملة أصحاب الكراسى هم الذين يطلبون الشفاعة من آدم ونوح حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ .

وذكر الفقيه أبو بكر بن برجان فى كتاب (الإرشاد) له : ويلهم رءوس المحشر الطلب ممن يشفع لهم ، ويريحهم مما هم فيه ، وهم رؤساء أتباع الرسل . فيكون ذلك .

* * *

---

(١) الغالّ : الخائن ، وفى القرآن : ﴿ **ومن يغلل يأت بما غلَّ يوم القيامة** ﴾ ويكون الغلول من الغنيمة أو الفيء حيث يؤثر نفسه ويحول دون وصول الحق إلى أصحابه .

(٢) الغادر من ليس وفيا .

(٣) الذين يعملون مثل قوم لوط فيأتون الذكران .

بـــاب

ما جاء أن هذه الشفاعة هى « المقام المحمود »

روى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة – ولا فخر – وبيدى لواء (١) الحمد ولا فخر ، وما من نبى يومئذ : آدم ومن سواه إلا تحت لوائى ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، قال : فيفزع الناس ثلاث فزعات ، فيأتون آدم ، فيقولون : أنت أبونا ، فاشفع لنا إلى ربك ، فيقول : أنا أذنبت ذنبا ، فأهبطت به إلى الأرض . ائتوا نوحا فيقول : إنى دعوت على أهل الأرض دعوة فأُهْلِكُوا ، ولكن اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم ، فيقول : إنى كذبت ثلاث كذبات (٢) ، ثم قال رسول الله ﷺ : ما منها كذبة إلا ما حل بها عن دين الله ، ولكن ائتوا موسى ، فيأتون موسى ، فيقول : إنى قتلت نفسا ، ولكن ائتوا عيسى ، فيقول : إنى عُبِدْتُ من دون الله ، ولكن ائتوا محمداً ﷺ فيأتوننى فأنطلق معهم » . قال ابن جُدْعان : قال أنس فكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ قال : « فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : محمد ، فيفتحون لى ، ويرحبون بى ، فيقولون : مرحبا ... فأخر ساجدا لله ، فيلهمنى من الثناء والحمد ، فيقال لى : ارفع رأسك ، وسل تعط واشفع تشفع ، وقل يسمع لقولك ، وهو المقام المحمود الذى قال الله فيه : ﴿ **عسى أن يَبعثَك ربُّك مقاماً مَحمودا** ﴾ (٣) » .

قال سفيان : ليس عن أنس إلا هذه الكلمة : « فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها » قال الترمذى : حديث حسن ، وخرجه أبو داود الطيالسى بمعناه

---

(١) اللواء : العَلَم ، والراية والجمع ألوية .

(٢) حين قال هذا ربى عند رؤية كل من النجم ، والقمر ، والشمس .

(٣) ٧٩ : الإسراء .

عن ابن عباس رضى الله عنه فقال : حدثنا حماد بن سلمة ، قال : حدثنا على ابن زيد ، عن أبى نضرة قال : خطبنا ابن عباس على منبر البصرة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من نبي إلا وله دعوة كلهم قد تنجزها[1] فى الدنيا ، وإنى ادخرت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة ، ألا وإنى سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ! وأول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد تحته آدم ومن دونه ولا فخر ، ويشتد كرب ذلك اليوم على الناس فيقولون : انطلقوا بنا إلى آدم أبى البشر ، فيشفع لنا إلى ربنا عز وجل حتى يقضى بيننا » الحديث . وفيه : فيأتون عيسى – عليه السلام – فيقولون : اشفع لنا إلى ربنا ، حتى يقضى بيننا ، فيقول : إنى لست هناكم[2] ؛ إنى اتُّخِذْتُ وأمى إلهين من دون الله ، ولكن أرأيتم لو أن متاعا فى وعاء قد ختم عليه أكان يوصل إلى ما فى الوعاء حتى يفض الخاتم ؟

فيقولون : لا ، فيقول : إن محمدا ﷺ قد فضه اليوم[3] ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال رسول الله ﷺ : « فيأتينى الناس ، فيقولون : اشفع لنا إلى ربنا حتى يقضى بيننا فأقول : أنا لها حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى ؛ فإذا أراد الله أن يقضى بين خلقه نادى مناد أين محمد ﷺ وأمته ؟ فأقوم ، وتتبعنى أمتى غرا محجلين[4] من أثر الطهور » ، قال رسول الله ﷺ : « فنحن الآخرون الأولون وأول من يحاسب ، ويفرج لنا فى الأمم عن طريقنا ، ويقولون : كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها » . وذكر الحديث .

---

(١) استوفاها عاجلا فى الدنيا .

(٢) أى ليست لى هذه المنزلة .

(٣) فى النسخة الأصلية (خصه) وما أثبتناه هو المناسب للسياق .

(٤) الغرة بياض فى جبهة الفرس ، والمراد أن أثر الوضوء يظهر فى وجه أمته ﷺ إشراقا ونورا ، وكما تظهر آثار الوضوء فى الوجوه تظهر على الأرجل والأيدى فهم يبدون للرائى محجلين ، فالتحجيل بياض فى قوائم الفرس كلها ، ويكون فى رجلين ويد ، أو فى رجلين فقط ، وفى رجل فقط ولا يكون فى اليدين خاصة إلا مع الرجلين ، ولا فى يد واحدة دون الأخرى إلا مع الرجلين . [القاموس] .

وفى البخارى عن ابن عمر - رضى الله عنه - قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثِيًّا كل أمة تتبع نبيها تقول : يا فلان اشفع ، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبى ﷺ ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود .

وروى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ **عسى أن يبعثَك ربُّك مقاما محموداً** ﴾ حين سئل عنها قال : « هى الشفاعة » . قال : هذا حديث حسن صحيح .

(فصل)

فى الفزعات الثلاث

قوله : فيفزع الناس ثلاث فزعات ، إنما ذلك - والله أعلم - حين يؤتى بالنار تجر بأزمتها [1] ، وذلك قبل العرض على الملك الديان والحساب ؛ فإذا نظرتْ إلى الخلائق فارت ، وثارت ، وشهقت إلى الخلائق وزفرت نحوهم ، وتوثبت عليهم غضبا لغضب ربهم على ما يأتى بيانه فى كتاب النار إن شاء الله ، فتتساقط الخلائق حينئذ على ركبهم جثاة حولها ، قد أسلبوا الدموع من أعينهم ، ونادى الظالمون بالويل والثبور .

(٢) ثم تزفر الثانية فيزداد الرعب والخوف فى القلوب !!

(٣) ثم تزفر الثالثة ، فتتساقط الخلائق لوجوههم ، ويشخصون بأبصارهم ، وهم ينظرون من طرف خفى خوفا أن تبلغهم ، أو يأخذهم حريقها ، أجارنا الله منها .

* * *

---

(١) الأزمة : جمع زمام والزمام المقود الذى يقاد به الحيوان .. وهو تصوير لها بصورة الوحش الذى يثير الفزع والرعب بفورانها وثورانها وشهيقها وزفيرها وتوثبها عليهم غضبا لغضب الرب .

(فصـــل)

فى المراد بالمقام المحمــود

واختلف الناس فى المقام المحمود على خمسة أقوال :

الأول : أنه الشفاعة العامة للناس يوم القيامة ، كما تقدم .. قاله : حذيفة بن اليمان ، وابن عمر رضى الله عنهم .

الثانى : أنه إعطاؤه عليه السلام لواء الحمد يوم القيامة .

قلت : وهذا القول لا تنافى بينه وبين الأول ؛ فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع .

وروى الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا أيسوا (١) ، لواء الحمد بيدى ، فأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر » .

وفى رواية : « أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا ، وأنا قائدهم إذا وفدوا ، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا ، وأنا شفيعهم إذا أيسوا ، وأنا مبشرهم إذا أبلسوا (٢) ، لواء الكرم بيدى ، وأنا أكرم ولد آدم على ربى ، يطوف عَلَىَّ ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون » .

الثالث : ما حكاه الطبرى عن فِرقةٍ عن مجاهد . أنها قالت : (المقام المحمود) هو : أن يُجلِسَ الله محمدا ﷺ معه على كرسيه . وروت فى ذلك حديثا . قلت : وهذا قول مرغوب عنه . وإن صح الحديث فيتأول على أنه يجلسه مع أنبيائه وملائكته .

قال ابن عبد البر فى كتاب التمهيد : ومجاهد – وإن كان أحد الأئمة بتأويل القرآن – فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم :

---

(١) أيس ويئس بمعنى واحد : أى استولى عليهم اليأس والقنوط .

(٢) أبلس من رحمة الله : أى يئس .

أحدهما : هذا ..

والثانى : فى تأويل قوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ [1] قال : تنتظر الثواب ، وليس من النظر .

الرابع : إخراجه طائفةً من النار ..

روى مسلم عن يزيد الفقير قال : كنت قد شغفنى [2] رأى من رأى الخوارج فخرجنا فى عصابة [3] ذوى عدد نريد الحج ، ثم نخرج على الناس فمررنا على المدينة ، فإذا جابر بن عبد الله – رضى الله عنه – يحدث الناس أو القوم إلى سارية عن رسول الله ﷺ قال : وإذا هو قد ذكر الجهنميين قال : فقلت له : يا صاحب رسول الله ، ما هذا الذى تحدثون ؟ والله تعالى يقول : ﴿ **ربنا إنك من تُدخِلِ النارَ فقد أخزيته** ﴾ [4] ﴿ **كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها** ﴾ [5] فما هذا الذى تقولون ؟ فقال : أتقرأ القرآن ؟ فقلت : نعم ، فقال : فهل سمعت بمقام محمد ﷺ ؟ (يعنى : الذى يبعثه الله عز وجل فيه) قلت : نعم . قال : فإنه مقام محمد ﷺ الذى يخرج الله به من يخرج . وذكر الحديث .

وفى البخارى من حديث أنس – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ وفيه : « وقد سمعته يقول : فأخرجهم وأدخلهم الجنة حتى ما يبقى فى النار إلا من حبسه القرآن : أى وجب عليه الخلود » قال : ثم تلا هذه الآية : ﴿ **عسى**

---

(١) ٢٣ : القيامة .

(٢) أعجبنى : واستمالنى .

(٣) العصابة : الجماعة من الرجال أو من الخيل أو الطير .

(٤) ١٩٢ : آل عمران .

(٥) ٢ : السجدة .

أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾[3] قال : هو المقام المحمود الذى وعده نبيكم .

الخامس : ما روى أن مقامه المحمود : شفاعته رابع أربعة . وسيأتى .

* * *

(٣) ٧٩ : الإسراء .

(فصـــل)

فى شفاعاته عليه الصلاة والسلام وكم هى ؟

إذا ثبت أن المقام المحمود هو : أمر الشفاعة الذى يتدافعه [1] الأنبياء عليهم السلام حتى ينتهى الأمر إلى نبينا محمد ﷺ فيشفع هذه الشفاعة العامة لأهل الموقف : مؤمنهم وكافرهم ، ليُراحوا [2] من هول موقفهم ، فاعلم أن العلماء اختلفوا فى شفاعاته ، وكم هى ؟

(١) فقال النقاش : لرسول الله ﷺ ثلاث شفاعات :

العامة وشفاعة فى السبق إلى الجنة ، وشفاعة فى أهل الكبائر .

(٢) وقال ابن عطية فى تفسيره : والمشهور أنهما شفاعتان فقط : العامة ، وشفاعة فى إخراج المذنبين من النار .

وهذه الشفاعة الثانية ، لا يتدافعها الأنبياء ، بل يشفعون ، ويشفع العلماء .

(٣) قال القاضى عياض : شفاعات نبينا ﷺ يوم القيامة خمس شفاعات :

(**الأولى**) العامة .

(**الثانية**) : إدخال قوم الجنة بغير حساب .

(**الثالثة**) : فى قوم من أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع فيهم نبينا ﷺ ومن شاء أن يشفع ، ويدخلون الجنة ، وهذه الشفاعة هى التى أنكرتها المبتدعة : الخوارج والمعتزلة ؛ فمنعتها على أصولهم الفاسدة ، هى الاستحقاق العقلى المبنى على التحسين والتقبيح .

---

(١) يتدافعه : أى يدفعه كل منهم إلى غيره ، لأنه يرى أنه ليس هناك حتى ينتهى إلى محمد ﷺ .

(٢) لإراحتهم .

(**الرابعة**) : فيمن دخل النار من المذنبين ؛ فيخرج بشفاعة نبينا وغيره من الأنبياء والملائكة وإخوانهم من المؤمنين .

قلت : وهذه الشفاعة أنكرتها (المعتزلة) [1] أيضا ، وإذا منعوها فيمن استوجب النار بذنبه - وإن لم يدخلها - فأحرى أن يمنعوها فيمن دخلها .

(**الخامسة**) : فى زيادة الدرجات فى الجنة وترفيعها .

قال القاضى عياش : وهذه الشفاعة لا تنكرها المعتزلة ، ولا تنكر شفاعة الحشر الأول .

قلت : **وشفاعة** (**سادسة**) لعمه أبى طالب فى التخفيف عنه - كما رواه مسلم - عن أبى سعيد الخُدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه : أبو طالب ، فقال : « لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من نار ، يبلغ كعبيه ، يغلى منه دماغه » .

فإن قيل : فقد قال الله تعالى : ﴿ **فما تنفعهم شفاعة الشافعين** ﴾ [2] قيل له : لا تنفع فى الخروج من النار ، كعصاة الموحدين الذين يخرجون منها ، ويدخلون الجنة .

* * *

---

(١) المعتزلة : نشئوا من فريق فى جيش على ، واعتزلوا السياسة ، وقيل سموا بذلك ، لأنهم اعتزلوا مجلس الحسن البصرى وعلى رأسهم واصل بن عطاء ومن الأصول التى يقوم عليها مذهبهم : قولهم بالوعد والوعيد ، فمن خرج من الدنيا عن طاعة وتوبة يثاب ، ومن خرج من الدنيا من غير توبة يعاقب فهم يربطون الثواب والعقاب بالأعمال ربطا حتما . وقد تفرع على ذلك القول بالمنزلة بين المنزلتين فى مؤمن ارتكب كبيرة .. حيث يرى الخوارج أنه يكفر ، وقال المرجئة بتأجيل الحكم إلى يوم القيامة .

(٢) ٤٨ : المدثر .

(فصل)

فى الإجماع على عصمة الأنبياء من الكبائر ، والصغائر التى تزرى بفاعلها ، وتحط منزلته وتسقط مروءته والاختلاف فى وقوع ما عدا ذلك من الصغائر بعد النبوة

.. واختلف العلماء : هل وقع من الأنبياء – صلوات الله عليهم أجمعين – بعد النبوة – صغائر من الذنوب ، يؤاخذون بها ، ويعاتبون عليها ، ويشفقون على أنفسهم منها أم لا ؟.. بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ، ومن الصغائر التى تزرى بفاعلها ، وتحط منزلته ، وتسقط مروءته إجماعا ، عند القاضى أبى بكر ، وعند الأستاذ أبى بكر : أنّ ذلك مقتضى دليل المعجزة .

وعند المعتزلة ، أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم .

فقال الطبرى وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين : تقع الصغائر منهم خلافا للرافضة [١] ؛ حيث قالوا : إنهم معصومون من جميع ذلك كله ، واحتجوا بما وقع من ذلك فى التنزيل ، وثبت من تنصلهم من ذلك فى الحديث . وهذا ظاهر لا خفاء به .

رأى جمهور الفقهاء :

وقال جمهور من الفقهاء (من أصحاب مالك ، وأبى حنيفة ، والشافعى) : إنهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر ؛ لأنا أمرنا باتباعهم فى أفعالهم ، وآثارهم ، وسيرهم أمرا مطلقا من غير التزام قرينة ، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم ؛ إذْ ليس كل فعل من أفعالهم

---

(١) الرافضة : فرقة من فرق الضلال ، وطائفة من طوائف البدع – أعاذنا الله منها – جاءوا إلى زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب وطلبوا منه أن يتبرأ من أبى بكر وعمر حتى يكونوا معه ، فقال : بل أتولاهما وأتبرأ ممن تبرأ منهما ، فقالوا : إذاً نرفضك ، فرفضوه وارفضوا عنه فسموا الرافضة .

يتميز مقصده : من القربة ، والإباحة ، والخطر أو المعصية ، ولا يصح أن يُؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية لا سيما على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين .

رأى أبي إسحق الإسفرايني :

قال الأستاذ أبو إسحق الإسفرايني : واختلفوا فى الصغائر : والذى عليه الأكثر – أن ذلك غير جائز عليهم .

ومال بعضهم إلى تجويزها ، ولا أصل لهذه المقالة !

رأى بعض المتأخرين :

وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول :

والذى ينبغى أن يقال : إن الله – تعالى – قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ، ونسبها إليهم ، وعاتبهم عليها ، وأخبروا بها عن نفوسهم ، وتنصلوا منها واستغفروا منها وتابوا ، وكل ذلك ورد فى مواضع كثيرة ، لا تقبل التأويل جملتها – وإن قبل ذلك آحادها – وكل ذلك مما لا يزرى بمناصبهم ، وإنما تلك الأمور التى وقعت منهم : على جهة الندور [1] ، وعلى جهة الخطأ والنسيان ، أو تأويل دعا إلى ذلك ، فهى بالنسبة إلى غيرهم حسنات ، وفى حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم وعلو أقدارهم ؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس ، فأشفقوا من ذلك فى موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة ، وهذا هو الحق .

رأى الجنيد – رضى الله عنه – :

ولقد أحسن الجنيد – رضى الله عنه – حيث قال : جنات الأبرار سيئات المقربين ، فهم صلوات الله عليهم وسلامه ، وإن كانوا قد شهدت

---

(١) الندور : الندرة والقلة .

النصوص بوقوع ذنوب منهم – فلمْ يُخِلَّ ذلك بمناصبهم ، ولا قدح [1] فى رتبهم ، بل قد تلافاهم واجتباهم ، وهداهم ، ومدحهم ، وزكاهم صلوات الله عليهم وسلامه

* * *

(١) ذم .

بـــاب فى
من يشفع للمؤمنين ، ومن يشفع للكافرين ؟

ذكر ابن المبارك قال :

أخبرنا رشدين بن سعد قال : أخبرنى عبد الرحمن بن زياد عن دخين الحجرى ، عن عقبة بن عامر – رضى الله عنه – عن رسول الله ﷺ ، وذكر (حديث الشفاعة) ... وفيه : « فيقول عيسى عليه السلام ، أدلكم على النبى الأمى ، فيأتونى ، فيأذن الله لى أن أقوم ، فيثور مجلسى أطيب ريح شمها أحد ، حتى آتى ربى ، فيشفعنى ويجعل لى نورا من شعر رأسى إلى ظفر قدمى ، ثم يقول الكافر : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ؟ فيقولون : ما هو غير إبليس : هو الذى أضلنا ، فيأتونه ، فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ، فقم أنت فاشفع لنا ؛ فإنك قد أضللتنا ، فيقوم ، فيثور من مجلسه أنتن ريح شمه أحد ، ثم يعظم لجهنم ، ويقول عند ذلك : ﴿ **وقال الشيطان لما قضى الأمر : إنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ ووعدتُكُم فأخلفتكم** ﴾ [1] الآية .

* * *

(١) ٢٢ : إبراهيم .

بـــــاب

مَنْ أسعدُ الناسِ بشفاعة النبى ﷺ ؟

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قلت : يا رسول الله ، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة فقال : « لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك ؛ لما رأيت من حرصك على الحديث .. » .

« أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة – من قال : لا إله إلا الله خالصا من قِبَل نفسه » .

وروى زيد بن أرقم – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « من قال : لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة !! » قيل : يا رسولَ الله ، ما إخلاصها ؟ قال : « أن تحجزه عن محارم الله » (١) [خرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول] .

* * *

(١) وإذا حالت بينه وبين محارم الله أصبح ربانيا يتولاه الله فلا عجب أن ينعم بالجنة !

البابُ الخامِس

الحســـــاب

﴿ وقفوهم إنهــم مســئولون ﴾

حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبــوا

بسم الله الرحمن الرحـيم

﴿ وَوُضِعَ الكتابُ فترى المجرمينَ مُشفِقين مما فيه ، ويقولون يا ويلَتَنا ، ما لِهذا الكتاب لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيـرةً إلا أحصاها ، ووجدوا ما عمِلوا حاضراً ، ولا يَظلِمُ ربُّك أحدا ﴾

[٤٨ : الكهــف]



بين يدى هذا البـــاب

وإذا كان علينا أن نحاسِبَ أنفسنا قبل أن نُحاسَب ..، فذلك لشدة الحساب ، وما يكون من تكرار العرض على الله ، وتطاير الكتب يمينا وشمالا !! وفى عرض ممتع أخاذ يقدم لنا (الإمام القرطبى) ما يحدث من تطاير الصحف التى كتبها الكرام الكاتبون - عند العرض والحساب - فآخذ بيمينه ، وآخذ بشماله .

ثم يحدثنا عن أول من يأخذ كتابه بيمينه ، ويصور لنا كيفية وقوف الناس للحساب وأى الأعمال يقبلها الله - سبحانه وتعالى - منهم ؟

ولا يكاد يترك جانبا إلا ويصوره لنا حتى لنكاد نراه رأى العين ، ويسمعه كلُّ ذى أُذنين !!، فالناس يُدْعَوْن بآبائهم ، وهناك من تَبْيَضُّ وجوهُهم وآخرون تسوَدُّ وجوهُهم ، ويبين لنا هؤلاء وأولئك ، ثم يصور إشفاق المجرمين مما فى الكتاب - حين يوضع - !!

وينتقل بعد هذا وذاك إلى بيان ما يُسأل عنه العبد ، وكيفية السؤال ويُلقى الضوء على ما جاء من أن الله - تعالى - يكلم العبد ليس بينه وبينه ترجمان ! ثم يعقد فصلا حول ثواب الجن وحسابهم ، وهل يكلمهم الله ؟

ثم .. يصور لنا كيفية القصاص ممن استطال فى حقوق الناس ويتصدى بعد ذلك للرد على إنكار بعض (المتغفلة) وضع السيئات وأخذ الحسنات !

ويجد الفرصة سانحة للترغيب والإغراء بعد التنفير والتحذير فيهتف فينا : البدارَ البدارَ إلى محاسبة النفس قبل أن تحاسب .

ثم يعود ليوضح المراد بقوله : « فيناديهم بصوت !! » . ويلقى الضوء بعد هذا وذاك على الآراء ووجوه الاختلاف فى حشر البهائم ، وما جاء عن قصاص بعضها من بعض .

ولا يفوته أن يحدثنا عن إرضاء الله تعالى الخصوم يوم القيامة . ثم يختم الباب بذكر الأوليات الآتية :

* أول من يحاسَب : أمة محمد ﷺ .
* أول ما يُقضَى فيه : الدماء .
* أول ما يحاسب عليه العبد من عمله : الصلاة .

ألست معى فى أن إمامنا قد أجاد وأفاد .. وأقنع وأمتع ؟! إذن فلن أحول بينك وبينه ، وهَيَّا لتنالَ شرفَ الصحبة وتشهد وقائع العرض الأكبر والحساب العادل .

تطاير الكتب التى كتبها الكرام الكاتبون عن يمين وشمال

قال الترمذى : وروى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : حاسبوا أنفسكَم قبلَ أن تُحاسَبوا ، وتَزَيَّنُوا للعرض الأكبر ، وإنما يُخَف الحساب على من حاسب نفسه فى الدنيا .

وقال عطاء الخراسانى : يحاسَبُ العبدُ يوم القيامة عند معارفه ؛ ليكون أشدَّ عليه . ذكره أبو نعيم .

وروى البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : « من حوسب يوم القيامة عذب » . [أخرجه مسلم والترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح] .

وروى أبو داود الطيالسى قال : حدثنا عمر بن العلاء اليشكرى ، قال : حدثنى صالح بن طبرج عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : سمعت عائشة - رضى الله عنها - تقول : وذُكِرَ عِنْدَهَا القُضَاةُ - فقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالقاضى العدل يوم القيامة ، فيَلْقى من شِدّةِ الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين اثنين فى تمرة قط ! » .

وأخرج الترمذى عن الحسن عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « تعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : فأما عرضتان ، فجدال ومعاذير ، فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى فآخذ بيمينه ، وآخذ بشماله » . قال أبو عيسى : ولا يصح هذا الحديث ؛ من قِبَل أن (الحسن) لم يسمع من أبى هريرة - رضى الله عنه - وقد رواه بعضهم عن على بن على الرفاعى ، عن الحسن ؛ عن أبى موسى ، عن النبى ﷺ .

قلت : قوله : وقد رواه بعضهم : هو وكيع بن الجراح . ذكره ابن ماجه ، قال : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة قال : حدثنا وكيع عن على بن على ، فذكره .

قال الترمذى : وتكلم يحيى بن سعيد القطان فى على بن على ، وخرجه أبو بكر البزار أيضا عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال : « يُعرض الناسُ يوم القيامة ثلاثَ عرضات ، فأما عرضتان فجدال ، وأما الثالثة فتطاير الكتب يمينا وشمالا » .

وذكر الترمذى الحكيم - فى الأصل السادس والثمانين - قال : فروى لنا عن رسول الله ﷺ : « أن الناس يُعرضون ثلاث عرضات يوم القيامة ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما العرضة الثالثة فتطاير الصحف » فالجدال لأهل الأهواء يجادلون ؛ لأنهم لا يعرفون ربهم ، فيظنون أنهم إذا جادلوه نجوا ، وقامت حجتهم .

والمعاذير لله تعالى ، يعتذر الكريم إلى آدم وإلى أنبيائه ، ويقيم حجته عندهم على الأعداء ثم يبعثهم إلى النار ؛ فإنه يجب أن يكون عذره عند أنبيائه وأوليائه ظاهرا حتى لا تأخذهم الحيرة ؛ ولذلك قيل عن رسول الله ﷺ : « لا أحدَ أحبُّ إليه المدح من الله ، ولا أحدَ أحبُّ إليه العذر من الله »

والعرضة الثالثة للمؤمنين ، وهو العرض الأكبر ، يخلو بهم ، فيعاتبهم فى تلك الخلوات من يريد أن يعاتبه ، حتى يذوق وبال الحياء ، ويرفض [1] عرقا بين يديه ، ويفيض العرض منهم على أقدامهم من شدة الحياء ، ثم يغفر لهم ، ويرضى عنهم .

وذكر أبو جعفر العقيلى من حديث نعيم بن سالم عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « الكتب كلها تحت العرش ، فإذا كان يوم الموقف بعث الله ريحا فتطيرها بالأيمان والشمائل [2] ؛ أول خط فيها : ﴿ **اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾ [3] .

أبو داود عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : ذكرت النار ، فبكيت ! فقال رسول الله ﷺ : « ما يبكيك ؟ » قلت : ذكرت النار فبكيت ! فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال : « أما فى ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً :

(١) عند الميزان ؛ حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل ؟!

(٢) وعند تطاير الصحف ، حتى يعلم أين يقع كتابه ؟! فى يمينه أم فى شماله ؟! أم من وراء ظهره ؟!

(٣) وعند الصراط إذا وضع بين ظهرى [4] جهنم حتى يجوز » .

وذكر أبو بكر ، أحمد بن ثابت الخطيب عن زيد بن ثابت – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « أول من يعطى كتابه بيمينه من هذه الأمة عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – وله شعاع كشعاع الشمس فقيل

---

(١) يَرْفَضّ : ارفضَّ الدمع والعرق سال .

(٢) الأيمان : جمع يمين ، والشمائل جمع شمال .

(٣) ١٤ : الإسراء .

(٤) يقال : هو بين ظهريهم وظَهرانَيهم – ولا تكسر النون – وبين أَظْهُرِهم : أى وسطهم وفى معظمهم ومعنى حتى يجوز : أى حتى يجتاز ويعبر .

له : أين يكون أبو بكر يا رسول الله ؟ قال : هيهات [1] .. زفته الملائكة إلى الجنان » .

نداء للعباد ، وأمر للملائكة بإعداد الخلائق للحساب :

وخرَّج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن منده فى كتاب (التوحيد) له عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إن الله تبارك وتعالى ينادى يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع : يا عبادى ، أنا الله ، لا إله إلا أنا أرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين ، يا عبادى ، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، أُحضروا حجتكم ، ويَسِّروا جوابكم ، فإنكم مسئولون محاسبَون ، يا ملائكتى ، أقيموا عبادى صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب » .

لله الدين الخالص ؛ ويقال لبعضهم : ألغير الله كنت تعمل ؟

وأسند عن سمُرَة بن عطية قال : يؤتى بالرجل يوم القيامة للحساب وفى صحيفته أمثال الجبال من الحسنات ، فيقول رب العزة تبارك وتعالى : صليت يوم كذا وكذا ؛ ليقالَ فلان صلى . أنا الله لا إله إلا أنا ، لى الدين الخالص .

صمت يوم كذا وكذا ؛ ليقال : صام فلان ، أنا الله لا إله إلا أنا ، لى الدين الخالص .

تصدقت يوم كذا وكذا ؛ ليقال : تصدق فلان ، أنا الله لا إله إلا أنا ، لى الدين الخالص . فما زال يُمْحَى شيء بعد شيء ، فيقول ملكاه : ألغير الله كنت تعمل ؟!

---

(١) هيهات : اسم فعل ماض ، بمعنى : بَعُدَ .

لا يقبل الله من العمل إلا ما ابتغى به وجهه :

قلت : ومثل هذا لا يقال من جهة الرأى ، فهو مرفوع ، وقد رفع معناه الدارقطنى فى سننه من حديث أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « يُجاء يوم القيامة بصحف مختومة بين يدى الله عز وجل ، فيقول الله تعالى : أَلْقوا هذا ، واقبلوا هذا . فتقول الملائكة : وعزتك ، ما رأينا إلا خيرا ، فيقول الله عز وجل : وهو أعلم : إن هذا كان لغيرى ، ولا أقبل من العمل إلا ما ابتُغِىَ به وجهى » [خرجه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه -] بمعناه على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

يوم ندعو كل أناس بإمامهم :

الترمذى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ **يوم ندعو كل أناس بإمامهم** ﴾ [1] . قال : « يُدعَى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ، ويمد له فى جسمه ستون ذراعاً ، ويبيض وجهه ، ويحمل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بُعد فيقولون : اللهم آتنا بهذا ، وبارك لنا فى هذا حتى يأتيهم ، ويقول : أبشروا ؛ لكل مسلم مثل هذا !!

قال : وأما الكافر ، فيسود وجهه ويمد فى جسمه ستون ذراعا على صورة آدم ، ويلبس تاجا من نار فيراه أصحابه ، فيقولون : نعوذ بالله من شر هذا ، اللهم لا تأتنا بهذا ، قال : فيأتيهم ، فيقولون : اللهم اخزه فيقول : أبعدكم الله ! فإن لكل رجل منكم مثل هذا » قال أبو عيسى : حديث حسن غريب .

---

(١) ٧١ : الإسراء .

توبيخ من الرب لمن أخذ مما ليس له ولو كان قليلا !

وروى أن عيسى عليه السلام مر بقبر فوكزه [١] برجله وقال : « يا صاحب هذا القبر ، قم بإذن الله ، فقام إليه الرجل ، وقال : يا روحَ الله ، ما الذى أردت ؟ فإنى لقائم فى الحساب منذ سبعين سنة ، حتى أتتنى الصيحة الساعة أن أجيب روح الله . فقال عيسى : يا هذا ، لقد كنت كثير الذنوب والخطايا ما كان عملك ؟ فقال : والله يا روح الله ما كنت إلا حطابا أحمل الحطب على رأسى ، آكل حلالا وأتصدق !

فقال عيسى : يا سبحان الله !.. حطابا يحمل الحطب على رأسه ويتصدق ، وهو قائم فى الحساب منذ سبعين سنة ؟!

ثم قال له : يا روح الله ، كان من توبيخ ربى لى أن قال : اكتراك عبدى لتحمل له حزمة ، فأخذت منها عودا ، فتخللت به ، وألقيته فى غير مكانه امتهانا منك بى ، وأنت تعلم أنى أنا الله المطلع عليك ، وأراك » [٢] .

(فصل)

فى قول الله تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ﴾ [٣]

أقوال المفسرين :

قال الزَّجَّاج : ذِكْر العُنق ، عبارة عن اللزوم ، كلزوم القلادة للعنق .

وقال إبراهيم بن أدهم : كل آدمى فى عنقه قلادة ، يكتب فيها نسخة

---

(١) وكزه : ضربه بجمع الكف ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فوكزه موسى فقضى عليه** ﴾ وكذلك معناها دفعه .

أما الضرب أو الدفع بالرجل فنعبر عنه قائلين : ركله .

فالمناسب للوكز اليد ، وللركل الرجل .

(٢) الله ينظر إلى القلوب والأعمال والدوافع ، وقد صدر منه ما صدر امتهانا منه بربه وهو المطلع عليه . فلا عبرة بصغر العمل أو كبره ، وإنما الروح التى تبدو فى العمل .

(٣) ١٣ : الإسراء .

عمله ، فإذا مات طويت ، وإذا بُعث نشرت ، وقيل له : ﴿ **اقرأ كتابك كفى بنفسِك اليومَ عليك حسيبا** ﴾[1] .

وقال ابن عباس – رضى الله عنه – : طائره : عمله ﴿ **ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾ .

قال الحسن : يقرأ الإنسان كتابه : أميا كان أو غير أمى[2] .

وقال أبو السوار العدوى وقرأ هذه الآية : ﴿ **وكلَّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه** ﴾ . قال : هما نَشْرَتَان[3] وطَيَّةٌ ، أما ما حييت يا ابن آدم فصحيفتك المنشورة فأَمْلِ فيها ما شئت !، فإذا مِتَّ طُويت ، حتى إذا بعثت نشرت ﴿ **اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾ .

بدء المحاسبـة :

فإذا وقف الناس على أعمالهم من الصحف التى يؤتونها بعد البعث حوسبوا بها . قال الله تعالى : ﴿ **فأما مَنْ أُوتى كتابَه بيمينه فسوف يحاسَبُ حسابا يسيرا** ﴾[4] . فدل على أن المحاسبة تكون عند إتيان الكتب ؛ لأن الناس إذا بعثوا لا يكونون ذاكرين لأعمالهم . قال الله تعالى : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعا فينبِّئُهم بما عملوا أحصاه الله ونَسُوه** ﴾[5] .

---

(١) الإسراء : ١٤ .

(٢) ولا عجب فالله الذى علم بالقلم قادر على ذلك .

(٣) صحفنا الآن منشورة تسجل فيها أعمالنا حتى نموت فتطوى بعد نشر ، ثم تنشر ثانية بعد البعث ليقرأها صاحبها وحتى يحاسب نفسه ، فتلك نشرتان ، وطية واحدة بينهما .

(٤) الانشقاق : ٨ .

(٥) المجادلة : ٦ .

وقد تقدم القول فى محاسبة الله تعالى خلقه فى يوم الحساب من أسماء القيامة فإذا بعثوا من قبورهم إلى الموقف ، وقاموا فيه ما شاء تعالى على ما تقدم حفاة عراة ، وجاء وقت الحساب الذى يريد الله أن يحاسبهم فيه ، أمر بالكتب التى كتبها الكرام الكاتبون بذكر أعمال الناس ، فأوتوها :

فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه ، فأولئك هم السعداء !

ومنهم من يؤتى كتابه بشماله ، أو من وراء ظهره وهم الأشقياء !

فعند ذلك يقرأ كتابه !!

وأنشدوا :

مَثِّل وقوفَك يوم العرضِ عُريانا	مستوحِشاً قلقَ الأحشاء حيرانا
والنار تلهب من غيظ ومن حنق	على العصاة ورب العرش غضبانا !
اقرأ كتابك يا عبدى على مَهَلٍ	فهل ترى فيه حرفا غير ما كانا ؟
لمَّا قرأت ولم تنكر قراءته	إقرار من عرف الأشياءَ عرفانا
نادى الجليل : خذوه يا ملائكتى	وامضوا بعبد عصى للنار عطشانا
المشركون غداً فى النار يلتهبوا	والمؤمنون بدار الخلد سكانا

توهم نفسك إذا تطايرت الكتب وقرع النداء قلبك [١] !

فتوهم نفسك يا أخى إذا تطايرت الكتب ، ونصبت الموازين ، وقد نوديت باسمك على رءوس الخلائق : أين فلان ابن فلان ؟ هلُمَّ إلى العرض على الله تعالى !، وقد وُكِّلتْ الملائكة بأخذك ، فقربتك إلى الله ، لا يمنعها اشتباه الأسماء باسمك ، واسم أبيك !

إذا عرفت أنك المراد بالدعاء إذا قرع النداءُ قلبك ، فعلمت أنك المطلوب ، فارتعدت فرائصُك [٢] ، واضطربت جوارحك ، وتغير لونك ،

(١) هذه الفقرة والتى بعدها من كتاب التوهم للمحاسبى .

(٢) الفرائص : جمع فريصة وهى : لحمة بين الجنب والكتف أو بين الثدى والكتف ترعد عند الفزع .

وطار قلبك ، تخطى بك الصفوف إلى ربك للعرض عليه ، والوقوف بين يديه وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم ، وأنت فى أيديهم ، وقد طار قلبك ، واشتد رعبك لعلمك أين يُراد بك ؟!

توهم نفسك وأنت بين يدى الله !!

فتوهم نفسك ، وأنت بين يدى ربك فى يدك صحيفة مُخْبِرةٌ بعملك ، لا تغادر بلية كتبتها ، ولا مُخَبَّأةً أسررتها ، وأنت تقرأ ما فيها بلسان كليل ، وقلب منكسر ، والأهوال مُحدِقة بك ، من بين يديك ومن خلفك فكم من بَلِيَّة قد كنت نسيتها ذكَّرتها !، وكم من سيئة قد كنت أخفيتها قد أظهرها وأبداها ، وكم من عملٍ ظننت أنه سلم لك ، وخلُصَ ، فردَّه عليك فى ذلك الموقف وأحبطه ، بعد أن كان أملك فيه عظيما !، فيا حسرةَ قلبك ، ويا أسفك على ما فرَّطْت فيه من طاعة ربك ﴿ **فأما من أوتى كتابَه بيمينه** ﴾ فعلم أنه من أهل الجنة ، ﴿ **فيقول : هاؤُمُ اقرءوا كتابيه** ﴾ [1] وذلك حين يأذن الله تعالى ، فيقرأ كتابه .

موقف من كان رأسا فى الخير :

فإذا كان الرجل رأسا فى الخير : يدعو إليه ، ويأمر به ، ويكثر تبعه عليه – دعى باسمه ، واسم أبيه ، فيتقدم حتى إذا دنا أخرج له كتاب أبيض ، بخط أبيض ، فى باطنه السيئات ، وفى ظاهره الحسنات ، فيبدأ بالسيئات فيقرؤها فيشفق ، ويصفر وجهه ، ويتغير لونه ؛ فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه : « هذه سيئاتك ، وقد غفرت لك » ؛ فيفرح عند ذلك فرحا شديدا ثم يقلب كتابه فيقرأ حسناته ، فلا يزداد إلا فرحا ، حتى إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه : « هذه حسناتك قد ضوعفت لك » ، فيبيض وجهه ، ويؤتى بتاج فيوضع على رأسه ، ويكسى حُلَّتين ، ويُحَلَّى كل مفصل فيه ، ويطول ستين ذراعا ، وهى قامة آدم ، ويقال له : « انطلق إلى أصحابك فبشرهم وأخبرهم

---

(١) ١٩ : الحاقة – وهاؤم اقرءوا : تعالَوا اقرءوا .

أن لكل إنسانٍ منهم مثل هذا » . فإذا أدبر قال : ﴿ **هاؤُمُ ٱقرءوا كتابِيَهْ إنى ظننتُ أنّى مُلاقٍ حِسَابِيَهْ** ﴾ قال الله تعالى : ﴿ **فهو فى عيشة راضية** ﴾ [١] . أى : مرضية قد رضيها ﴿ **فى جنة عالية** ﴾ فى السماء ﴿ **قطوفها** ﴾ ثمارها وعناقيدها ﴿ **دانية** ﴾ أُدنيت منهم ، فيقول لأصحابه : هل تعرفوننى ؟ فيقولون : قد غمرتك كرامة الله من أنت ؟ فيقول : أنا فلان ابن فلان ، ليبشِّر كل رجل منكم بمثل هذا ﴿ **كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية** ﴾ أى : قدمتم فى أيام الدنيا .

من كان رأسا فى الشــر :

وإذا كان الرجل رأسا فى الشر يدعو إليه ، ويأمر به ، فيكثر تبعه عليه ونودى باسمه واسم أبيه ، فيتقدم إلى حسابه ، فيخرج له كتاب أسود بخط أسود فى باطنه الحسنات ، وفى ظاهره السيئات ، فيبدأ بالحسنات ، فيقرؤها ويظن أنه سينجو ، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه : « هذه حسناتك ، وقد رُدَّت عليك » ، فيسود وجهه ، ويعلوه الحزن ويقنط [٢] من الخير ، ثم يقلب كتابه ، فيقرأ سيئاته فلا يزداد إلا حزنا ، ولا يزداد وجهه إلا سواداً ، فإذا بلغ آخر الكتاب ، وجد فيه : « هذه سيئاتك وقد ضوعفت عليك » . (أى : يُضَاعَفُ عليه العذابُ ، وليس المعنى : أن يُزَادَ عليه ما لم يعمل) . قال : فينظر إلى النار ، وتزرقُّ عيناه ، ويسوَدُّ وجهُه ، ويكسى سرابيل القطران [٣] ، ويقال له : انطلق إلى أصحابك فأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا ، فينطلق وهو يقول : ﴿ **ليتنى لم أُوتَ كتابيهْ ، ولم أدْرِ ما حِسابيهْ ، يا ليتها كانت القاضيةْ** ﴾ [٤] يعنى الموت ﴿ **هلك عنى**

---

(١) الآيات من ١٩ – ٢٤ من سورة الحاقة .

(٢) يقنط : يصيبه اليأس والقنوط .

(٣) السرابيل جمع سربال ، وهو القميص ، والقطران قيل قطران الإبل ، وقيل القطران النحاس المذاب (تفسير الإمام الطبرى) ويتفق هذا مع قول الله تعالى : ﴿ **سرابيلهم من قطِران** ﴾ [٥٠ : إبراهيم] .

(٤) ٢٥ – ٢٧ من سورة الحاقة .

سُلْطَانِيهْ ﴾ [1] . تفسير ابن عباس – رضى الله عنه – : هلكت عنى حجتى . قال الله تعالى : ﴿ خُذوه ، فغُلُّوه ، ثم الجحيم صَلُّوه ﴾ . أى : اجعلوه يَصْلى الجحيم ، ﴿ ثم فى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سبعون ذِراعا فاسلكوه ﴾ [2] والله أعلم بأى ذراع ؟

قال الحسن : وقال ابن عباس – رضى الله عنه – : سبعون ذراعا بذراع الملك . وسيأتى فى (كتاب النار) لهذه السلسلة مزيد بيان .

فاسلكوه فيها : أى تدخل من فيه حتى تخرج من دبره !. قاله الكلبى وقيل بالعكس !

وقيل : يُدْخَلُ عُنُقُه فيها ثم يُجَرُّبها !

ولو أن حلقة منها وضعت على جبل لأذابته ، فينادى أصحابه ، فيقول : هل تعرفوننى ؟ فيقولون : لا ، ولكننا قد نرى ما بك من الخِزْى فمن أنت ؟ فيقول : أنا فلان ابن فلان ، لكل إنسان منكم مثلَ هذا !!

من أوتى كتابه وراء ظهـره :

وأما مَن أوتى كتابه وراء ظهره ، فتخلع كتفه اليسرى ، فتجعل يده خلفه ، فيأخذ بها كتابه !

وقال مجاهد : يحول وجهه فى موضع قفاه ، فيقرأ كتابه كذلك .

فتوهـــم :

فتوهم نفسك إن كنت من السعداء ، وقد خرجت على الخلائق مسرور الوجه ، قد حلَّ بك الكمال والحسن والجمال !، كتابُك فى يمينك ، أخذ بضَبْعَيْك [3] ملك ينادى على رءوس الخلائق : « هذا فلان ابن فلان سعد

---

(١) ٢٩ : الحاقة .

(٢) ... حتى نهاية الآية ٣٢ من سورة الحاقة .

(٣) الضَّبْع بالسكون : العضد كلها ، أو وسطها أو الإبط ، أو ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاه .

سعادة لا يشقى بعدها أبدا » أما إن كنت من أهل الشقاوة ، فيسود وجهك ، وتتخطَّى الخلائق ، كتابك فى شمالك ، أو من وراء ظهرك ، تنادى : بالويل والثبور [1] ، ومَلَكٌ آخذٌ بضَبْعَيْك ينادى على رءوس الخلائق : « ألا إن فلان ابن فلان قد شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا » .

قلت : قوله : « ألا إن فلان ابن فلان » دليل على أن الإنسان يُدعى فى الآخرة باسمه واسم أبيه . وقد جاء صريحا من حديث أبى الدرداء – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم تُدْعَوْن يوم القيامة بأسمائكم ، وأسماء آبائكم ، فأحسنوا أسماءكم » [خرّجَه أبو نعيم الحافظ] قال : حدثنا أبو عمر بن حمدان قال : حدثنا الحسن بن سفيان ، قال : حدثنا زكريا ابن يحيى قال : حدثنا هشيم عن داود بن عمرو عن عبد الله بن أبى زكريا ، عن أبى الدرداء فذكره .

* * *

---

(١) الثبور : الهلاك .

بـــاب فى قوله تعالى :
﴿ يوم تَبْيَضُّ وجوه وتسوَدُّ وجوه ﴾ [1]

روى الترمذى عن أبى غالب قال : رأى أبو أُمامة رءوساً منصوبةً على برج دمشق ! فقال أبو أمامة : (كلابُ النار شر قتلى تحت أديم السماء ، خير قتلى من قتلوه) ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **يوم تَبْيَضُّ وجوهٌ وتَسْوَدُّ وجوه** ﴾ إلى آخر الآية .

قلت لأبى أُمامة الباهلى : أنت سمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال : لو لم أسمعه إلا مرة ، أو مرتين ، أو ثلاثا حتى عد سبعا ما حدثْتُكُموه ، قال : هذا حديث حسن .

وخرج أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب عن مالك بن سليم الهروى أخى غسان عن مالك بن أنس ، عن نافع عن ابن عمر – رضى الله عنهم – قال : قال رسول الله ﷺ فى قول الله تعالى : ﴿ **يوم تبيض وجوه وتسوَدُّ وجوه** ﴾ قال : يعنى تبيض وجوه أهل السنة ، وتسود وجوه أهل البدعة .

وقال مالك بن أنس رضى الله عنه : هى فى أهل الأهواء .

وقال الحسن : هى فى المنافقين .

وقال قتادة : فى المرتدين .

وقال أبى بن كعب : هى فى الكفار . وهو اختيار الطبرى .

اللهم بيض وجوهنا يوم تَبيضُّ وجوه أوليائك ، ولا تسود وجوهَنا يوم تسود وجوه أعدائك بحق رسلك وأنبيائك وأصفيائك . بفضلك يا ذا الفضل العظيم ، وكرمك يا كريم .

---

(١) ١٠٦ : آل عمران .

باب فى قوله تعالى :

﴿ ووُضعَ الكتابُ فترى المجرمين مشفقين مما فيه ... ﴾ [1] الآية

ابن المبارك قال : أخبرنا الحكم أو أبو الحكم – شك – نعيم عن إسماعيل بن عبد الرحمن ، عن رجل من بنى أسد قال :

قال عمر لكعب : ويحك يا كعب ! حدثنا من حديث الآخرة !

قال نعيم : يا أمير المؤمنين ، إذا كان يوم القيامة رفع اللوح المحفوظ ، فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله . قال : ثم يؤتى بالصحف التى فيها أعمال العباد ، فتنتشر حول العرش ، وذلك قوله تعالى : ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون : يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها** ﴾ .

قال الأسدى : الصغيرة : ما دون الشرك . والكبيرة : الشِّرْك .

﴿ **إلا أحصاها** ﴾ . قال كعب : ثم يدعى المؤمن فيعطى كتابه بيمينه فينظر فيه فحسناته باديات للناس ، وهو يقرأ سيئاته ، فذلك معنى ما تقدم .

وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول : يا ويلتنا ! ضجوا [2] إلى الله من الصغائر قبل الكبائر !

قال ابن عباس – رضى الله عنه – الصغيرة : التبسم ، والكبيرة : الضحك يعنى ما كان من ذلك فى معصية الله .

وقد روى أن النبى ﷺ ضرب بصغائر الذنوب مثلا فقال : « إنما محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بفلاةٍ [3] من الأرض ، وحضر صنيع [4]

---

(١) ٤٩ : الكهف .

(٢) أى هو ومن معه من السامعين أو المأمومين أيضا ؛ لأن المجرمين قد ضجوا من الصغائر قبل الكبائر .

(٣) الفلاة : الصحراء والجمع فلوات .

(٤) صنيع القوم : من يصنع لهم الطعام .

القوم فانطلق كل منهم يحتطب فجعل الرجل يجيء بالعود ، والآخر بالعودين حتى جمعوا سواداً ، وأججوا نارا فشوَوْا خبزهم ، وإن الذنب الصغير يجتمع على صاحبه فيهلكه إلا أن يغفر الله واتقوا محقرات الذنوب ؛ فإن لها من الله طالبا » أنبأنا الشيخان : أبو محمد عبد الوهاب القرشي ، والإمام أبو الحسن الشافعي ، قالا : أخبرنا السلفي قال : أخبرنا الثقفي ، قال : أخبرنا أبو طاهر محمد بن مُخمش الزيادي إملاء بنيسابور ، قال : أخبرنا أنس بن عياض الليثي ، عن أبي حازم - لا أعلمه إلا عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم ومحقرات الذنوب ؛ فإن مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا بطن وادٍ فجاء ذا [1] بعود ، وجاء ذا بعود حتى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه » غريب . من حديث أبي حازم سلمة بن دينار تفرد به عنه أبو ضمرة أنس ابن عياض الليثي ، ولقد أحسن القائل :

خَلِّ الذنوبَ صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماشٍ [2] فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

وقال جماعة من العلماء : إن الذنوب كلها كبائر .

قال بعضهم : لا تنظر إلى صغر الذنب ، ولكن انظر من عصيت !، فهي من حيث المخالفة كبائر .

والصحيح : أن فيها صغائر وكبائر .

وليس هذا موضع الكلام في ذلك ، وقد بيناه في سورة النساء في كتاب (جامع أحكام القرآن) . والله أعلم .

* * *

(١) ذا : اسم إشارة للمذكر كما أن ذي للمؤنث . وندخل عليهما هاء للتنبيه حتى نعطي فرصة للسامع لكي يتسنى له متابعة المشار إليه فنقول : هذا .

(٢) كماشٍ : أي ليكن تصرفك كمن يمشي على أرض من الشوك .

(باب)
ما يُسْأَلُ عنه العبد ؟ وكيفية السؤال ؟

قال تعالى : ﴿ **إن السمعَ والبصرَ والفُؤَاد كلُّ أولئك كان عنه مسئولا** ﴾ [1] ، وقال : ﴿ **ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ [2] ، وقال : ﴿ **قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم** ﴾ [3] . أى بما عملتموه .

وقال : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾ [4] ، أى : يُسأَلُ عن ذلك ، ويجازَى عليه ، والآيات فى هذا المعنى كثيرة . وقال : ﴿ **ثم لتُسْأَلُنَّ يومئذ عن النعيم** ﴾ [5] .

وروى الترمذى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **لتُسْأَلُنَّ يومئذٍ عن النعيم** ﴾ . قال الناس : يا رسولَ الله ، أَىّ نعيم نُسْأَل ، فإنما هما الأسودان [6] ، والعدو حاضر ، وسيوفنا على عواتقنا [7] ؟! قال : « إن ذلك سيكون » .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أولَ ما يُسْأَلُ عنه يومَ القيامة – يعنى : العبد – أن يُقالَ له : « أَلَمْ نُصِحَّ لك جسمك ، ونُرويك من الماء البارد ؟ » . قال الترمذى : حديث غريب .

---

(١) الإسراء : ٣٦ .
(٢) يونس : ٢٣ .
(٣) التغابن : ٧ .
(٤) الزلزلة : ٧ – ٨ .
(٥) التكاثر : ٨ .
(٦) الأسودان : الماء والتمر أى يعيشون عليهما .
(٧) يقال لما بين المنكب والعنق عاتق وهو موضع الرداء ويذكر ويؤنث والجمع عواتق .

وخرج أبو نعيم الحافظ من حديث الأعمش عن أبى وائل شفيق عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبدٍ يخطو خُطوةً إلا سئل عنها ما أراد بها ؟ » .

مسلم عن أبى برزة الأسلمى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأَل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ؟ وعن جسده فيما أبلاه ؟، وعن عمله ما عمل فيه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ [خرجه الترمذى] . وقال فيه : حديث حسن صحيح ، ورواه عن ابن عمر عن ابن مسعود – رضى الله عنهما – عن النبى ﷺ ، وقال فيه : حديث غريب لا أعرفه إلا من حديث ابن مسعود عن النبى ﷺ . إلا من حديث الحسين بن قيس ، والحسين يضعف فى الحديث .

وفى الباب عن أبى برزة وأبى سعيد ، قلت : ومعاذ بن جبل أخبرناه الشيخ الراوية أبو محمد عبد الوهاب بثغر الإسكندرية قراءة عليه ، قال : قرأ عَلىَّ البيهقى وأنا أسمع ، قال : حدثنا الحاجب أبو الحسن على بن محمد بن على العلاف ببغداد سنة أربع وسبعين وأربعمائة قال : أخبرنا أبو القاسم عبد الملك ابن محمد بن بشران المعدل ، قال : حدثنا أبو بكر محمد بن الحسين الآجرى بمكة فى شوال سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة قال : أخبرنا أبو سعيد الفضل محمد بن محمد الجندى إملاء فى المسجد الحرام سنة تسع وتسعين ومائتين قال : أخبرنا صامت بن معاذ الجندى ، أخبرنا عبد الحميد عن سفيان بن سعيد الثورى ، عن صفوان بن سليم ، عن عدى بن عدى عن الصالحى عن معاذ ابن جبل – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأَل عن أربع خصال : عن عمره فيم أفناه ؟ وعن شبابه فيم أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ وعن عمله ماذا عمل فيه ؟ » .

وخرج الطبرانى أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب ، أخبرنا أحمد ابن خالد الحلبى ، أخبرنا يوسف بن يونس الأفطس ، قال : أخبرنا سليمان ابن بلال عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر – رضى الله عنه – قال : سمعت

رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبد من عباده فيوقفه بين يديه فيسأله عن جاهه ، كما يسأله عن عمله » .

مسلم - عن صفوان بن محرز قال : قال رجل لابن عمر - رضى الله عنه - كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى ؟ قال : سمعته يقول : « يدنى المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه ، فيقول : هل تعرف ؟ فيقول : رَبِّ ، أعرف . قال : فيقول : إنى سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك يوم القيامة . قال : فيعطى صحيفة حسناته ، وأما الكفار والمنافقون ، فينادى بهم على رءوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على الله » [أخرجه البخارى] وفى آخره : ﴿ **هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾ (١) .

وروى من حديث على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة خلا الله عز وجل بعبده المؤمن يوقفه على ذنوبه ذنبا ذنبا ، ثم يغفر الله له ، لا يطلع على ذلك ملَك مقرب ولا نبى مرسل ، وستر عليه من ذنوبه ما يكرهه أن يقف عليها ، ثم يقول لسيئاته : كونى حسنات » .

قال المؤلف : خرجه مسلم بمعناه ، وسيأتى آنفا إن شاء الله تعالى .

وخرج أبو القاسم إسحق بن إبراهيم الختلى فى كتاب (الديباج) له : حدثنا هارون بن عبد الله قال : حدثنا سيار قال : حدثنا جعفر قال : حدثنا أبو عمران الجونى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : « يدنى الله العبد منه يوم القيامة ، ويضع عليه كنفه ؛ فيستره من الخلائق كلها ، ويدفع إليه كتابه فى ذلك الستر ، فيقول له : « آقرأ يا ابن آدم كتابك » . قال : فيمر بالحسنة فيبيض لها وجهه ، ويمر بالسيئة ، فيسود لها وجهه ، قال : فيقول الله تعالى له : « أتعرف يا عبدى ؟ قال : فيقول : نعم يارب أعرف ، قال : فيقول :

---

(١) ١٨ : هود .

إنى أَعْرَف بها منك ، قد غفرتها لك ، قال : فلا تزال حسنة تُقْبَل فيسجد ، وسيئة تُغْفَر فيَسْجُد ، فلا يرى الخلائق منه إلا ذلك حتى ينادى الخلائق بعضها بعضا : طوبى لهذا العبد الذى لم يعص قط ، ولا يدرون ما قد لقى فيما بينه وبين الله تعالى مما قد وقفه عليه » .

قلت :

أخبرنا الشيخ الراوية القرشى عبد الوهاب قراءة عليه بثغر الاسكندريّة – حماه الله – قال : قرئَ على الحافظ السلفى ، وأنا أسمع . قال : حدثنا الحاجب أبو الحسن بن العلاء وقال : أخبرنَا أبو القاسم ابن بشران ، أخبرنا الآجرى ، حدثنا : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن موسى السونيطي ، حدثنا أحمد بن أبى رجاء المصيصى ، حدثنا وكيع بن الجراح ، حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد ، عن أبى ذر – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وتخبأ كبارها ، فيقال له : عملت يوم كذا وكذا .. كذا وكذا ثلاث مرات . قال : وهو يقر ، ليس ينكر ، قال : وهو مشفق من الكبائر أن تجىء ، قال : فإذا أراد الله به خيرا قال : أعطوه مكان كل سيئة حسنة : فيقول حين طمع : يارب ، إن لى ذنوبا ما رأيتها ها هنا ، قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه (١) . ثم تلا : ﴿ **فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ (٢) » . خرجه مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن نمير قال : حدثنا الأعمش فذكره .

* * *

---

(١) النواجذ : جمع ناجذ . وهى أربعة أقصى الأضراس أو هى الأنياب أو التى تلى الأنياب ، أو تطلق على الأضراس كلها [القاموس المحيط] .

(٢) ٧٠ : الفرقان .

(فصل)
بيان ، وتوفيق ، وتوضيح

* **قوله : « لا تزال قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل » عام ؛ لأنه نكرة فى سياق النفى ، لكنه مخصوص :**

(١) بقوله عليه السلام : « يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب » . على ما يأتى .

(٢) وبقوله تعالى لمحمد ﷺ : « أدخِل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن » . وقد تقدم الحديث .

(٣) وبقوله تعالى : ﴿ **يُعرَف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام** ﴾ [1] .

* * *

* قوله عليه السلام : « وعن عمله ما عمل فيه » . قلت : هذا مقام مخوف ؛ لأنه لم يقل : وعن عمله ما قال فيه ، وإنما قال : « ما عمل فيه » فلينظر العبد ما عمل فيما علمه ؟ [هل صدق الله فى ذلك وأخلصه حتى يدخل فيمن أثنى الله عليه بقوله : ﴿ **أولئك الذين صدقوا** ﴾ [2] ؟] .

أو خالف علمه بفعله ؛ فيدخل فى قوله تعالى : ﴿ **فخلف من بعدهم خَلْف ورثوا الكتاب** ﴾ [3] وقوله تعالى : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب** ﴾ [4] وقوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبُر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ [5] والأخبار فى

---

(١) ٤١ : الرحمن . ويمكن أن نفهم أن المجرمين خارجون من العموم فى الحديث الأول . فهم يعرفون بسيماهم ، ومثلهم من لا حساب عليه ، وكذلك السبعون ألفا فلم يعد الحديث عاما .

(٢) ١٧٧ : البقرة .

(٣) ١٦٩ : الأعراف ، وخَلْف بالسكون للذم وبالفتح للمدح .

(٤) ٤٤ : البقرة .

(٥) ٣ : الصف .

هذا المعنى كثيرة ، وسيأتى ذكرها فى أبواب النار إن شاء الله تعالى .

* **قوله** : حتى يضع عليه كنفه ، أى ستره ولطفه وإكرامه ، فيخاطَب خطاب الملاطفة ، ويناجيه مناجاة المصافاة والمحادثة فيقول :

هل تعرف ؟ فيقول : رب أعرف !

فيقول الله تعالى – مُمتنًّا عليه ، ومُظهرا فضله لديه – : « فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا – أى لم أفضحك بها فيها ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم قيل : هذه ذنوب تاب منها » كما ذكره أبو نعيم عن الأوزاعى عن هلال ابن سعد قال : « إن الله يغفر الذنوب ولكن لا يمحوها من الصحيفة حتى يوقفه عليها يوما القيامة وإن تاب منها » .

* **قال المؤلف** : ولا يعارض هذا ما فى التنزيل والحديث – من أن السيئات تبدل – بالتوبة – حسنات . [فلعل ذلك يكون بعدما يوقفه الله عليها] . والله أعلم .

وقيل : فى صغائر اقترفها .

وقيل : كبائر بينه وبين الله تعالى اجترحها .

وأمَّا ما كان بينه وبين العباد ، فلا بد فيه من القصاص بالحسنات والسيئات على ما يأتى .

وقيل : ما خطر بقلبه ما لم يكن فى وسعه ، ويدخل تحت كسبه ، ويثبت فى نفسه وإن لم يعمله ، وهذا اختيار الطبرى والنحاس ، وغير واحد من العلماء . جعلوا الحديث مفسرا لقوله تعالى : ﴿ **وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾ فتكون الآية على هذا محكمة غير منسوخة . والله أعلم .

وقد بينا فى كتاب جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن . والحمد لله .

وروى عن ابن مسعود أنه قال : « ما ستر الله على عبد فى الدنيا إلا ستر الله عليه فى الآخرة » . وهذا مأخوذ من حديث النجوى ، ومن قوله عليه السلام : « لا يستر الله على عبد فى الدنيا إلا ستره يوم القيامة » [خرجه مسلم] .

وفى صحيح مسلم أيضا من حديث أبى هريرة – رضى الله عنه : « من ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة » . وروى : « من ستر على مسلم عورته ستر الله عورته يوم القيامة » .

قال أبو حامد : فهذا إنما يرجوه عبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم ، واحتمل فى حق نفسه تقصيرهم ، ولم يحرك لسانه بذكر مساوىء الناس ، ولم يذكرهم فى غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه ؛ فهذا جدير بأن يجازى بمثله فى القيامة .

* * *

(فصل)
فى : ترك إنفاذ الوعيد على العصاة (خلف الوعيد)

وفى قوله تعالى : « سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم » . نص منه تعالى على صحة أهل السنة فى ترك إنفاذ الوعيد على العصاة من المؤمنين . والعرب تفتخر بخلف الوعيد حتى قال قائلهم :

ولا يرهب ابن العم – ما عشت – صولتى
ولا أختشى من روعة المتهدد
وإنى متى أوعدته أو وعدته
لمخلف إيعادى ومنجز موعدى [1]

---

(١) الإيعاد : مصدر أوعد ويكون فى الوعيد والتهديد أما الموعد والوعد فيكون بالخير والشاعر هنا يتسامح فيخلف ولا ينفذ ما هدد به وأوعد ، وهو يفخر بذلك أما وعده فهو منجزه ومنفذه ؛ لأن وعد الحر دين عليه .

قال ابن العربى : إنه كذلك عند العرب .

وأما ملك الملوك القُدوس الصادق فلا يقع خبره إلا على وفق مخبره : كان ثوابا أو عقابا .

فالذى قال المحققون فى ذلك قول بديع : وهو أن الآيات وقعت مطلقة فى الوعد والوعيد عامة ، فخصصتها الشريعة ، وبينها البارى تعالى فى كتابه فى آيات أُخَر ، كقوله : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يُشْرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿ **وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم** ﴾ (٢) الآية . وكقوله تعالى : ﴿ **حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو** ﴾ (٣) وبالشفاعة التى أكرم الله بها ﷺ ومن شاء من الخلق بعده .

* * *

(باب)

ما جاء أن الله تعالى يكلم العبد ليس بينه وبينه ترجمان

مسلم – عن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : « ما مِنكم من أحدٍ إلا سيكلِّمه الله ليس بينه وبينه ترجمان ! فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أيسر منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة » زاد ابن حجر – قال الأعمش .

وحدثنى عمر بن مرة عن خيثمة عن عدى مثله ، وزاد فيه : « ولو بكلمة طيبة » . [أخرجه البخارى والترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح] .

---

(١) ٤٨ : النساء .

(٢) ٦ : الرعد .

(٣) غافر : ١ – ٣ .

ابن المبارك قال : أخبرنا إسماعيل بن مسلم عن الحسن وقتادة عن أنس ابن مالك عن النبى ﷺ قال : « يُجاء بابن آدم يوم القيامة ، فيوقف بين يدى الله تعالى ، فيقول له : أعطيتك وخولتك (١) وأنعمت عليك فماذا صنعت ؟ فيقول : يارب جمعته وثمَّرْته ، فتركته أكثر ما كان فارجعنى آتيك به ، فيقول الله تعالى : أرنى ما قدمت ، فيقول : فإذا عبد لم يقدم خيرا فيمضى به إلى النار » [خرجه ابن العربى فى سراج المريدين] . وزاد فيه بعد قوله : « كأنه بذج » . وقال فيه : حديث صحيح من مراسيل الحسن ، وقال الهروى : « كأنه بذج من الذل » .

قال أبو عبيدة : هو ولد الضأن . وجمعه بِذجان .

وقال الجوهرى : البذج من الضأن بمنزلة العتود من أولاد المعز ، وأنشدوا :

قد هلكت جارتنا من الهمج . وإن تجع تأكل عتودا أو بذج

قلت : وقوله : « ما منكم من أحد » . مخصوص بما ذكرناه فى الباب من قبل . أى : ما منكم ممن لا يدخل الجنة بغير حساب من أمتى إلا وسيكلمه الله . والله أعلم .

فتفكر فى عظيم حياتك إذا ذكَّرك ذنوبكَ شفاهاً ، إذ يقول :

« يا عبدى ، أمَا آستحييت فبارزتنى بالقبح ؟! واستحييت من خلقى فأظهرت لهم الجميل !! أكنتُ أهون عليك من سائر عبادى ؟! استخففت بنظرى إليك فلم تكترث به ، واستعظمت نظر غيرى !! ألم أنعم عليكم فماذا غرك بى ؟ » .

وعن ابن مسعود قال : « ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ، ثم يقول : يا ابن آدم ما غرك بى يا ابن آدم ؟ ماذا

---

(١) خولتك : أى أعطيتك متفضلا .

عملت فيما علمت ؟! يا ابن آدم ، ماذا أجبت المرسلين ؟ يا ابن آدم ، ألم أكن رقيبا على عينيك وأنت تنظر بهما إلى ما لا يحل لك ؟ ألم أكن رقيبا على أذنيك ؟ وهكذا عن سائر الأعضاء ؟ فكيف ترى حياءك وخجلك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك ؟! وأياديه ومساويك ؟. فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك ، فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء . إلا أن الله وعد المؤمن أن يستر عليه ، ولا يطلع عليه غيره كما ذكرنا . وذلك بفضل منه .

وهل يكلم الكفار عند محاسبتهم ؟[1]

فيه خلاف تقدم بيانه فى أسماء القيامة ، ويأتى أيضا فى باب ما جاء فى شهادة أركان الكافر والمنافق عليهما ، ولقائهما الله عز وجلّ مستوفى إن شاء الله .

* * *

(فصل)

حول ثواب الجن وحسابهم

فإن قيل : أخبر الله تعالى عن الناس أنهم مجزيون محاسبون . وأخبر أنه يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين . ولم يخبر عن ثواب الجن ولا عن حسابهم بشيء . فما القول عندكم ؟ وهل يكلمهم الله ؟

فالجواب : أن الله تعالى أخبر أن الإنس والجن يسألون فقال خبرا عما يقال لهم : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا** ﴾ [١] .

وهذا سؤال ، فإذا ثبت بعض السؤال ، ثبت كله ، ولما كانت الجن ممن يخاطَب ويعقل قال : منكم ، وإن كانت الرسل من الإنس ، وغلب الإنس فى الخطاب كما يغلب المذكر على المؤنث . وأيضا - لما كان الحساب عليهم دون الخلق قال : منكم فصير الرسل فى مخرج اللفظ من الجميع ، لأن الثقلين قد ضمتهما عرصة القيامة فلما صاروا فى تلك العرصة فى حساب واحد فى شأن الثواب والعقاب خوطبوا يومئذ بمخاطبة واحدة كأنهم جماعة واحدة ؛ لأن بدء خلقهم للعبودية كما قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [٢] .

والثواب والعقاب على العبودية إلا أن الجن أصلهم من مارج من نار ، وأصلنا من تراب ، وخلقهم غير خلقنا ، ومنهم : مؤمن وكافر ، وعدونا إبليس عدو لهم ، يعادى مؤمنهم ، ويوالى كافرهم ، وفيهم أهواء شيعية ، وقدرية ، ومرجئة ، وهو معنى قوله : ﴿ **كنا طرائق قددا** ﴾ [٣] .

وقيل : إن الله تعالى لما قال : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ [٤] دخل فى الجملة الجن

---

(١) الأنعام : ١٣٠ .
(٢) الذاريات : ٥٦ .
(٣) الجن : ١١ .
(٤) البقرة : ٨٢ .

والإنس ؛ فثبت للجن من وعد الجنة لعموم الآية ما ثبت للإنس .

فإن قيل : فما الحكمة فى ذكر الجن مع الإنس فى الوعيد ، وترك الجن وإفراده الإنس عنهم فى الوعد ؟

فالجواب : أنهم قد ذكروا أيضا فى الوعد ، لأنه سبحانه يقول : ﴿ **أولئك الذين حقِ عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين** ﴾ (١) . ثم قال : ﴿ **ولكل درجات مما عملوا** ﴾ (٢) . وإنما أراد لكل من الإنس والجن فقد ذكروا فى الوعد مع الإنس .

فإن قيل : فقد ذكر يخاطب الجن والإنس فى النار ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ **وقال الشيطان لما قُضِى الأمرُ : إن الله وعدكم وعد الحق** ﴾ (٣) إلى قوله : ﴿ **ولوموا أنفسكم** ﴾ ﴿ **قال قرينُه : ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد** ﴾ (٤) . ولم يأت عن تفاوض الفريقين فى الجنة خبر .

قيل : إنما ذكر من تفاوضهم فى النار أن الواحد من الإنس يقول للشيطان : الذى كان قرينه فى الدنيا إنه أطغانى وأضلنى !

فيقول له قرينه : ﴿ **ربنا ما أطغيته** ﴾ ولكنه كان ضالا بنفسه . ولا سبب بين الفريقين يدعو أهل الجنة فيهما إلى التفاوض ؛ فلذلك سكت عنهما .

وأيضا – فإن الله تعالى أخبر الناس أن عصاتهم يكونون قرناء الشياطين يتخاصمون فى النار ليزجرهم بذلك عن التمرد والعصيان . وهذا المعنى مقصود فى الإخبار فلهذا سكت عن ذلك فى الوعد به .

* * *

---

(١) ١٨ : الأحقاف .
(٢) ١٣٢ : الأنعام .
(٣) ٢٢ : إبراهيم .
(٤) ٢٧ : ق .

باب
القصاص يوم القيامة ممن استطال فى حقوق الناس وفى حبسه لهم حتى ينصفوا منه

مسلم – عن أبى هريرةَ – رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لَتُؤَدَّيَنَّ الحقوقُ إلى أهلِها يوم القيامة حتى يقادَ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » .

البخارى – عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من كانت عنده مَظْلِمَةٌ [1] لأخيه من عِرضه أو من شيء فليتحلله [2] منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » .

مسلم – عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون من المفلس ؟ » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع [3] . قال : « إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا فيُعطَى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فَنِيت حسناتُه قبل انقضاء ما عليه ، أُخذ من خطاياهم فطُرِحت عليه ثم طرح فى النار » .

وخرج ابن ماجه – حدثنا محمد بن ثعلبة بن سواء حدثنا عمى محمد ابن سواء عن حسين المعلم ، عن مطر الوراق ، عن نافع عن ابن عمر – رضى

---

(١) المَظلِمة بفتح الميم وكسر اللام والظُّلامة بضم الظاء المشددة اسم لما تطلبه عند الظالم .

(٢) فليعد إليه حقه ليصبح فى حِل من الحساب ، وليعمل على استرضائه ، وإزالة كل ما علق بنفسه .

(٣) المتاع : المنفعة ، والسلعة والأداة ، وما تمتعت به من الحوائج وجمعه : أمتعة . وقوله تعالى : ﴿ ابتغاء حِلْية أو متاع ﴾ الحلية : الذهب والفضة ، والمتاع : الحديد والنحاس والرصاص [القاموس المحيط] .

الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من مات وعليه دينار أو درهم قضى من حسناته ليس ثم دينار ولا درهم من ترك دنيا أو ضياعاً [1] فعلى الله ورسوله » .

الحارث بن أبى أسامة – عن عبد الله بن أُنيس – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الله العبادَ – أو قال : الناس – (شك) وأومأ [2] بيده إلى الشام عُراةً غُرْلاً بُهْماً ، قال : ما بُهْماً ؟ قال : ليس معهم شىء ، فيناديهم بصوت يسمعه مَن بَعُد ومن قَرُب ، أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أنِ يدخل الجنة ، وواحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة ، قال : قلنا : كيف وإنما نأتى الله عراة حفاة ؟ قال : بالحسنات والسيئات .

قال الشيخ المؤلف رحمه الله : هذا الحديث الذى أراده البخارى بقوله : ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أُنيس فى حديث واحد !

وروى سفيان بن عيينة عن مسعر عن عمر بن مرة قال : سمعت الشعبى يقول : حدثنى الربيع بن خيثم وكان من معادن الصدق قال : (إن أهل الدَّين فى الآخرة أشد تقاضيا له منكم فى الدنيا ، يحبس لهم فيأخذونه ، فيقول : يا رب ألست ترانى حافيا ؟ فيقول : خذوا من حسناته بقدر الذى لهم فإن لم يكن له حسنات يقول : زيدوا على سيئاته من سيئاتهم) .

وذكر أبو عمر بن عبد البر من حديث البراء – رضى الله عنه – عنه عن النبى ﷺ قال : « صاحب الدَّين مأسور يوم القيامة بالدَّيْن » .

وروى أبو نعيم الحافظ بإسناده عن زاذان أبى عمر قال : دخلت على ابن مسعود فوجدت أصحاب الخز [3] واليُمْنَة قد سبقونى إلى المجلس فقلت :

---

(١) الضِّياع بكسر الضاد المشددة جمع ضَيعة وهى العقار والأرض المغِلَّةُ .

(٢) أومأ : أشار .

(٣) الخز : ما نسج من صوف وحرير ، واليُمنة : بالضم بُرْد يمنى . ويقصد مشاهير العرب وأعلامهم والظاهرين منهم من ذوى الوجاهة والشرف .

يا عبد الله ، من أجل أي رجل أعجمي أدنيت هؤلاء وأقصيتني ؟ قال : آدْنُ ، فدنوت ، حتى ما كان بيني وبينه جليس ، فسمعته يقول : « يؤخذ بيد العبد – أو الأمة – فينصب على رءوس الأولين والآخرين ، ثم ينادى مناد : هذا فلان ابن فلان ، فمن كان له حق فليأت إلى حقه ، فتفرح المرأة بأن يدون لها الحق على ابنها أو أختها ، أو أبيها أو على زوجها ثم قرأ ابن مسعود : ﴿ **فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ (١) فيقول الرب – تعالى – للعبد : آئت هؤلاء حقهم ، فيقول : يارب ، فنيت الدنيا فمن أين آتيهم ؟ فيقول للملائكة : خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل إنسان بقدر طِلْبته ، فإن كان وليا لله فضلت من حسناته مثقال حبة من خردل من خير ضاعفها حتى يدخله بها الجنة ، ثم قرأ : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما** ﴾ (٢) .

وإن كان عبدا شقيا ، قالت الملائكة : رب فنيت حسناته ، وبقى طالبون ، فيقول للملائكة : « خذوا من أعمالهم السيئة فأضيفوها إلى سيئاته وصُكّوا له صكا إلى النار » .

وعنه عن ابن مسعود – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنه ليكون للوالدين على ولدهما دين ، فإذا كان يوم القيامة يتعلقان به ، فيقول : أنا ولدكما ، فيودان أو يتمنيان أن يكون أكثر من ذلك » .

وروى رزين – عن أبي هريرة قال : كنا نسمع أن الرجل يتعلق بالرجل يوم القيامة هو لا يعرفه فيقول : مالَك إلَيَّ وما بيني وبينك معرفة ؟ فيقول : كنت تراني على الخطايا وعلى المنكر ولا تنهاني .

وقال ابن مسعود : « تفرح المرأة يوم القيامة أن يكون لها حق ، وعلى أبيها أو ابنها أو أخيها أو زوجها أو أختها ؛ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » .

---

(١) ١٠١ : المؤمنون .
(٢) ٤٠ : النساء .

ابن ماجه - عن جابر - رضى الله عنه - قال : لما رجعت إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر قال : « ألا تحدثونى بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة ؟ » فقال فتْية منهم : بلى [1] يا رسول الله .. بينما نحن جلوس مرت بنا عجوز من عجائزها تحمل على رأسها قلة من ماء ، فمرت بفتى منهم ، فجعل إحدى يديه بين كفيها ثم دفعها فخرت على ركبتيها فانكسرت قلتها ، فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت : سوف تعلم يا غُدَرُ إذا وضع الله الكرسى وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون ، فسوف تعلم أمرى وأمرك عنده غدا . قال : يقول رسول الله ﷺ : « صدقت .. صدقت كيف يقدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم ؟!! » .

* * *

(١) بلى : تؤدى معنى الجواب مثل نعم . لكن نعم لها مواضع تستعمل فيها . وبلى .. لها مواضع أخرى .. فإذا سألك إنسان وجاء بعد الاستفهام بأداة نفى مثل : (لا - لم - لن - ما - ليس) فقال : ألم تؤمن ؟ ألا تحب الحق ؟ ألست مسلما ؟ وأردت أن تجيب بالإثبات فلا تقل نعم . وإنما قل : بلى .. ويكون المعنى : بلى أنا مؤمن - وأنا أحب الحق ، وأنا مسلم .

ومن أراد أن ينفى عن نفسه هذه الصفات - والعياذ بالله . فليقل : نعم .

والخلاصة : أن الاستفهام المنفى جوابه بلى فى الإثبات . ونعم فى النفى . والاستفهام غير المنفى جوابه نعم فى الإثبات ولا فى النفى فقل لمن سألك : أتحب الحق ؟ نعم ، (إن كنت تحبه)، ولا . (إن كنت لا تحبه) . وقل لمن سألك : ألا تحب الحق ؟ بلى . (إن كنت تحبه) ، ونعم . (إن كنت لا تحبه) .

(فصل)

إنكار بعض المتغفلة والرد عليهم !

أنكر بعض المتغلفة الذين اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله إعجابا برأيهم وتحكما على كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد ﷺ بعقول ضعيفة وأفهام سخيفة فقالوا : لا يجوز فى حكم الله وعدله أن يضع سيئات من اكتسبها على من لم يكتسبها ويؤخذ حسنات من عملها فتعطى لمن لم يعملها .

وزعموا هذا جَوْراً (١) ، وأوَّلوا قول الله تعالى : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ (٢) فكيف تصح هذه الأحاديث ، وهى تخالف ظاهر القرآن وتستحيل فى العقل ؟

والجواب أن الله تعالى لم يبن أمور الدين على عقول العباد ، ولم يَعْد ، ولم يُوعِد على ما تحتمله عقولهم ، ويدركونها بأفهامهم ؛ بل وعد وأوْعد (٣) بمشيئته ، وإرادته ، وأمر ونهى بحكمته ، ولو كان كل ما لا تدركه العقول مردوداً لكان أكثر الشرائع مستحيلا على موضوع عقول العباد ، وذلك أن الله تعالى أوجب الغسل بخروج المنى الذى هو طاهر عند بعض الصحابة وكثير من الأئمة ، وأوجب غسل الأطراف من الغائط الذى لا خلاف بين الأئمة وسائر من يقول بالعقل وغيره فى نجاسته وقذارته ونتنه ، وأوجب بريح يخرج من موضع الحدث ما أوجب بخروج الغائط الكثير المتفاحش ، فبأى عقل يستقيم هذا ، وبأى رأى تجب مساواة ريح ليس لها عين (٤) قائمة بما يقوم عينه وتزيد على الريح نتنا وقذرا ؟!

وقد أوجب الله قطع يمين مؤمن بعشرة دراهم ، وعند بعض الفقهاء بثلاثة دراهم ودون ذلك ، ثم سوى بين هذا القدر من المال وبين مائة ألف دينار ، فيكون القطع فيهما سواء . وأعطى الأم من ولدها الثلث ثم إن كان

---

(١) الجوْر : الظلم .

(٢) ١٥ : الإسراء .

(٣) يقصد الوعد والوعيد وهو الأصل الثالث من أصول المعتزلة وقد أشرنا إلى ذلك من قبل .

(٤) عين : أى جسم وجرم .

للمتوفى إخوة جعل لها السدس من غير أن ترث الإخوة من ذلك شيئا ؟!

فبأى عقل يدرك هذا إلا تسليما وانقيادا من صاحب الشرع إلى غير ذلك . فكذلك القصاص بالحسنات والسيئات ، وقد قال وقوله الحق : ﴿ **ونضع الموازينَ القسطَ ليوم القيامة فلا تُظْلَمُ نفسٌ** ﴾ [1] الآية . وقال : ﴿ **ولَيَحْمِلُنَّ أثقالَهم وأثقالاً مع أثقالهم** ﴾ [2] وقال : ﴿ **ليحملوا أوزارَهم كاملةً يوم القيامة ومِن أوزارِ الذين يُضِلونهم بغير علم** ﴾ [3] وهذا يبين قوله تعالى : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ [4] .

أى : لا تحمل حاملة ثِقْل أخرى ؛ إذا لم تتعد ، فإذا تعدت واستطالت بغير ما أُمِرَت ، فإنها تحمل عليها ، ويؤخذ منها بغير اختيارها ، كما تقدم فى أسماء القيامة عند قوله تعالى : ﴿ **واتقوا يوما لا تجزى نفسٌ عن نفسٍ شيئاً** ﴾ [5] .

* * *

---

(١) ٤٧ : الأنبياء .
(٢) ١٣ : العنكبوت .
(٣) ٢٥ : النحل .
(٤) ١٦٤ : الأنعام .
(٥) ٤٨ : البقرة .

(فصل)

البدارَ إلى محاسبة النفس !!

محاسبة النفس قبل الموت :

وإذا تقرر هذا فيجب على كل مسلم البدارَ إلى محاسبة نفسه ، كما قال عمر – رضى الله عنه – : « حاسبوا أنفُسَكُم قبل أن تُحاسَبُوا ، وزنوها قبل أن توزَنوا » . وإنما حسابه لنفسه قبل أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبةً نصوحا ، ويتدارك ما فرط من تقصير فى فرائض الله – عز وجل – ويرد المظالم إلى أهلها حبةً حبة ، ويستحل كل من تعرض [1] له بلسانه ويده ، وسطوته بقلبه ، ويطيب قلوبهم ، حتى يموت ولم يبق عليه فريضة ولا مظلمة ، فهذا يدخل الجنة بغير حساب .

موقف الخصماء ممن يموت قبل رد المظالم :

فإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه ، فهذا يأخذ بيده ، وهذا يقبض على ناصيته ، وهذا يتعلق بلبته [2] ، وهذا يقول : ظلمتنى !، وهذا يقول : شتمتنى ! وهذا يقول : استهزأت بى !، وهذا يقول : ذكرتنى فى الغيبة بما يسوءنى ! وهذا يقول : جاورتنى فأسأت جوارى !، وهذا يقول : عاملتنى فغَشَشتنى ! وهذا يقول : بايعتنى وأخفيت عنى عيب متاعك !

وهذا يقول : كذبتنى فى سعر متاعك !

وهذا يقول : رأيتنى محتاجا ، وكنت غنيا فما أطعمتنى !

وهذا يقول : وجدتنى مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم فداهنت [3] الظالم ، وما راعيتنى !!

---

(١) يستحل كل من تعرض : يستسمحه ويترضاه حتى يرضى .

(٢) اللَّبة : باللام المشددة المفتوحة . أسفل الرقبة وهى موضع القلادة من الصدر .

(٣) داهنت الظالم : المداهنة ، أن تظهر خلاف ما تضمر . يعنى كنت معه على مع أنك تعرف أنى مظلوم وأنه ظلمنى ، وتقدر على رد الظلم ودفعه .

وقد أنشب الخصماء فيك مخاليبهم ، وأحكموا فى تلابيبك (١) أيديهم ، وأنت مبهوت متحير من كثرتهم حتى لم يبق فى عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته فى مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة ، أو جناية ؛ أو نظر بعين استحقار وقد ضعفت عن مقاومتهم ، ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك ، لعله يخلصك من أيديهم إذ قرع سمعَك نداءُ الجبار : ﴿ **اليومَ تُجزَى كلُّ نفسٍ بما كسبت لا ظُلْمَ اليومَ** ﴾ (٢) فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة ، وتوقن فى نفسك بالبوار ، وتتذكر ما أنذرك الله به على لسان رسوله ﷺ حيث قال : ﴿ **ولا تحسبن الله غافلا عما يعملُ الظالمون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء** ﴾ (٣) .

فرحة هنا .. وحسرة هناك !!

فما أشدَّ فرحَك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس ، وتناولك أموالهم ! وما أشدَّ حسرتك فى ذلك اليوم إذا وُقِفَ بك على بساط العدل ، وشوفهت (٤) بخطاب السيئات ، وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقا أو تُظهرَ عذرا !!

فعند ذلك تُؤخَذُ حسناتُك التى تعبت فيها عمرَك ، وتُنْقَلُ إلى أخصامك عوضا عن حقوقهم كما ورد فى الأحاديث المذكورة فى هذا الباب .

آفات الرياء ومكايد الشيطان :

فانظر يا مسكين : إلى مصيبتك فى مثل هذا اليوم ؛ إذ ليس لك حسنة قد سلمت من آفات الرياء ، ومكايد الشيطان ، فإن سلمت حسنة واحدة فى مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها ، ويقال : لو أن رجلا له ثواب سبعين

---

(١) ما فى موضع اللبب من الثياب ويعرف بالطوف . ومفردة : تلبيب .
(٢) ١٧ : غافر .
(٣) ٤٢ ، ٤٣ : إبراهيم .
(٤) شوفهت : أى خوطبت مشافهة باللسان وبلا ترجمان .

نبيا ، وله خصم بنصف دانق [1] لم يدخل الجنة حتى يرضى خصمه !

وقيل : يؤخذ بدانق قسط سبعمائة صلاة مقبولة فتعطى للخصم !
[ذكره القشيرى فى التحبير له عند اسمه : المقسط الجامع] .

قال أبو حامد · ولعلك لو حاسبت نفسك ، وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعلمت أنه لا يمضى عليك يوم إلا ويجرى على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفى جميع حسناتك ، فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام ، والشهوات ، والتقْصير فى الطاعات ؟!، وكيف ترجو الخلاص من المظالم فى يوم يُقْتصُّ فيه للجماء من القرناء ! ﴿ **ويقول الكافر : يا ليتنى كنت ترابا !!** ﴾ [2] .

فكيف بك يا مسكين فى يوم ترى فيه صحيفتك خالية من حسنات طال فيها تعبك فتقول : أين حسناتى ؟!

فيقال : نقلت إلى صحيفة خصمائك !!

وترى صحيفتك مشحونة بسيئات غيرك ، فتقول : يارب ، هذه سيئات ما قارفتها قط [3] !

فيقال : هذه سيئات الذين اغتبتهم وشتمتهم ، وقصدتهم بالسوء ، وظلمتهم فى المعاملة ، والمبايعة ، والمجاورة ، والمخاطبة ، والمناظرة ، والمذاكرة ، والمدارسة وسائر أصناف المعاملة !

---

(١) الدانق : سدس درهم ، وهو عند اليونان حبتا خُرنوب ، لأن الدرهم عندهم اثنتا عشرة حبة خرنوب ، والدانق الإسلامى حبتا خرنوب وثلثا حبة خرنوب ، لأن الدرهم الإسلامى ست عشرة حبة وتفتح النون وتكسر ، وبعضهم يقول : الكسر أفصح ، وجمع المكسور دوانق ، وجمع المفتوح دوانيق .

(٢) النبأ : ٤٠ .

(٣) قارف : اقترف وارتكب وفعل .

فاتق الله فى مظالم العباد بأخذ أموالهم ، والتعرض لأعراضهم وأبشارهم وتضييق قلوبهم ، وإساءة الخُلق فى معاشرتهم ؛ فإن ما بين العبد وبين الله خاصة المغفرة إليه أسرع .

كيف يتصرف من اجتمعت عليه مظالم تاب عنها لكنه عسر عليه استرضاء من ظلمهم ؟

ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم من حيث لا يطلع عليه إلا الله ، فلْيكثر من الاستغفار لمن ظلمه فعساه أن يقربه ذلك إلى الله فينال به لطفه الذى ادخره لأرباب المؤمنين فى دفع مظالم العباد عنهم بإرضائه إياهم على ما يأتى بيانه فى باب إرضاء الخصوم بعد هذا إن شاء الله .

* * *

(فصل)

فيما يراد بقوله : فيناديهم بصوت ؟

قوله فى الحديث : « فيناديهم بصوت ... » استدل به من قال : (بالحرف والصوت) وأن الله يتكلم بذلك - تعالى الله عما يقوله المجسمون والجاحدون علوا كبيرا !!

وإنما يحمل النداء المضاف إلى الله تعالى على - نداء بعض الملائكة المقربين بإذن الله تعالى ، وأمره .

ومثل ذلك سائغ فى الكلام غير مستنكر أن يقول القائل : نادى الأمير وبلغنى نداء الأمير ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **ونادى فرعون فى قومه** ﴾ [1] وإنما المراد نادى المنادى عن أمره ، وأصدر نداءه عن إذنه ، وهو كقولهم أيضا : قتل الأمير فلانا ، وضرب فلانا ، وليس المراد توليه لهذه الأفعال ، وتصديه لهذه الأعمال ولكن المقصود صدورها عن أمره ، وقد ورد فى صحيح الأحاديث أن الملائكة ينادون على رءوس الأشهاد فيخاطبون أهل التقى والرشاد : « ألا إن فلان ابن فلان » . كما تقدم .

ومثله ما جاء فى حديث التنزيل مفسرا فيما أخرجه النسائى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - وأبى سعيد قالا : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يمهل حتى يمضى شطر الليل الأول ثم يأمر مناديا يقول :

هل من داعٍ يستجابُ له ؟

هل من مستغفر يغفر له ؟

هل من سائل يعطى ؟

---

(١) ٥١ : الزخرف .

صححه أبو محمد عبد الحق ، وكل حديث اشتمل على ذكر الصوت ، أو النداء ، فهذا التأويل فيه وأن ذلك من باب حذف المضاف [١] ، والدليل على ذلك ما ثبت من قدم كلام الله تعالى على ما هو مذكور فى كتاب الديانات .

شبهة وردهـا :

فإن قال بعض الأغبياء : لا وجه لحمل الحديث على ما ذكرتموه ؛ فإن فيه : أنا الديان ، وليس يصدر هذا الكلام حقا وصدقا إلا من رب العالمين .

قيل : إن الملك إذا كان يقول عن الله تعالى وينبىء عنه فالحكم يرجع إلى الله رب العالمين . والدليل عليه : أن الواحد منا إذا تلا قول الله تعالى : ﴿ **إننى أنا الله** ﴾ [٢] فليس يرجع إلى القارىء ، وإنما القارىء ذاكر لكلام الله تعالى ، ودال عليه بأصواته وهذا بَيِّن . وقد أتينا عليه فى الصفات من كتاب (الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا) .

(فصل)
فى اختلاف الناس فى حشر البهائم !

واختلف الناس فى حشر البهائم ، وفى قصاص بعضها من بعض ...

فروى عن ابن عباس أن حشر الدواب والطير – موتها .

وقال الضحاك ، وروى عن ابن عباس فى رواية أخرى : إن البهائم تحشر وتبعث قاله أبو ذر وأبو هريرة وعمرو بن العاص والحسن البصرى وغيرهم وهو الصحيح لقوله تعالى : ﴿ **وإذا الوحوش حشرت** ﴾ [٣] ، وقوله : ﴿ **ثم إلى ربهم يحشرون** ﴾ [٤] .

---

(١) كما نقول فى : حضر مندوب أخى . حضر أخى . وعند ذلك نكون قد حذفنا المضاف اكتفاء بالمضاف إليه .

(٢) ١٤ : طه .

(٣) ٥ : التكوير .

(٤) ٣٨ : الأنعام .

قال أبو هريرة : يحشر الله الخلائق كلهم يوم القيامة : البهائم والطير والدوابّ فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجَمَّاءِ من القرناءِ ثم يقول : « كونى ترابا » . فذلك قوله تعالى حكاية عن الكفار : ﴿ **ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا** ﴾ [1] .

ونحوه عن ابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص . وفى الخبر : « إن البهائم إذا صارت ترابا يوم القيامة حول ذلك التراب فى وجوه الكفار ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ عليها غبرة** ﴾ [2] ، أى : غبار .

وقالت طائفة : الحشر فى قوله تعالى : ﴿ **ثم إلى ربهم يحشرون** ﴾ راجع إلى الكفار ، وما تخلل من قوله تعالى : ﴿ **وما مِنْ دابةٍ فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء** ﴾ [3] كلام معترض ، وإقامة حجج .

وأما الحديث فالمقصود منه التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص فيه حتى يفهم أنه لابد لكل أحد منه ، وأنه لا محيص لمخلوق عنه ، وعضَّدوا ذلك بما روى فى غير الصحيح عن بعض رواته من الزيادة فقال : (حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء ، وللحجر لما ركب الحجر ، وللعود لما خدش العود) .

قالوا : فظهر من هذا أن المقصود المفيد للاعتبار والتهويل ؛ لأن الجماعات لا تعقل خطابها ولا عقابها وثوابها . ولم يصر إليه أحد من العقلاء ومتخيله من جملة المعتوهين الأغبياء – أجاب بعض من قال إنها تحشر وتبعث بأن قال :

إن من الحكمة الإلهية أن لا يجرى أمر من أمور الدنيا والآخرة إلا على سنة مسنونة ، وحكمة موزونة .

---

(١) نهاية سورة النبأ آية رقم ٤٠ .

(٢) ٤٠ : عبس .

(٣) ٣٨ : الأنعام .

ومن قال هنا بما قالته طائفة من المتوسمة بالعلم ، المتسمة بالفقه والفهم - على الزعْم أن الجامد لا يفقه والحيوان لا يعقل وإنما هو منزل فى الحيوان ولسان حال فى الجامد والنامى ، وقال : إن الله تعالى يقول فى الضالين المكذبين : ﴿ **إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا** ﴾ (١) ولو كان عندها عقل أو فهم ما نزل بالكافر الفاسق إلى درجتها فى موضع التنقيص والتقصير والله - سبحانه - قد وصفه بالموت والصمم فى موضع التبصير والتذكير فقال : ﴿ **ولا تُسمِعُ الصُّمَّ الدعاءَ إذا ولَّوْا مدبرين** ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ **أفأنت تُسْمِع الصُّم أو تَهْدِى العُمْى** ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ **صُمٌّ بُكْم عُمى فهم لا يرجعون ؟** ﴾ (٤) .

قيل له : ليس الأمرُ كما ذكرت ، ولا الحقُّ على شىء مما زعمت ، وأنه ليس عليك من حيث الزعم ، ورؤية النفس فى درجة العلم أبدا من الآية التى وقفت فيها إلى التى قبلها ، إن شئت فارجع بصرك فى الذى رأيت تجده قد وصفهم - عز وجل - بالموت والصمم ، كما وصفهم بالعمى والبكم وليسوا فى الحقيقة الظاهرة بموتى ، ولا صم ، ولا بعميان ولا بكم ، وإنما هم أموات بالعقول والأذهان عن صفة الإيمان وحياة دار الحيوان ، صم عن كلمة الأحياء ، عُمى عن النظر فى مرآة وجوه الأخلاء .

كذلك وصف الأنعام بضُلَّال ، وليست فى الحقيقة بضُلَّال من حيث شرعتها وحكمتها ، وإنما ذلك من حيث فلكها وأفقها فكيف يكون ذلك والله تعالى يقول : ﴿ **وما من دابة فى الأرض** ﴾ إلى قوله : ﴿ **يحشرون** ﴾ (٥)

---

(١) ٤٤ : الفرقان .

(٢) ورد هذا الجزء من الآية نهاية للآية رقم ٨٠ من سورة النمل : ﴿ **إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين** ﴾ والثانية : ﴿ **فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين** ﴾ الروم : ٥٢ .

(٣) ٤٠ : الزخرف .

(٤) ١٨ : البقرة .

(٥) ٣٨ : الأنعام .

فوربك لنحشرنهم جما غفيرا ولنحاسبَنَّ حسابا يسيرا ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ، وأنه تعالى لا يسأل إلا عاقلا ، ولا يحاسب إلا مفضولا وفاضلا .

وإنما جعل لكل موجود من موجوداته فى أشتات الخلائق وأجناس العوالم دار دنيا ودار أخرى ، وجعل لها أفلاكا وأفاقا وظلما وأضواء فكل فى فلكه وأفقه بليله ونهاره وسمعه وبصره وعلمه وفهمه ، وحاكم من عقله أو جهله ، وقائم بنحلته وحكمته وسنته وشرعته فأدنى وأعلى من الروحانية الأقصى إلى الجمادية الأقسى .

فالملائكة الروحانية فى مصافها ترانا من حيث لا نرى ، وتعلم منا أكثر مما نعلم وإنها لتُشاهِد من نقصنا وقلة عقلنا فى الموضع الذى يجب العلم به ، وإهمال العقل فيه ما تحكم به علينا أكثر مما نحكم به على الأنعام من قلة العقل ، وتحقيق المعرفة فمن نظر إلى الأنعام وجدها من حيث نحن ، لا من حيث فلكها وأفقها ، لا تسمع ولا تعقل إلا مَيْزًّما قَدْرَ ما تَتَسَخَّر به وتتذلل طبعا ، فتلقن المراد منها من هذا الفن خاصة لا غير !

وأما ما نحن بسبيله من تصرفات وتعملات فليس لها ذلك من حيث الفلكية التى أحازتها عنا ، والأفقية التى اقتطعتها منا ، فهى فى طرقاتنا ضُلَّال ، وبتعملاتنا وأحوال تصرفاتنا جهال .

وأما من حيث شرعتها وباطن رؤيتها فعارفة عقال ، قال رسول الله ﷺ حين أخذ الجمل القضم الذى ند وامتنع بحائط بنى النجار ، وغلب الخلق عن أخذه والوصول إليه حتى جاء ﷺ ، فلما مشى إليه ورآه الجمل برك لديه ، وجعل يمر بمشفره على الأرض بين يديه تذللا وتسخيرا — فقال ﷺ : « هات الخطام (١) » ، فلما خطمه ، ورأى الناس يعجبون منه رد رأسه إليهم فقال : ألا تعجبون — أو كما قال : « إنه ليس شىء بين السماء والأرض إلا يعلم أنى رسول الله غيرَ عاصى الجن والإنس » .

---

(١) الخطام : كل ما وضع فى أنف البعير ليقتاد به .

وثبت فى الصِّحاح [1] عن النبى ﷺ أنه قال : « ما من دابة إلا وهى مصيخة بأذنها يوم الجمعة تنتظر قيام الساعة » .

وقال ﷺ : « لا يسمع مدى صوت المؤذن : جن ولا إنس ولا شجر ولا مدر [2] ولا شىء إلا شهد له يوم القيامة .

قال المؤلف رحمه الله : خرجه مالك فى موطئه ، وابن ماجه فى سننه ، واللفظ له من حديث أبى سعيد الخدرى .

وقد تقدم أن : « الميت يسمع صوته كل شىء إلا الإنسان » . وفى رواية : « إلا الثقلين » [3] . والأخبار فى هذا المعنى كثيرة قد أتينا على جملة منها فى هذا الكتاب .

فكل حيوان وجماد – محشور ؛ لما عنده من الإدراك والمشاهدة والحضور من حيث هى ، لا من حيث نحن . قال الله تعالى : ﴿ **وإن من شىء إلا يسبح بحمده** ﴾ [4] . وقال : ﴿ **ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال** ﴾ [5] .

وقال عز من قائل : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب** ﴾ [6] .
لا يقال : (إن هذا السجود والتسبيح لسان حال ليس بلسان المقال) . فإنا نقول :

---

(1) أى فى الأحاديث الصحيحة أو فى كتب السنة الصحاح : صحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، والجامع الصحيح للترمذى ، وسنن أبى داود والنسائى وابن ماجه .
(2) المدر : صغار الحصى ، أو قطع الطين اليابس .
(3) الثقلان : الإنس والجن .
(4) ٤٤ : الإسراء .
(5) ١٥ : الرعد .
(6) ١٨ : الحج .

(هذا مجاز والله سبحانه يقص الحق كما أخبر فى كتابه : ﴿ **إنِ الحكمُ إلا لله يقُصُّ الحقَّ** ﴾ [1] ومن نظر بنور الله جاز العينَ إلى المعنى [2] ، وحلَّ الرمزَ وفك المُعَمَّى ، وهم إنما نظروا من حيث هم ، ومن حيث العقل البشرى ، ولم ينظروا الحياة الفلكية من حيث هى ؛ فغابوا عن الحضور ، وجمدوا على القصور ، ﴿ **ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور** ﴾ [3] .

قلت : هذا كله صحيح ؛ لحديث أبى سعيد الخدرى المذكور وهو صحيح ، وكذلك حديث أبى هريرة فى شهادة الأرض بما عمل عليها . وهو صحيحٌ ، وكذلك حديث أبى سعيد الخدرى فى شهادة المال صحيح ، وسيأتى .

وقد روى ليث ابن أبى سليم عن عبد الرحمن بن مروان عن الهزيل عن أبى ذر ، عن النبى ﷺ أنه – مر بشاتين تنتطحان فقال : « إن الله تعالى لَيَقْضِيَنَّ يوم القيامة لهذه الجلحاء من هذه القرناء » .

وذكر ابن وهب : أخبرنى ابن لُهيْعة وعمرو بن الحارث عن بكر ابن سواده أن أبا سالم الجيشانى حدثه أن ثابت بن طريف استأذن على أبى ذر فسمعه رافعا صوته يقول : (أمَا والله لولا يوم الخصومة لسؤتك) . قال ثابت : فدخلت فقلت : ما شأنك يا أبا ذر ؟ قال : هذه ، وما عليك إن رأيتك تضربها ؟ قال : والذى نفسى بيده – أو نفس من بيده – لتُسْأَلن الشاة : فيم نطحت صاحبتها ؟ وليُسْأَلن الجماد : فيم نكب أصبع الرجل ؟) . رواه عن شعبة عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبى ذر قال : رأى رسول الله ﷺ شاتين تنتطحان ! فقال : « يا أبا ذر ، أتدرى فيم تنتطحان ؟ » قلت : لا يا رسول الله قال : « لكن الله يدرى ، ويقضى بينهما يوم القيامة » . أخرجه أبو داود الطيالسى فقال : حدثنا شعبة قال : أخبرنى

---

(١) ٥٧ : الأنعام .

(٢) ٤٠ : سورة النور .

(٣) أى تخطاها وأدرك معناها .

الأعمش ، قال : سمعت منذر الثورى يحدث عن أصحاب له عن أبى بلفظه ومعناه .

وقال عمرو بن العاص – رضى الله عنه : (إذا كان يوم القيامة مُدَّتِ الأرضُ مَدَّ الأديم (١) ، وحُشِرِ الجنُّ والإنسُ والدوابُّ والوحوش فإذا كان ذلك اليوم جعل الله القصاص بين الدوابِّ حتى يقتص للشاة الجَّماء (٢) من القرناء تنطحها ، فإذا فرغ الله من القصاص بين الدواب قال لها : كونى ترابا ، فيقول الكافر : يا ليتنى كنت ترابا !!

وذكره عبد الكريم الإمام أبو القاسم القشيرى فى التحبير له فقال : (وفى خبر الوحوش والبهائم تحشر يوم القيامة ، فتسجد لله سجدة ، فتقول الملائكة : ليس هذا يوم سجود . هذا يوم الثواب والعقاب ، وتقول البهائم : هذا سجود شكر حيث لم يجعلنا الله من بنى آدم !) .

ويقال : إن الملائكة تقول للبهائم : (لم يحشركم الله – جل ثناؤه – لثواب ولا لعقاب وإنما يحشركم تشهدون فضائح بنى آدم) . ذكره القشيرى فى اسمه (المقسط الجامع) وهذا قول ثابت فتأمله .

(فصل)

هل الصيام مختص بفاعله لا يؤخذ منه شىء للمظالم ؟

ظن بعض العلماء أن الصيام مختص بفاعله مُوَفَّرا أجره لا يؤخذ منه شىء لمظلمة ظلمها مستمسكا بقوله تعالى : « الصيام لى وأنا أجزى به » وأحاديث هذا الباب ترد قوله ، وأن الحقوق تؤخذ من سائر الأعمال صياما كان أو غيره .

---

(١) الجلد المدبوغ الذى زال ما فيه من تعاريج .
(٢) الجماء الملساء بلا قرن ، وكذلك الجلحاء .

وقيل : إن الصوم إذا لم يكن معلوما لأحد ولا مكتوبا فى الصحف هو الذى يستره الله ، ويخبئه عليه ؛ حتى يكون له جُنَّة [1] من العذاب ، فَيطرحون أولئك عليه سيئاتهم ، فيذهب عنهم ، ويقيه الصوم فلا يضر أصحابها لزوالها عنهم ولا له ؛ لأن الصوم جنته .

قال القاضى أبو بكر بن العربى فى سراج المريدين : (وهو تأويل حسن إن شاء الله تعالى . ولا تعارض ، والحمد لله) .

بـــاب
من ظلم معاهَدا أو انتقصه فى حقه

روى أبو داود عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب النبى ﷺ : عن آبائهم دِنية عن رسول الله ﷺ قال : « ألا من ظلم معاهَداً أو انتقَصه فى حقه أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه [2] يوم القيامة » . [صححه أبو محمد عبد الحق] .

بـــــاب
فى إرضاء الله تعالى الخصوم يوم القيامــة

... تُرى من يحمل عنّا أوزارنا ؟!

روينا - فى الأربعين - وذكره ابن أبى الدنيا فى كتاب (حسن الظن بالله تعالى) عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : بينما رسول الله ﷺ ذات يوم جالس إذ رأيته ضحك حتى بدت ثناياه [3] فقيل له : مم تضحك يا

---

(١) جُنَّة : أى وقاية .

(٢) حَجيجه : أتولى إقامة الحجة على خصمه وأدافع عن الحق المضيع بالنسبة للمعاهد ، وهو من عقدنا معه عهد أمانٍ .

(٣) الثنايا : هى أسنان مقدم الفم - ثنتان من فوق وثنتان من أسفل والواحدة ثنية . [المنجد] .

رسول الله ؟ قال : « رجلان من أمتى جثيا بين يدى ربى – عز وجل – ، فقال أحدهما : يارب ، خذ لى مظلمتى من أخى ، فقال الله تعالى : أعط أخاك مظلمته ، فقال : يارب ، ما بقى من حسناتى شىء ، فقال : يارب ، فليحمل من أوزارى » ، وفاضت عينا رسول الله ﷺ ثم قال : « إن ذلك اليوم ليوم يحتاج الناس فيه إلى أن تحمل عنهم أوزارهم » ثم قال الله تعالى للطالب حقَّه : ارفع بصرك فانظر إلى الجنان ، فرفع بصره ، فرأى ما أعجبه من الخير والنعمة فقال : لمن هذا يارب ؟ فقال : لمن أعطانى ثمنه . قال : ومن يملك ذلك ؟ قال : أنت ، قال : بم إذاً ؟ قال : بعفوك عن أخيك !، قال : يارب فإنى قد عفوت عنه ، قال : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة ، ثم قال رسول الله ﷺ : « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة » .

فضل الله وكرمه :

وعن عبد الرحمن بن أبى بكرة قال : يجىء المؤمن يوم القيامة قد أخذه صاحب الدين فيقول : دينى على هذا فيقول الله تعالى : أنا أحق من قضى عن عبدى قال : فيرضى هذا من دينه ، ويغفر لهذا) .

وقال ابن أبى الدنيا ، وحدثنى عبد الله بن محمد بن إسماعيل قال : بلغنى أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه : بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى ، وما يكابدون فى طلب مرضاتى !، أتُرانى أنسى لهم عملاً ؟ كيف وأنا أرحم الراحمين بخلقى ؟!! لو كنت مُعاجلاً بالعقوبة أحدا أو كانت العقوبة من شأنى لعاجلت بها القانطين [١] من رحمتى ، ولو يرى عبادى المؤمنون كيف أستوهبهم ممن ظلموه ثم أحكم لمن وهبهم بالخلد المقيم فى جوارى ، إذاً ما اتهموا فضلى وكرمى) .

---

(١) القانطين : اليائسين من رحمة الله .

(فصل)

مَن أولئك الذين يُرضى الله عنهم خصومَهم ؟

قلت : وهذا لبعض الناس ممن أراد الله ألا يعذبه بل يعفو عنه ويغفر له ، ويرضى عنه خصمه .

وقد يكون هذا فى الظالمين الأوابين وهو قوله تعالى : ﴿ **إنه كان للأوابين غفورا** ﴾ [1] والأوَّاب : الذى أقلع عن الذنب فلم يعد إليه كذا تأوله أبو حامد ، وهو تأويل حسن .

أو يكون ذلك فيمن يكون له خبيئة حسنة من عمل صالح يغفر الله له به ويرضى خصماؤه كما تقدم .

وظاهر حديث أنس الخصوص بذينك [2] الرجلين لقوله : رجلان ولفظ التنثية لا يقتضى الجمع ، إلا ما روى فى الحديث : « مثل المنافق كالشاة العابرة بين الغنمين » [خرجه مسلم] ، وليس هذا موضعه ، ولو كان ذلك فى جميع الناس ما دخل أحد النار .

وكذلك ما روى عن النبى ﷺ : « ينادى منادٍ من تحت العرش يوم القيامة ، يا أمةَ محمدٍ ، أمَّا ما كان لى قِبَلَكُم فقد وهبتُه لكم ، وبقيت التبعات ؛ فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتى . ما دخل أحد النار » . وهذا واضح . فتأمله .

* * *

---

(١) ٢٥ : الإسراء .

(٢) بذَينك : عندما نشير إلى رجل نقول : ذا رجل وذا اسم إشارة للقريب ، وعند الإشارة إلى اثنين : ذان ، وذين والجمع أولاء .

وتدخله هاء التنبيه فنقول : هذا . هذان وهذين . هؤلاء .

وذاك اسم إشارة للمتوسط بعدا وقربا ، ومثناه ذان رفعا وذين نصبا وجرا .

وعند الإشارة للبعيد نقول : ذلك . فذا اسم إشارة واللام للبعد ، والكاف حرف خطاب (فيكون معنى بذينك : أى بهذين) وفى القرآن : ﴿ **فذانك برهانان من ربك** ﴾ [٣٢ : القصص] .

باب
أول من يُحاسَب (أمة محمد ﷺ)

روى ابن ماجه عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « نحن آخرُ الأمم ، وأول من يحاسَب ؛ يقال : أين الأمةُ الأمّيةُ ونبيُّها ؟ فنحن الآخِرون الأوَّلون » .

وفى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما : « فتفرج لنا الأمم عن طريقنا فنمضى غُرًّا محجلين من آثار الوضوء ، فتقول الأمم : كادت هذه الأمة أن تكون أنبياءَ كلها » . [خرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده بمعناه] . وقد تقدم .

* * *

(باب)

أول ما يحاسَبُ عليه العبد من عمله : الصلاة

وأول ما يُقْضَى فيه بين الناس : الدماء ، وفى أول من يدعى للخصومة

روى مسلم – عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « أول ما يُقضى بين الناس – يوم القيامة – فى الدماء » [أخرجه البخارى أيضا والنسائى والترمذى] . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وللنسائى – أيضا – أن رسول الله ﷺ قال : « أول ما يحاسَب عليه العبد الصلاة ، وأول ما يُقضَى بين الناس : الدماء » .

وفى البخارى عن على بن أبى طالب – رضى الله عنه – قال : « أنا أول من يجثو يوم القيامة بين يدى الرحمن للخصومة » يريد : قِصته فى مبارزته هو وصاحباه الثلاثة من كفار قريش .

قال أبو ذر : ﴿ هذان خصمان اختصموا فى ربهم ﴾ (١) الآية والخبر بهذا مشهور صحيح خرجه البخارى ومسلم وغيرهما .

وعن محمد بن كعب القرظى عن رجل من الأنصار ، عن أبى هريرة قال : « حدثنا رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه ، فيكون أول ما يقضى بينهم فى الدماء ويأتى كل قتيل قُتِل فى سبيل الله ، فيأمر الله كل من قتل فيحمل رأسه وتشخب أوداجه (٢) دما ، فيقول : يارب ، سل هذا . فيم قتلنى ؟!

---

(١) ١٩ : الحج ، قال الطبرى : ادعى كل فريق منهم أنه أفضل دينا . نزلت فى حمزة وعلى ، وعبيدة بن الحارث من أصحاب رسول الله ﷺ ورحمهم ، وفى عتبة ، وشيبة ، والوليد بن عتبة من المشركين يوم بدر . إذ تبارزوا . وقيل عنى بالخصمين جميع الكفار وجميع المؤمنين . واختصامهم معاداة كل فريق منهم الآخر .

(٢) الأوداج : جمع ودج ، والمقصود : العروق والودجان : عرقان على جانبى الرقبة يظهران منتفخين عند الغضب فيقال : (انتفخت أوداجه) ويشترط الأحناف قطع أحد الودجين عند الذبح لتنساب الدماء ولا تحتبس فيما يذبح .

فيقول الله تعالى له – وهو أعلم – : فيم قتلته ؟ فيقول : يارب قتلته ؛ لتكون العزة لك . فيقول الله تعالى : صدقتْ . فيجعل الله وجهه مثل نور الشمس ، ثم تشيعه الملائكة إلى الجنان ثم يأتى كل من قتل يحمل رأسه ، وتشخب أوداجه دما فيقول : يارب ، سل هذا . فيم قتلنى ؟ فيقول له – وهو أعلم – : فيم قتلته ؟ فيقول : رب قتلته ، لتكون العزة لى ، فيقول الله تعالى : تَعِسْت [1] !! ثم لا تبقى قتلة إلا قتل بها ولا مظلمة ظلمها إلا أخذ بها ، وكان فى مشيئة الله تعالى : إن شاء عذبه ، وإن شاء رحمه » [خرجه الغيلانى أبو طالب محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان عن أبى بكر محمد بن عبد الله ابن إبراهيم بن عبد الله البزار المعروف بالشافعى] . حدثنا أبو قلابة عبد الملك ابن محمد الرقاشى ، حدثنا أبو عاصم الضحاك عن مخلد ، حدثنا إسماعيل بن رافع عن محمد بن زياد ، عن محمد بن كعب ، وخرجه إسماعيل بن إسحاق القاضى من حديث نافع بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عباس قال : سمعت نبيكم ﷺ يقول : « يأتى المقتول مغلَّقاً رأسُه بإحدى يديه متلببا [2] قاتله بيده الأخرى تشخب أوداجه دما حتى يوقفا . فيقول المقتول لله – سبحانه وتعالى – : هذا قتلنى !، فيقول الله سبحانه وتعالى للقاتل : تعست ، ويُذْهَبُ به إلى النار » . وخرجه ابن المبارك موقوفا على عبد الله بن مسعود [3] قال : حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم عن أبى وائل ، عن عبد الله فذكره بمعناه .

وخرجه الترمذى فى جامعه قال : حدثنا الحسن بن محمد الزعفرانى قال : حدثنا شبابة ، قال : حدثنا ورقاء بن عمر عن عمرو بن دينار ، عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « يجىء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته [4]

---

(١) دعاء عليه بالشقاء والهلاك ، وفى القرآن : ﴿ **فتعسا لهم** ﴾ [٨ : محمد] والتعس : الهلاك والشر والانحطاط ، ومعنَى تعْسًا له : أى ألزمه الله هلاكا .

(٢) متلببا : آخذا بتلابيبه .

(٣) الحديث الموقوف : ما يروى عن الصحابة – رضى الله عنهم – من أقوالهم وأفعالهم ونحوها ؛ فيوقف عليهم ولا يتجاوز به إلى رسول الله ﷺ .

(٤) الناصية : مقدم الرأس .

ورأسه بيده ، وأوداجه تشخب دما يقول : يارب ، قتلنى هذا ، حتى يدنيه من العرش » . قال : هذا حديث حسن غريب .

مالك عن يحيى بن سعيد قال : (بلغنى أن أول ما ينظر فيه من عمل المرء : الصلاة فإن قبلت منه نظر فيما بقى من عمله ، وإن لم تقبل منه لم يُنْظَر فى شىء من عمله) .

قلت : وهذا الحديث – وإن كان موقوفا بلاغا (١) – فقد رواه أبو داود والترمذى والنسائى مرفوعا بهذا المعنى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أول ما يحاسب به الناس يوم القيامة من أعمالهم الصلاة » قال : « يقول ربنا – عز وجل – لملائكته : انظروا فى صلاة عبدى أتمها أم نقصها ؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئا قال : انظروا هل لعبدى من تطوع ؟ فإن كان له تطوع قال : أتموا لعبدى فريضته من تطوعه ، ثم تؤخذ الأعمال » على ذلك لفظ أبى داود ، وقال الترمذى : حديث حسن غريب وخرجه ابن ماجة أيضا .

* * *

(١) فبالنظر إلى أن يحيى بن سعيد قال : (بلغنى) ولم يرفعه فهو موقوف عليه بلاغا . وبالنظر إلى أن رواية الترمذى والنسائى وأبى داود تجاوزت أبا هريرة إلى النبى ﷺ فهو مرفوع .

(فصل)

إكمال الفريضة من التطوع – ومتى يتم ذلك ؟

قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله :

(أما إكمال الفريضة من التطوع فإنما يكون ذلك – والله أعلم – فيمن سها عن فريضة فلم يأت بها ، أو لم يحسن ركوعها وسجودها ولم يدر قدر ذلك) .

وأما من تعمد تركها أو شيئا منها ، ثم ذكرها ، فلم يأت بها عامدا واشتغل بالتطوع عن أداء فرضه وهو ذاكر له فلا تكمل له فريضته تلك من تطوعه . والله أعلم .

وقد روى من حديث الشاميين فى هذا الباب حديث منكر [1] يرويه محمد بن حمير عن عمرو بن قيس السكرى عن عبد الله بن قرط عن النبى ﷺ قال : « من صلى صلاةً لم يكمل فيها ركوعه وسجوده وخشوعه زيد فيها من تسبيحاته حتى تتم » ثم قال أبو عمرو : هذا لا يحفظ عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه ، وليس بالقوى ، وإن كان صح ، كان معناه أخرج من صلاة قد أتمَّها عند نفسه ، وليست فى الحكم بتامة .

قلت : ينبغى للإنسان أن يحافظ على أداء فرضه فيصليه كما أمر من إتمام ركوع وسجود ، وحضور قلبٍ ، فإن غفل عن شيء من ذلك فيجتهد بعد ذلك فى نفله. ولا يتساهل فيه ، ولا فى تركه ، ومن لا يحسن أن يصلى الفرض فأحرى ألا يحسن النفل لا جرم ، بل تنفل الناس فى أشد ما يكون من النقصان والخلل فى التمام لخفة النفل عندهم ، وتهاونهم به .

---

(١) المنكر : هو الحديث الذى فى إسناده راوٍ فحش غلطه أو كثرت غفلته أو ظهر فسقه ، وهو تعريف ذكره ابن حجر ونسبه لغيره .

أما التعريف المعتمد عند ابن حجر فهو : ما رواه الضعيف مخالفا لما رواه الثقة .

ولعمرو الله لقد يشاهد فى الوجود من يشار إليه ويظن به العلم بنفله كذلك ، بل بفرضه ؛ إذ ينقره نقر الديك [1] ، فكيف بالجهال الذين لا يعلمون .

وإذا كان هذا فكيف يكمل بهذا النفل ما نقص من الفرض ؟ هيهات هيهات ! فاعلموا أن الصلاة إذا كانت بهذه الصفة دخل صاحبها فى معنى قول الله تعالى : ﴿ **فخلف من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يَلْقَوْن غياً** ﴾ [2] .

وقال جماعة من العلماء : التضييع للصلاة هو ألا يقيم حدودها من مراعاة وقت وطهارة ، وتمام ركوع وسجود ، ونحو ذلك وهو مع ذلك يصليها ، ولا يمتنع عن القيام بها فى وقتها وغير وقتها .

قالوا : فأما من تركها أصلا ولم يصلها فهو كافر .

وروى الترمذى عن أبى مسعود الأنصارى قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجزى صلاة لا يقيم الرجل فيها صلبه فى الركوع والسجود » . وقال : حديث حسن صحيح . والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ ومن بعدهم يرون أن يقيم الرجل صلبه فى الركوع والسجود .

قال الشافعى وأحمد وإسحاق : من لم يقم صلبه فى الركوع والسجود فصلاته فاسدة لحديث النبى ﷺ : « لا تُجزىء صلاةٌ لا يقيم الرجلُ فيها صُلْبَه فى الركوع والسجود » [3] .

وروى البخارى عن زيد بن وهب عن حذيفة – ورأى رجلا لا يتم ركوعه ولا سجوده ، فلما قضى صلاته قال له حذيفة : (ما صليت ، ولو

---

(1) نقر الديك : أى يخطف الركعات ويسرع فى أداء الحركات كما يلتقط الديك الحَبَّ وينقره بمنقاره .

(2) سبقت وتحدثنا عن الفرق بين الخلْف والخلَف .

(3) والصلب الظهر ، ومعنى لا يقيمه أى لا يحسنه فلا يستوى راكعا ولا يستوى ساجدا ؛ وعند ذلك لا تكون هناك إقامة للصلاة على وجهها .

مِتَّ مِتَّ على غير سنة محمد ﷺ) وأخرجه النسائى أيضا عنه عن حذيفة أنه رأى رجلا يصلى فخفف ، فقال له حذيفة : منذ كم تصلى هذه الصلاة ؟ قال : منذ أربعين عاما . قال : ما صليت ، ولومِتَّ وأنت تصلى هذه الصلاة لمت على غير فطرة النبى ﷺ ثم قال : إن الرجل ليخفف الصلاة ويتم ويحسن . والأخبار فى هذا المعنى كثيرة جدا قد أتينا عليها فى غير هذا الباب وهى تبين لك المراد من قوله تعالى : ﴿ **أضاعوا الصلاة** ﴾ (١) .

وروى النسائى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة صلاته ، فإن وجدت تامة كتبت تامة وإن كان انتقص منها شيئا قال : انظروا هل تجدون له من تطوع » يكمل له ما ضيع من فريضته من تطوع ، ثم سائر الأعمال تجرى على ذلك .

وهذا نص . وقال عمر رضى الله عنه : « ومنْ ضيعها فهو لما سواها أضيع » قلت : ولا اعتبار بقول من قال : إن من الواجب الفصل بين أركان الصلاة وهذا الفصل بين أركانها أقل ما ينطلق عليه الاسم – وهو أبو حنيفة – وأشار إلى ذلك القاضى عبد الوهاب فى تلقينه ، وهو يروى عن ابن القاسم ؛ لأن من اقتصر على ذلك صدق عليه أنه نقر الصلاة ، فدخل فى الذم المترتب على ذلك بقوله عليه السلام : « تلك صلاة المنافقين يجلس يرقب الشمس ، حتى إذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقر أربعا منها لا يذكر الله فيها إلا قليلا » رواه مالك فى موطئه ومسلم فى صحيحه والأحاديث الثابتة تقضى بفساد صلاته كما بيناه مع قوله عليه السلام . أما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فقمن أن يستجاب لكم . [خرجه مسلم] .

وفى موطأ مالك عن يحيى بن سعيد عن النعمان بن مرة الأنصارى أن رسول الله ﷺ قال : « ما ترون فى الشارب والسارق والزانى ؟ » قال : وذلك قبل أن ينزل فيهم . قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « هن فواحش ، وفيهن عقوبة ، وأسوأ السرقة الذى يسرق صلاته . قال : لا يتم ركوعها ولا سجودها » .

---

(١) مريم : ٥٩ .

وروى أبو داود الطيالسى فى سنده قال : حدثنا محمد بن مسلم بن أبى الوضاح عن الأحوص بن حكيم عن خالد بن مندال عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أحسن الرجل الصلاة فأتم ركوعها وسجودها ، قالت الصلاة : حفظك الله كما حفظتنى فترفع ، وإذا أساء الصلاة ، فلم يتم ركوعها ولا سجودها قالت الصلاة : ضيعك الله كما ضيعتنى !، فتُلَفّ كما يلف الثوب الخلَق فيضرب بها وجه صاحبها !

فمن لم يحافظ على أوقات الصلاة لم يحافظ على الصلاة !! كما أن من لم يحافظ على وضوئها وركوعها وسجودها فليس بمحافظ عليها ، ومن لم يحافظ على وضوئها وركوعها وسجودها فليس بمحافظ عليها ومن لم يحافظ عليها فقد ضيعها ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع ، كما أن من حافظ عليها حفظ دينه ولا دين لمن لا صلاة له !!

* * *

ما منعـــك ؟

روى ابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله ليسألُ العبد يوم القيامة حتى يقولَ له : ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإذا لقن الله عبدا حجته قال : يارب رجوتك ، وفَرِقْتُ (١) من الناس » . ورواه الفريابى قال : حدثنا سفيان عن زيد عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى عن أبى سعيد الخُدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يُحَقِّرنَّ أحدُكم نفسه إذا رأى أمر الله عليه فيه مقال ، فلا يقول فيه ، فيقال يوم القيامة : ما منعك إذا رأيت كذا وكذا أن تقول فيه ؟ فيقول له : أَىْ ربى ، خفت الناس . فيقال : إيایَ كنت أحق أن تخاف » !

قال الوائلى أبو نصر : ورواه أحمد بن عبد الله بن يونس أبو عبد الله اليربوعى الكوفى ، قال : حدثنا زهير ، قال : حدثنا عمرو بن قيس عن عمرو ابن مرة ، المعنى واحد ، وهذا محفوظ من الطريقين عن عمرو بن مرة ومخرجه من الكوفة .

لماذا لم تدفع الظلـم ؟

ذكر أبو نعيم الحافظ : حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر من أصل كتابه ، حدثنا عبد الله بن محمد بن زكريا ، حدثنا : إسماعيل بن عمرو ، حدثنا : مندل عن أسد بن عطاء ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يَقِفَنَّ أحدكم على رجل يُضْرَب ظلما ؛ فإن اللعنة تنزل من السماء على من حضره إذا لم تدفعوا عنه ، ولا يقفن أحدكم على رجل يُقتل ظلما ؛ فإن اللعنة تنزل من السماء على من حضره إذا لم تدفعوا عنه » هذا حديث غريب من حديث أسد وعكرمة ، لم يروه عنه فيما أعلم إلا مندل بن على الغنوى .

* * *

(١) الفَرَق : الخوف .

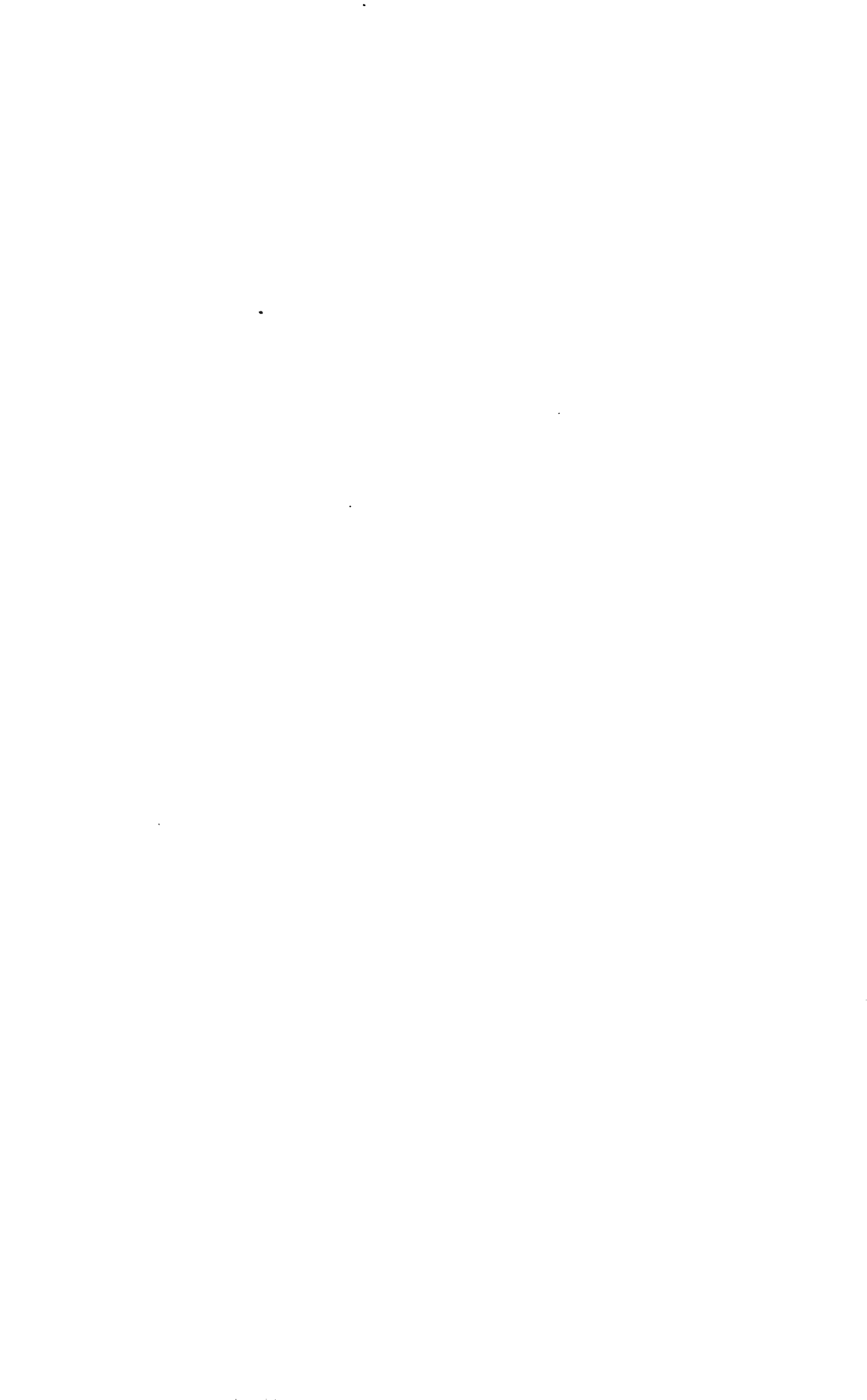
الباب السادس

الشهادة على الأرض الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وأشرقتِ الأرضُ بنورِ ربِّها !!
وَوُضعَ الكتابُ !!
وجِيءَ بالنبيِّينَ والشُّهداء !!
وقضى بينهم بالحق !!
وهم لا يُظْلَمون !! ﴾

[الزمر : ٦٩]



بين يدى هذا الباب :

يصحبنا (الإمام القرطبى) فى هذا اليوم ، ليتم ما بدأ .. حيث ينتقل بنا من موقف إلى موقف ، ومن مشهد إلى آخر .. واليوم يُخْتَمُ على الأَفْواه .. وتتكلم الأيدى ، وتشهد الأرجل .. والجلود ! حقا إنه ليوم مشهود !!

وفى عرض رائع ممتع يقدم – لنا – ما جاء فى شهادة أركان الكافر والمنافق عليهما ، ويصور ذلك اللقاء مع الله عز وجل لهما .. وكيف يلقيانه ؟ وبأى وجه ؟!

ثم يقدم ما هو أبلغ فى العبرة والعظة ... شهادة الأرض والليالى والأيام بما عمل فيها وعليها ،.. وشهادة المال على صاحبه !!

ويقف وقفة متأنية مع قول الله تعالى : ﴿ **وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد** ﴾ ولا يفوته أن يبصرنا بخطر الشهادة فى الدنيا ، فكل ما شهد به العبد فى الدنيا يشهد به يوم القيامة .

ولا ينتهى حتى يعرض علينا ما جاء فى سؤال الأنبياء !!

ثم يبين أن الأمة الإسلامية سوف تشهد – للأنبياء – على أممهم !!

وأخيرا يحدثنا عن الشهداء عند الحساب ..!!

ويختم هذا الباب .. – وختامه مسك – بما جاء فى شهادة النبى ﷺ على أمته .

.. لن أحول بينك وبين متعتك بمصاحبة القرطبى .. فخذنى معك ..

(باب)

ما جاء فى شهادة أركان الكافر والمنافق عليهما ولقائهما الله عز وجل

قال الله تعالى : ﴿ **اليومَ نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾ (١) . وقال : ﴿ **يوم تشهدُ عليهم ألسنتهُم وأيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملون** ﴾ (٢) . وقال : ﴿ **وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ...** ﴾ (٣) الآية . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة من حديث معاوية ابن حيدة القرشي أن النبى ﷺ قال : « تجيئون يوم القيامة على أفواهكم الفدام (٤) ، وأول ما يتكلم من الإنسان فخذه وكفه » ، وقد تقدم .

مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا عند وسول الله ﷺ فضحك فقال : « هل تدرون لم أضحك ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « من مخاطبة العبدَ ربه ، يقول : يارب ، ألم تجرنى من الظلم ؟ قال : يقول : بلى . قال : فيقول : فإنى لا أُجيزُ على نفس إلا شاهدا منى . قال : كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، وبالكرام الكاتبين شهودا . قال : فيختم على فيه . فيقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بأعماله . قال : ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام قال : فيقول : بُعْداً لكن وسُحْقاً فعنكن كنت أُناضل » .

وروى الترمذى عن أبى سعيد وأبى هريرة : قالا : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول : ألم أجعل لك سمعا وبصرا ومالاً وولدا ؟ وسخرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس وتربع فكنت تظن أنك مُلَاقِيَّ يومك هذا ؟ فيقول : لا . فيقول : اليوم أنساك كما نسيتنى » . قال : هذا

---

(١) ٦٥ : يس .
(٢) ٢٤ : النور .
(٣) ٢١ : فصلت .
(٤) ما يشبه المصفاة (الكمامة) .

حديث صحيح غريب . وأخرجه مسلم عن أبى هريرة بأطول من هذا وقد تقدم .

وروى البخارى عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : « يُجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له : أرأيت لو كان لك مِلءُ [1] الأرض ذهبا كنت تفتدى به ؟ فيقول : نعم . فيقال له : قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك » وأخرجه مسلم وقال : بدل : « قد كنت » « كذبت قد سئلت ما هو أيسر من ذلك » .

ما المراد بقوله : « وتركتك ترأس وتربع ؟ »

قوله : « وتركتك ترأَسُ وتربَع » أي : ترأَسُ على قومك ، بأن يكون رئيسا عليهم ، ويأخذ الربع مما يحصل لهم من الغنائم والكسب ، وكانت عادتهم أن أمراءهم كانوا يأخذون من الغنائم الربع ويسمونه المِرْباع قال شاعرهم :

لك المرباع منها . والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

وقال آخر :

منا الذى ربع الجيوش لصلبه عشرون وهو يعد فى الأحياء

يقال : ربع الجيش يربعه رباعة إذا أخذ ربع الغنيمة . قال الأصمعى : ربع فى الجاهلية ، وخمس فى الإسلام .

وقوله : « اليوم أنساك كما نسيتنى » . أى : اليوم أتركك فى العذاب كما تركت عبادتى ومعرفتى .

---

(١) ملء ، وجزء ، وكل همزة وقعت فى نهاية الكلمة وقبلها ساكن صحيح أو معتل تكتب على السطر ، ومثال الهمزة التى قبلها ساكن معتل : سماء . ضوء . وضوء . بطىء .

ما معنى اليوم أنساك كما نسيتنى ؟

وقوله « اليوم أنساك كما نسيتنى » أى : اليوم أتركك فى العذاب كما تركت عبادتى ومعرفتى .

هل يلقى الكافر ربه ويسأله ؟

فإن قيل : فهل يلقى الكافر ربه ويسأله ؟

قلنا : نعم ؛ بدليل ما ذكرنا . وقد قال الله تعالى : ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم** ﴾ [1] فى أحد التأويلين .

وقال : ﴿ **ولو ترى إذ وُقِفُوا على ربهم** ﴾ [2] وقال : ﴿ **أولئك يعرضون على ربهم** ﴾ [3] وقال : ﴿ **وعرضوا على ربِّك صفا** ﴾ [4] الآيتين . وقال : ﴿ **إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم** ﴾ [5] وقال : ﴿ **وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ولَيُسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون** ﴾ [6] والآى فى هذا المعنى كثير .

كيف نوفق بين الآى والأخبار فيما جاء عن الحساب وعدمه ؟

فإن قيل فقد قال الله تعالى : ﴿ **يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام** ﴾ [7] .

وقال عليه السلام : « يخرج عنق من النار فيقول : وُكِّلت بثلاث : بكل جبار عنيد ، وكل من جعل مع الله إلها آخر ، وبالمصورين » قلنا : هذا يحتمل أن يكون بعد الوزن والحساب وتطاير الكتب .

---

(١) ٦ : الأعراف .
(٢) ٣٠ : الأنعام .
(٣) ١٨ : هود .
(٤) ٤٨ : الكهف .
(٥) ٢٥ – ٢٦ : الغاشية .
(٦) ١٢ – ١٣ : العنكبوت .
(٧) ٤١ : الرحمن .

أول ما يتكلم من الإنسان فخذه !

ماذا يحتمل هذا القول النبوى الشريف من معان ؟

قوله عليه الصلاة والسلام : « فأول ما يتكلم من الإنسان فخذه » يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون ذلك زيادة فى الفضيحة والخزى على ما نطق به الكتاب فى قوله : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ [1] لأنه كان فى الدنيا يجاهر بالفواحش ، ويخلو قلبه عندها من ذكر الله تعالى ، فلا يفعل ما يفعل خائفا مشفقا ، فيجزيه الله بمجاهرته بفحشه على رءوس الأشهاد .

والوجه الآخر : أن يكون هذا فيمن يقرأ كتابه ، ولا يعترف [2] بما ينطق به ، بل يجحد ، فيختم الله على فيه عند ذلك ، وتنطق منه الجوارح التى لم تكن ناطقة فى الدنيا ، فتشهد عليه سيئاته .

وهذا أظهر الوجهين . يدل عليه : أنهم يقولون لجلودهم . أى : لفروجهم فى قول زيد بن أسلم : لم شهدتم علينا ؟ فتمردوا فى الجحود ، فاستحقوا من الله الفضح والإخزاء نعوذ بالله منهما . فى اليمين والشمال ، وسؤال الخلق ، كما تقدم ، ويدل عليه قوله : « وبالمصورين » فإنهم وإن كانوا موحدين فلا بد لهم من سؤال وحساب وبعده يكونون أشد الناس عذابا ، وإن كانوا كافرين مشركين فيكون ذكرهم تكرارا فى الكلام . على أنا نقول :

قال بعض العلماء : ذكر الله تعالى الحساب جملة ، وجاءت الأخبار بذلك ، وفى بعضها ما يدل على أن كثيرا من المؤمنين يدخلون الجنة بغير حساب ، فصار الناس إذاً ثلاث فرق :

---

(١) ٢٩ : الجاثية .

(٢) فى الأصل ولا يعرف . والمناسب للسياق ولا يعترف .

- فرقة لا يحاسبون أصلا .
- وفرقة تحاسب حسابا يسيرا وهما من المؤمنين .
- وفرقة تحاسب حسابا شديدا يكون منها مسلم وكافر .

وإذا كان من المؤمنين من يكون أدنى إلى رحمة الله ، فلا يبعد أن يكون من الكفار من هو أدنى إلى غضب فيدخله النار بغير حساب وقد ذكر ابن المبارك فى دقائقه عن شهر بن حوشب عن ابن عباس أن بعد أخذ النار هؤلاء تنشر الصحف ، وتوضع الموازين وتدعى الخلائق للحساب .

العموم فى الآيات الواردة بشأن حجب الكفار وعدم سؤالهم أو تكليمهم :

فإن قيل فقد قال الله تعالى :

﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ [1] وقال : **﴿ ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾** [2] وقال : **﴿ ولا يُكَلِّمهم الله ﴾** [3] .

وهذا يتناول بعمومه جميع الكفار ، قلنا : القيامة مواطن :

- فموطن يكون فيه سؤال وكلام .
- وموطن لا يكون ذلك ؛ فلا يتناقض الآى والأخبار . والله المستعان .

قال عكرمة : القيامة مواطن ، يسأل فى بعضها ، ولا يسأل فى بعضها ، وقال ابن عباس : لا يسألون سؤال شفا وراحة وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ ، لم عملتم كذا وكذا ؟

---

(١) ١٥ : المطففون .
(٢) ٧٨ : القصص .
(٣) ١٧٤ : البقرة .

والقاطع لهذا قوله تعالى : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون** ﴾ [1] .

قال أهل التأويل عن : « لا إله إلا الله » . وقد قيل إن الكفار يحاسبون بالكفر بالله الذى كان طول العمر دثارهم وشعارهم [2] وكل دلالة من دلائل الإيمان خالفوها وعاندوها فإنهم يكتبون عليها ويسألون عنها عن الرسل وتكذيبهم إياهم لقيام الدلائل على صدقهم .

وقال تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولْنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون ولَيحملُن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ولَيُسألُن يوم القيامة عما كانوا يفترون** ﴾ [3] .

والآى فى هذا المعنى كثيرة ، ومن تأمل آخر سورة (المؤمنون) ﴿ **فإذا نفخ فى الصور** ﴾ إلى آخرها تبين له الصواب فى ذلك والحمد لله على ذلك .

وذكر ابن المبارك ، عن شهر بن حوشب ، عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن بعد أخذ النار هؤلاء الثلاثة تنشر الصحف ، وتوضع الموازين ، ويدعى الخلائق للحساب . وشهر ضعفه مسلم فى كتابه وغيره .

ماذا يراد بالحساب فيما ورد « لا يحاسب رجل يوم القيامة إلا دخل الجنة ؟ »

فإن قيل : قد ذكر اللالكائى فى سننه عن عائشة رضى الله عنها قالت : « لا يحاسب رجل يوم القيامة إلا دخل الجنة » قالوا : ولأن الحساب إنما يراد

---

(١) ٩٢ : الحجر .

(٢) أى أنهم كفروا بالله الذى نعمه عليهم ظاهرة وباطنة تغطيهم وتسترهم كالدثار والشعار . فالدثار : ما يتدثر به الإنسان ويتغطى كالملاءة وغيرها من اللحف ومنه : « دثرونى دثرونى » ونزلت الآية : ﴿ **يأيها المدثر** ﴾ أما الشعار فهو ما رق من الثياب ولامس الجسد كالقمص وغيرها . ويقول القاموس : الدثار ما فوق الشعار .

(٣) ١٢ ، ١٣ : العنكبوت .

للثواب والجزاء ، ولا حسنات للكافر فيجازى عليها بحسابه ؛ ولأن المحاسب له هو الله - سبحانه وتعالى - وقد قال : ﴿ **ولا يكلمهم الله يوم القيامة** ؟ ﴾ [١] .

قلنا : ما روى عن عائشة ، قد خالفها غيرها فى ذلك ، للآيات والأحاديث الواردة فى ذلك وهو الصحيح .

ومعنى : ﴿ **ولا يكلمهم الله** ﴾ أى : بما يحبونه . قال الطبرى : وفى التنزيل : ﴿ **اخسئوا فيها ولا تُكلمون** ﴾ [٢] .

وقد قيل : إن معنى قوله تعالى : ﴿ **ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون** ﴾ [٣] ﴿ **فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان** ﴾ [٤] سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين . أى أن الملائكة لا تحتاج أن تسأل أحدا يوم القيامة أن يقال :

ما كان دينك ؟ وما كنت تصنع فى الدنيا؟ حتى يتبين لهم بإخباره عن نفسه أنه كان مؤمنا أو كان كافرا لكن المؤمنين يكونون ناضرى الوجوه منشرحى الصدور !!

ويكون المشركون سود الوجوه زرقا مكروبين ؛ فهم إذا كلفوا سوق المجرمين إلى النار وتمييزهم فى الموقف كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم .

ومن قال هذا فيحتمل أن يقول :

إن الأمر يوم القيامة يكون بخلاف ما هو كائن قبله على ما وردت به الأخبار من سؤال الملكين : الميت إذا دفن وانصرف الناس عنه فيسألونه عن ربه ودينه ونبيه ، أى إذا كان يوم القيامة لم تسأل الملائكة - عند الحاجة إلى تمييز فريق - عن هذا ؛ لاستغنائهم بمناظرهم عما وراءها .

---

(١) ١٧٤ : البقرة .
(٢) ١٠٨ : المؤمنون .
(٣) ٧٨ : القصص .
(٤) ٣٦ : الرحمن .

ومن قاله يحتج بقوله تعالى : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون** ﴾ (١) . أخبر أنه يسألهم عن أعمالهم . وهذه الآية فى الكافرين .

ومن قال : يسألهم عن أصل كفرهم ثم عن تجريدهم إياه فى كل وقت باستهزائهم بآيات الله تعالى ورسله فقد سألهم عما كانوا يعملون . وذلك هو المراد .

* * *

(١) ٩٢ : الحجر .

بـــاب

(١) فى شهادة الأرض والليالى والأيام بما عمل فيها وعليها .

(٢) وفى شهاد المال على صاحبـه .

(٣) وفى قوله تعالى : ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ (١) .

روى **الترمذى** عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **يومئذ تحدثُ أخبارها** ﴾ (٢) قال : « أتدرون ما أخبارها ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كُلٍّ : عبداً أو أمةً بما عمل على ظهرها ، تقول : عمل يوم كذا ... كذا وكذا . فهذه أخبارها » قال : حديث حسن صحيح غريب .

أبو نعيم : عن معاوية بن قرة عن معقل بن يسار عن النبى ﷺ قال : « ليس من يوم يأتى على ابن آدم إلا ينادى فيه : يا ابن آدم ، أنا خلق جديد ، وأنا فيما تعمل عليك غدا شهيد ، فاعمل فىّ خيرا ، أشهد لك به غدا ؛ فإنى لو مضيت لم ترنى أبدا (٣) ، ويقول الليل مثل ذلك » . غريب من حديث معاوية . تفرد عنه زيد العمى ، ولاِ أعلمه مرفوعا عن النبى ﷺ إلا بهذا الإسناد .

ابن المبارك : عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : من سجد فى موضع عند شجر أو حجر شهد له عند الله يوم القيامة . قال : وأخبرنى ابن أبى خالد – رضى الله عنه – قال : سمعت أبا عيسى يحيى بن رافع يقول : سمعت عثمان بن عفان – رضى الله عنه – يقول : ﴿ **وجاءت كل نفس معها**

---

(١) ٢١ : ق .

(٢) ٤ : الزلزلة .

(٣) لأن ما فات لن يعود .

سائق وشهيد ﴾ [1] قال : سائق يسوقها إلى أمر الله ، وشاهد ليشهد عليها بما عملت .

وخرج مسلم : من حديث سعيد الخدرى عن النبى ﷺ وفيه : « وإن هذا المال خضر حلو ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل » أو كما قال رسول الله ﷺ : « وإنه من يأخذه بغير حقه كالذى يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة » وقد تقدم أنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر [2] إلا شهد له يوم القيامة . [رواه أبو سعيد الخدرى عن النبى ﷺ ورواه الأئمة : مالك وغيره] .

قال المؤلف : فتفكر يا أخى - وإن كنت شاهدا عدلا - بأنك مشهود عليك فى كل أحوالك من فعلك ومقالك ، وأعظم الشهود لديك المطلع عليك الذى لا تخفى عليه خافية عين ولا يغيب عنه زمان ولا أين ، قال الله تعالى : ﴿ **ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه** ﴾ [3] . فاعمل عمل من يعلم أنه راجع إليه وقادم عليه يجازى على الصغير والكبير ، والقليل والكثير ، سبحانه لا إله إلا هو .

لا يشهد العبد على شهادة فى الدنيا
إلا شهد بها يوم القيامــة

روى **ابن المبارك** : قال : أخبرنا رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبى هلال عن سليمان بن راشد أنه بلغه أن امرأ لا يشهد على

---

(١) ٢١ : ق .

(٢) المدر : صغار الحصى . أو الطين المتجمد .

(٣) ٦١ : يونس .

شهادة فى الدنيا إلا شهد بها يوم القيامة على رءوس الأشهاد ولا يمتدح عبدا فى الدنيا إلا امتدحه يوم القيامة على رءوس الأشهاد .

قلت : هذا صحيح ، يدل على صحته من الكتاب والسنة قول الحق : ﴿ **ستكتب شهادتهم ويُسْأَلون** ﴾ [1] وقوله : ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ [2] . والله أعلم .

* * *

(١) ١٩ : الزخرف .
(٢) ١٨ : ق .

بـــاب ما جاء فى :

سؤال الأنبياء ، وفى شهادة هذه الأمة للأنبياء على أممهم

قال الله تعالى : ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين فلنقصنَّ عليهم بعلم وما كنا غائبين** ﴾ (١) وقال : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين** ﴾ (٢) .

فبدأ بالأنبياء عليهم السلام ﴿ **فيقول : ماذا أجبتم ؟** ﴾ (٣) قيل : فى تفسيرها ، كانوا قد علموا ، ولكن ذهبت عقولهم وعزُبت (٤) أفهامهم ، ونسوا من شدة الهول ، وعظيم الخطب ، وصعوبة الأمر ، فقالوا : لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ، ثم يقربهم الله تعالى ، فيدعى نوح عليه السلام .

ويقال : إن الهيبة تأخذ بمجامع قلوبهم ، فيذهلون عن الجواب . ثم .. إن الله يثبتهم ويحدث لهم ذكرا ، فيشهدون بما أجابت به أممهم . ويقال : إنما قالوا ذلك تسليما كما فعل المسيح فى قوله : ﴿ **تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب** ﴾ .

والأول أصح ، لأن الرسل يتفاضلون ، والمسيح من أجلِّهم ؛ لأنه كلمة الله وروحه ، قاله أبو حامد .

وخرج ابن ماجه ، حدثنا : أبو كريب ، وأحمد بن سنان ، قالا : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « يجيء النبى يوم القيامة ومعه الرجل ويجيء النبى ومعه الرجلان ،

---

(١) ٦ - ٧ : الأعراف .

(٢) ٩٢ : الحجر .

(٣) ١٠٩ : المائدة .

(٤) عزبت : غابت . وفى القرآن : ﴿ **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ [٦١ : يونس] .

ويجيء النبى ومعه الثلاثة وأكثر من ذلك فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم . فيدعى قومه . فيقال : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا . فيقال : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فتدعى أمة محمد ﷺ ، فيقال : هل بلغ هذا ؟ فيقولون : أخبرنا نبينا ﷺ بذلك أن الرسل قد بلغوا ، فصدقناه . قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾ [(١)] .

وذكر البخارى أيضا بمعناه عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « يدعى نوح يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يارب ، فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم . فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير ، فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فيشهدون أنه قد بلغ ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾ [(٢)] .

أخرجه ابن المبارك فى رقائقه مرسلا بأطول من هذا فقال : أخبرنى رشدين بن سعد قال : أخبرنى ابن أنعم المغافرى عن حبان بن أبى جبله قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله عباده يوم القيامة كان أول من يدعى إسرافيل عليه السلام ، فيقول له ربه : ما فعلت فى عهدى هل بلغت عهدى ؟ فيقول : نعم قد بلغت جبريل ، فيدعى جبريل عليه السلام ، فيقول : هل بلغك إسرافيل عهدى ؟ فيقول : نعم يارب قد بلغنى ، فيخلى عن إسرافيل ، ويقال لجبريل : هل بلغت عهدى ؟ فيقول جبريل : نعم قد بلغت الرسل ، فيدعى الرسل ، فيقول : هل بلغكم جبريل عهدى ؟ فيقولون : نعم . فيخلى عن جبريل ، ثم يقال للرسل : هل بلغتم عهدى ؟ فيقولون : قد بلغنا أممنا ، فتدعى الأمم ، فيقال لهم : هل بلغكم الرسل عهدى ؟ فمنهم المصدق ، ومنهم المكذب !

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

(٢) البقرة : ١٤٣ .

فتقول الرسل : إن لنا عليهم شهودا يشهدون أن الله قد بلغنا مع شهادتك ، فيقول : من يشهد لكم ؟ فيقولون : محمد وأمته ، فتدعى أمة محمد ، فيقول : تشهدون أن رسلى هؤلاء قد بلغوا عهدى إلى من أرسلوا إليه ، فيقولون : نعم ، رب شهدنا أن قد بلغوا ، فتقول الأمم : كيف يشهد علينا من لم يدركنا ؟ فيقول لهم الرب : كيف تشهدون على من لم تدركوا ؟ فيقولون : ربنا بعثت إلينا رسولا ، وأنزلت إلينا عهدك وكتابك وقصصك علينا أنهم قد بلغوا ، فشهدنا بما عهدت إلينا ، فيقول الرب : صدقوا . فذلك قوله عز وجل : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا** ﴾ [1] والوسط : العدل ؛ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا .

قال ابن أنعم : فبلغنى أنه يشهد يومئذ أمة محمد إلا من كان من كان فى قلبه إحنة [2] على أخيه .

قلت : وذكر هذا الخبر أبو محمد فى كتاب (العاقبة) له ، فذكر بعد قوله : والوسط : العدل ، ثم يدعى غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، ثم ينادى كل إنسان باسمه واحداً واحداً ، ويسألون واحداً واحداً وتعرض أعمالهم على رب العزة – جل جلاله – قليلها وكثيرها حسنها وقبيحها .

قال المؤلف : وذكر أبو حامد فى كتاب (كشف علوم الآخرة) أن هذا يكون بعدما يحكم الله تعالى بين البهائم ، ويقتص للجماء من القرناء ويفصل بين الوحش والطير ، ثم يقول لهم : كونوا ترابا فتسوى بهم الأرض وحينئذ ﴿ **يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض** ﴾ [3] . ويتمنى الكافر فيقول : ﴿ **يا ليتنى كنت ترابا** ﴾ [4] . ثم يخرج النداء من قبل الله تعالى :

---

(١) ١٤٣ : البقرة .

(٢) الإحنة : بالكسر الحقد والغضب .

(٣) ٤٢ : النساء .

(٤) ٤٠ : النبأ .

أين اللوح المحفوظ ؟ فيؤتى به له هرج عظيم ، فيقول الله تعالى : أين ما سطرت فيك من توراة ، وزبور وإنجيل وفرقان [١] ؟ فيقول : يارب نقله منى الروح الأمين ، فيؤتى به يُرعَد وتصطك ركبتاه فيقول الله تعالى : يا جبريل ، هذا اللوح المحفوظ يزعم أنك نقلت منه كلامى ووحيى ، أصَدَقَ ؟ قال : نعم يارب ، قال : فما فعلت فيه ؟ قال : أنهيت التوراة إلى موسى ، وأنهيت الزبور إلى داود وأنهيت الإنجيل إلى عيسى ، وأنهيت الفرقان إلى محمد عليهم السلام ، وأنهيت إلى كل رسول رسالته ، وإلى أهل الصحف صحائفهم فإذا بالنداء ، يا نوح ، فيؤتى به يرعد وتصطك فرائصه ، فيقول : يا نوح ، زعم جبريل أنك من المرسلين ، قال : صدق ، فقيل له : ما فعلت مع قومك ؟ قال : ﴿ رَبِّ إنى دَعَوْتُ قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ﴾ [٢] . فإذا بالنداء ، يا قوم نوح ، فيؤتى بهم زمرة واحدة ، فيقال : هذا أخوكم نوح يزعم أنه بلغكم الرسالة ، فيقولون : يا ربنا ، كذب ما بلغنا من شىء ، وينكرون الرسالة ، فيقول الله : يا نوح ، ألك بينة ؟ فيقول : نعم ، يا ربنا ، بينتى عليهم محمد وأمته ، فيقولون : كيف ونحن أول الأمم ، وهم آخر الأمم ؟! فيؤتى بالنبى ﷺ فيقول : يا محمد ، هذا نوح يستشهد فيشهد له بتبليغ الرسالة ، فيقرأ ﷺ : ﴿ إنا أرسلنا نوحا إلى قومه ﴾ [٣] إلى آخر السورة ، فيقول الجليل جل جلاله : قد وجب عليكم الحق ، وحقت كلمة العذاب على الكافرين ، فيؤمر بهم زمرة واحدة إلى النار من غير وزن عمل ولا حساب ، ثم ينادى ، أين هود ؟ فيفعل قوم هود مع هود كما فعل قوم نوح مع نوح فيستشهد عليهم بالنبى ﷺ وخيار أمته ، فيتلو : ﴿ كذبت عاد المرسلن ﴾ [٤] فيؤمر بهم إلى النار مثل أمة نوح ، ثم ينادى ، يا صالح ، ويا ثمود ، فيأتون ، فيستشهد صالح عندما ينكرون . فيتلو النبى ﷺ :

---

(١) التوراة لموسى ، والزبور لداود ، والإنجيل لعيسى ، والفرقان الذى أنزل على محمد صلى الله عليهم أجمعين .

(٢) نوح : ٥ - ٦ .

(٣) الآية الأولى من سورة نوح .

(٤) ١٢٣ : الشعراء .

﴿ **كذبت ثمود المرسلين** ﴾ [1] إلى آخر القصة ، فيفعل بهم مثلهم ، ولا يزال يخرج أمة بعد أمة ، قد أخبر عنهم القرآن بيانا ، وذكرهم فيه إشارة كقوله تعالى : ﴿ **وقرونا بين ذلك كثيرا** ﴾ [2] وقوله : ﴿ **ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها** ﴾ [3] وقوله : ﴿ **والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ [4] وفى ذلك تنبيه على أولئك القرون الطاغية كقوم : تارخ ، وتارح ، ودوحا ، وأسرا وما أشبه ذلك حتى ينتهى النداء إلى أصحاب الرس ، وتبع ، وقوم إبراهيم ، وفى كل ذلك لا يرفع لهم ميزان ، ولا يوضع لهم حساب ، هم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، والترجمان يكلمهم ؛ لأن الرب – تعالى – من نظر إليه وكلمه لم يعذبه ، ثم ينادى بموسى بن عمران فيأتى وهو كأنه ورقة فى ريح عاصف قد اصفر لونه ، واصطكت ركبتاه ، فيقول له : يا بن عمران ، جبريل يزعم أنه قد بلغك الرسالة والتوراة ، فتشهد له بالبلاغ ؟ قال : نعم ، قال : فارجع إلى منبرك ، واتل ما أوحى إليك من ربك فيرقى المنبر ثم يقرأ فينصت له كل من فى الموقف ، فيأتى بالتوراة غضة طرية على حسنها يوم أنزلت ، حتى تتوهم الأحبار أنهم ما عرفوها يوما [5] .

ثم ينادى ، يا دوٗد ، فيأتى وهو يرعد ، وكأنه ورقة فى ريح عاصف تصطك ركبتاه ، فيصفر لونه ، فيقول الله جل ثناؤه : يا دوٗد ، زعم أنه بلغك الزبور ، فتشهد له بالبلاغ ؟ فيقول : نعم يارب ، فيقال له : ارجع إلى منبرك واتل ما أوحى إليك . فيرقى ثم يقرأ ، وهو أحسن الناس صوتا .

وفى الصحيح : أنه صاحب المزامير .

ثم ينادى المنادى ، أين عيسى ابن مريم ، فيؤتى به على باب المرسلين ، فيقول : أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ فيحمد تحميدا ما

---

(١) ١٤١ : الشعراء .

(٢) ٣٨ : الفرقان .

(٣) ٤٤ : المؤمنون .

(٤) ٩ : إبراهيم .

(٥) إشارة إلى ما غيروا فيها وبدلوا حتى أصبح الأصل مجهولا لديهم .

شاء الله تعالى ، ويثنى عليه كثيرا ، ثم يعطف على نفسه بالذم والاحتقار ويقول : ﴿ **سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب** ﴾ (١) فيضحك الله ويقول : ﴿ **هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم** ﴾ (٢) . يا عيسى ، ارجع إلى منبرك واتل الإنجيل الذى بلغك جبريل ، فيقول : نعم ، ثم يرقى ويقرأ ، فتشخص إليه الرءوس لحسن ترديده وترجيعه ، فإنه أحكم الناس به رواية ، فيأتى به غضا طريا حتى يظن الرهبان أنهم ما علموا به قط ، ثم ينقسم قومه فرقتين : المجرمون مع المجرمين ، والمؤمنون مع المؤمنين .

ثم يخرج النداء ، أين محمد ؟ فيؤتى به ﷺ فيقول : يا محمد ، هذا جبريل ، يزعم أنه بلغك القرآن ، فيقول : نعم يارب ، فيقال له : ارجع إلى منبرك ، واقرأ ، فيتلو ﷺ القرآن ، فيأتى به غضا طريا له حلاوة ، وعليه طلاوة ، يستبشر به المتقون ، وإذا وجوههم ضاحكة مستبشرة ، والمجرمون وجوههم مغبرة مقترة ، فإذا تلا النبى القرآن توهمت الأمة أنهم ما سمعوه قط .

وقد قيل للأصمعى : تزعم أنك أحفظهم لكتاب الله ؟ قال : يا ابن أخى ، يوم أسمعه من رسول الله ﷺ كأنى ما سمعته .

فإذا فرغت قراءة الكتب خرج النداء من قبل سرادقات الجلال ﴿ **وامتازوا اليوم أيها المجرمون** ﴾ (٣) فيرتج الموقف ويقوم فيه روع عظيم ، والملائكة قد امتزجت بالجن ، والجن ببنى آدم ، والكل لجة واحدة ثم يخرج النداء ، يا آدم ، ابعث بعث النار ؟ فيقول : كم يارب ؟ فيقال له : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة - على ما يأتى

---

(١) ١١٦ : المائدة .

(٢) ١١٩ : المائدة .

(٣) ٥٩ : يس .

بيانه – فلا يزال يستخرج من سائر الملحدين والغافلين والفاسقين حتى لا يبقى إلا قدر حفنة الرب ، كما قال الصديق – رضى الله عنه – : (نحن حفنات بحفنات الرب سبحانه وتعالى) . على ما يأتى إن شاء الله تعالى .

* * *

بـــــاب
ما جاء فى الشهداء عند الحســـاب

قال العلماء : وتكون المحاسبة بمشهد من النبيين وغيرهم ، قال الله تعالى : ﴿ **وجىء بالنبيين والشُّهداء ، وقضى بينهم بالحق** ﴾ (١) وقال : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا** ﴾ (٢) وشهيد كل أمة نبيها ، وقيل : إنهم كتبة الأعمال ، وهو الأظهر ، فتحضر الأمة ورسولها ، فيقال للقوم : ماذا أجبتم المرسلين ؟، ويقال للرسل : ماذا أجبتم ؟ فتقول الرسل : لا علم لنا – على ما تقدم فى الباب قبل هذا – ثم يدعى كل واحد – على الانفراد – فالشاهد عليه صحيفة عمله ، وكاتباها ، فإنه قد أخبر فى الدنيا أن عليه ملكين يحفظان أعماله ، وينسخانها .

وذكر أبو حامد فى كتاب (كشف علوم الآخرة) أن المنادى ينادى من قبل الله : ﴿ **لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب** ﴾ (٣) فيستخرج لهم كتاب عظيم يسد ما بين المشرق والمغرب فيه جميع أعمال الخلائق ، فما من صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿ **ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا** ﴾ (٤) وذلك أن أعمال الخلائق تعرض على الله فى كل يوم فيأمر الكرام البررة أن ينسخوها فى ذلك الكتاب العظيم ، وهو قوله تعالى : ﴿ **إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون** ﴾ (٥) .

ثم ينادى بهم فردا فردا ، فيحاسب كل واحد منهم ، فإذا الأقدام تشهد واليدان ، وهو قوله تعالى : ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما**

---

(١) ٦٩ : الزمر .
(٢) ٤١ : النساء .
(٣) ١٧ : غافر .
(٤) ٤٩ : الكهف .
(٥) ٢٩ : الجاثية .

كانوا يعملون ﴾ [1] . وقد جاء فى الخبر ، أن رجلا منهم يوقف بين يدى الله تبارك وتعالى فيقول له : يا عبد السوء ، كنت مجرما عاصيا ، فيقول : ما فعلت ؟ فيقال له : عليك بينة ، فيؤتى بحفظته فيقول : كذبوا على ، فتشهد جوارحُه عليه ، فيؤمر به إلى النار ! فيجعل يلوم جوارحه !، فتقول له : ليس عن اختيارنا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء .

وقد تقدم هذا المعنى مستوفى ، وتقدم أن الأرض والأيام والليالى ، والمال ممن يشهد ، وإذا قال الكافر : لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى ختم على فيه ، فتشهد أركانه كما تقدم .

* * *

---

(١) ٢٤ : النور .

بـــــاب

ما جاء فى شهادة النبى ﷺ على أمته

ابن المبارك أخبرنا : رجل من الأنصار عن المنهال بن عمرو ، حدثنا : أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : ليس من يوم إلا تعرض على النبى ﷺ أمته غدوة وعشية ، فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم فلذلك يشهد عليهم . يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا** ﴾ (١) .

فصـــــل

قلت : قدم تقدم : أن الأعمال تعرض على الله تعالى يوم الخميس ويوم الاثنين ، وعلى الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة .

ولا تعارض ، فإنه يحتمل أن يخص نبينا عليه السلام بالعرض كل يوم ... ويوم الجمع مع الأنبياء . والله أعلم .

بـــــاب

ما جاء فى عقوبة مانعى الزكاة ، وفضيحة الغادر والغال فى الموقف وقت الحساب

مسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفّحت له صفائح

---

(١) ٤١ : النساء .

من نار فأحمى عليها فى نار جهنم ، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله ، إما إلى الجنة ، وإما إلى النار » . قيل : يا رسول الله ، فالإبل ، قال : ولا صاحب إبل لا يؤدى منها حقها ، ومن حقها حلبها كل يوم ، وردها إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أو فر ما كانت ، لا يفقد منها فصيلا واحدا تطؤه بأخفافها ، وتعضه بأفواهها ، قيل : يا رسول الله ، فالبقر والغنم ؟ قال : « ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئا ليس فيها عقصاء ، ولا جلحاء ، ولا عضباء ، تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها ، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . وذكر الحديث . [أخرجه البخارى بمعناه] . وروى مالك – موقوفا – والنسائى والبخارى – مرفوعا – عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعنى : شدقيه ، ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا : ﴿ **ولا تحسبن الذين يبخلون** ﴾ (١) الآية .

وذكر مسلم من حديث جابر قال : ولا صاحب كنز لا يؤدى فيه حقه إلا جاء يوم القيامة شجاعا أقرع يتبعه فاتحاً فاهُ فإذا أتاه فرَّ منه فيناديه : خُذْ كنزك الذى خبأته فأنا عنه غنى ، فإذا رأى أن لابد له منه سلك يده فى فيه فيقضمها قضم الفحل .. وذكر الحديث .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول وعظم أمره ثم قال : « لا أُلْفَين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رُغاء يقول : يا رسول الله ، أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة ، على رقبته فرس له حمحمة يقول :

---

(١) ١٨٠ : آل عمران .

يا رسول الله ، أغثني فأقول : لا أملك لك شيئا قدْ أبلغتك ، لا أُلفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء ، يقول : يا رسول الله ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئا ، قد أبلغتك .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح ، فيقول : يا رسول الله ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئا ، قد أبلغتك .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق ، فيقول : يا رسول الله ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول : يا رسول الله ، أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد أبلغتك » . [أخرجه البخارى أيضا] .

وعن ابن عمر – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة ، فيقال : هذه غدرة فلان بن فلان !

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة » .

وذكر أبو داود الطيالسى قال : حدثنا قرة بن خالد عن عبد الملك ابن عمير عن رافع بن شداد ، عن عمرو بن الحمق الخزاعى أن النبى ﷺ قال : « إذا آمن الرجل الرجل على دمه ثم قتله ، رفع له لواء غدر يوم القيامة » .

* * *

(فصل) فى المراد بقوله تعالى :

﴿ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ﴾ (١)

قال علماؤنا : رحمهم الله فى قوله تعالى : ﴿ **ومن يغلُل يأت بما غل يوم القيامة** ﴾ إن ذلك على الحقيقة كما بينه ﷺ أى يأت حاملا على ظهره ورقبته معذبا بحمله وثقله ومرعوبا بصوته ، وموبخا بإظهار خيانته على رءوس الأشهاد وكذا مانعَ الزكاة !، كما فى صحيح الحديث .

قال أبو حامد : فمانع زكاة الإبل يحمل بعيرا على كاهله له رغاء وثقل يعدل الجبل العظيم !

ومانع زكاة البقر يحمل ثورا على كاهله له خوار وثقل يعدل الجبل العظيم !

ومانع زكاة الغنم يحمل شاة لها ثغاء وثقل يعدل الجبل العظيم والخوار والرغاء والثغاء كالرعد القاصف .

ومانع زكاة الزرع يحمل على كاهله أعدالها من الجنس الذى كان يبخل به برا كان أو شعيرا أثقل ما يكون ينادى تحته بالويل والثبور !

ومانع زكاة المال يحمل شجاعا أقرع له زبيبتان ، وذنبه قد انساب فى منخريه ، واستدارت بجيده ، وثقل على كاهله كأنه طوق بكل رحى فى الأرض ، وكل واحد ينادى مثل هذا ، فتقول الملائكة : هذا ما بخلتم به فى الدنيا رغبة فيه وشحا عليه . وهو قوله تعالى : ﴿ **سيُطَوَّقُونَ ما بَخِلوا به يومَ القيامة** ﴾ (٢) .

---

(١) ١٦١ : آل عمران .

(٢) ١٨٠ : آل عمران .

قلت : وهذه الفضيحة التى أوقعها الله تعالى بالغالّ ومانعى الزكاة نظير الفضيحة التى يوقعها بالغادر ، وجعل هذه المعاقبات حسب ما يعهده البشر ويفهمونه ، ألا ترى إلى قول الشاعر :

أَسُمَيّ ويْحكِ هل سمعتِ بغدرةٍ • رفع اللواء لنا بها فى المجمع

فكانت العرب ترفع للغادر لواء فى المحافل ومواسم الحج ، وكذلك يطاف بالجانى مع جنايته ، وذهب بعض العلماء إلى أن (ما يجىء به الغال يحمله) عبارة عن وزر ذلك ، وشهرة الأمر – أى تأتى يوم القيامة قد شهر الله أمره كما يشهر لو حمل بعيرا له رغاء أو فرسا له حمحمة .

قلت : وهذا عدول عن الحقيقة إلى المجاز والتشبيه ، وقد أخبر النبى ﷺ بالحقيقة فهو أولى .

وقد روى أبو داود عن سمرة بن جندب قال : كان رسول الله ﷺ إذا أصاب غنيمة أمر بلالا فنادى فى الناس فيجيئون بغنائمهم فيخمسها ويقسمها ، فجاء رجل يوما بعد النداء بزمام (١) من شعر فقال : يا رسول الله ، هذا كان فيما أصبناه من الغنيمة ، قال : « أسمعت بلالا – ثلاثا – ؟ » . قال : نعم . قال : « فما منعك أن تجىء به ؟ » فاعتذر إليه ! فقال : « كلا أنت تجىء به يوم القيامة فلن أقبله منك .

* * *

(١) حبل من شعر يقاد به البعير وغيره ، والمراد أن ما كان من الغنيمة ولو قلت قيمته لا ينبغى أن يطمع فيه .

فصـــــل

إهانة .. وتنويه .. وألوية .. ورايات

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الحجر ليرن بسبع خلفات فيلقى فى جهنم ، فيهوى فيها سبعين خريفا ، ويؤتى بالغلول فيلقى معه ، ثم يكلف صاحبه أن يأتى به ، قال : فهو قول الله تعالى : ﴿ **وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ [1] » . [ذكره على بن سليمان المرادى فى الأربعين له] .

وقوله : يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة دليل على أن فى الآخرة للناس ألوية : فمنها ألوية خزى وفضيحة يعترف بها أهلها ، ومنها ألوية حمد وثناء وتشريف وتكريم قال رسول الله ﷺ : « لواء الحمد بيدى » . وروى : لواء الكرم وقد تقدم .

وروى الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار » . فعلى هذا ؛ من كان إماما ورأسا فى أمر مَّا معروفا به فله لواء يعرف به خيرا كان أو شرا .

وقد يجوز أن يكون للصالحين الأولياء ألوية يعرفون بها تنويها بهم ، وإكراما لهم . والله أعلم . – وإن كانوا غير معروفين – قال النبى ﷺ : « رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب [2] لو أقسم على الله لأبره » ، وقال : « إن الله يحب العبد التقى الغنى الحفى » . [أخرجها مسلم] .

وقال أبو حامد : فى كتاب (كشف علوم الآخرة) وفى الحديث الصحيح أن أول ما يقضى الله فيه الدماء ، وأول من يعطى الله أجورهم الذين

---

(١) ١٦١ : آل عمران .

(٢) والمراد أنه ليس موضع اهتمام الناس ، ولا يلتفت إليه ، فليس من ذوى الوجاهة والشأن فى الدنيا .

ذهبت أبصارهم ، ينادى يوم القيامة بالمكفوفين فيقال لهم : أنتم أحرى وأحق من ينظر إلينا ، ثم يستحيى الله – تعالى – منهم ، ويقول لهم : اذهبوا إلى ذات اليمين ، ويعقد لهم راية ، وتجعل بيد شعيب عليه السلام ، فيصير أمامهم ومعهم ملائكة النور ما لا يحصى عددهم إلا الله تعالى ، يزفونهم كما تزف العروس ، فيمر بهم على الصراط كالبرق الخاطف . وصفة أحدهم الصبر والحلم كابن عباس ومن ضاهاه من الأئمة . ثم ينادى : أين أهل البلاء ؟ ويريد .. المجذومين فيؤتى بهم فيحييهم الله تعالى بتحية طيبة بالغة ، فيأمر بهم إلى ذات اليمين ، ويعقد لهم راية خضراء ، وتجعل بيد أيوب عليه السلام ، فيصير أمامهم ذات اليمين .

وصفة المبتلى صبر وحلم وعلم ، كعقيل بن أبى طالب ، ومن ضاهاه من الأئمة . ثم ينادى : أين الشباب المتعففون ؟ فيؤتى بهم إلى الله ، فيرحب بهم نعما ، ويقول ما شاء الله أن يقول ، ثم يؤمر بهم إلى ذات اليمين ويعقد لهم راية خضراء ، ثم تجعل فى يد يوسف عليه السلام ويصير أمامهم إلى ذات اليمين .

وصفة الشباب : صبر وعلم وحلم ، كراشد بن سليمان ومن ضاهاه من الأئمة .

ثم يخرج النداء : أين المتحابون فى الله ؟ فيؤتى بهم إلى الله تعالى ، فيرحب بهم ، ويقول – ما شاء الله أن يقول – ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين .

وصفة المتحاب فى الله – صبر وعلم وحلم ، لا يسخط ولا يسىء من رضى الأحوال الدنيوية كأبى تراب ، أعنى : على بن أبى طالب – رضى الله عنه – ومن ضاهاه من الأئمة .

ثم يخرج النداء : أين الباكون ؟ فيؤتى بهم إلى الله تعالى ، فتوزن دموعهم ، ودم الشهداء ، ومداد العلماء ، فيرجح الدمع ، فيؤمر بهم إلى ذات اليمين ، ويعقد لهم راية ملونة ؛ لأنهم بكوا فى أنواع مختلفة : هذا بكى خوفا ، وهذا بكى طمعا ، وهذا بكى ندما ، وتجعل بيد نوح عليه السلام ، فتُهِمُّ

العلماء بالتقدم عليهم ، ويقولون : علمنا بكاءهم فإذا النداء : على رسلك [١] يا نوح ، فتوقف الزمرة ، ثم يوزن مداد العلماء ، فيرجح دم الشهداء ، فيؤمر بهم إلى ذات اليمين ، ويعقد لهم راية مزعفرة ، وتجعل فى يد يحيى عليه السلام ثم ينطلق أمامهم ، فيهم العلماء بالتقدم عليهم ، ويقولون : عن علمنا قاتلوا ؛ فنحن أحق بالتقدم ، فيضحك لهم الجليل جل جلاله ويقول لهم : أنتم عندى كأنبيائى ، اشفعوا فيمن تشاءون فيشفع العالم فى جيرانه ، وإخوانه ، ويأمر كل واحد منهم ملكا ينادى فى الناس : ألا إن فلانا العالم قد أمر له أن يشفع فيمن قضى له حاجة أو أطعمه لقمة حين جاع ، أو سقاء شربة ماء حين عطش ، فليقم إليه ، فإنه يشفع له .

وفى الصحيح – أول من يشفع المرسلون ، ثم النبيون ، ثم العلماء ، ويعقد لهم راية بيضاء ، وتجعل بيد إبراهيم عليه السلام فإنه أشد المرسلين مكاشفة .

ثم ينادى : أين الفقراء ؟ فيؤتى بهم إلى الله عز وجل ، فيقول لهم : مرحَباً بمن كانت الدنيا سجنهم ، ثم يؤمر بهم إلى ذات اليمين ، ويعقد لهم راية صفراء ، وتجعل فى يد عيسى بن مريم عليه السلام ، ويصير أمامهم إلى ذات اليمين .

ثم ينادى : أين الأغنياء ، فيؤتى بهم إلى الله عز وجل ، فيعدد عليهم ما خولهم فيه خمسمائة عام ، ثم يؤمر بهم إلى ذات اليمين ويعقد لهم راية ملونة وتجعل بيد سليمان عليه السلام ، ويصير أمامهم فى ذات اليمين .

وفى الحديث : أن أربعة يستشهد عليهم بأربعة :

ينادى بالأغنياء وأهل الغبطة ، فيقال لهم : ما شغلكم عن عبادة الله ؟ فيقولون : أعطانا الله ملكا وغبطة شغلنا عن القيام بحقه فى دار الدينا ، فيقال

---

(١) على رسلك : بكسر الراء وسكون السين : أى على مهلك . تأنَّ وترفَّق فالرِّسْل : التمهل والرفق والتؤدة .

لهم : من أعظم ملكا ، أنتم أم سليمان ؟ فيقولون : بل سليمان ، فيقال : ما شغله ذلك عن القيام بحق الله ، والدأب فى ذكره .

ثم يقال : أين أهل البلاء ؟ فيؤتى بهم أنواعا ، فيقال لهم : أى شيء شغلكم عن عبادة الله تعالى ؟ فيقولون : ابتلانا الله فى دار الدينا بأنواع من الآفات والعاهات ، شغلتنا عن ذكره ، والقيام بحقه ، فيقال لهم : من أشد بلاء ، أنتم أم أيوب ؟ فيقولون : بل أيوب . فيقال لهم : ما شغله ذلك عن حقنا والدأب لذكرنا .

ثم ينادى : أين الشباب العطرة ، والمماليك ، فتقول الشباب : أعطانا الله جمالا وحسنا فتنا به ، فكنا مشغولين عن القيام بحقه ، وكذلك المماليك ، فيقولون : شغلنا رق العبودية فى الدنيا ، فيقال لهم : أنتم أكثر جمالا أم يوسف عليه السلام ؟؛ فلقد كان فى رق العبودية ما شغله ذلك عن القيام بحقنا ، ولا الدأب لذكرنا .

ثم ينادى : أين الفقراء ؟ فيؤتى بهم أنواعا ، فيقال لهم : ما شغلكم عن عبادة الله تعالى ؟ فيقولون : ابتلانا الله فى دار الدنيا بفقر شغلنا ، فيقال لهم : من أشد فقرا أنتم أم عيسى عليه السلام ؟ فيقولون : بل عيسى . فيقول لهم : ما شغله ذلك عن القيام بحقنا ، والدأب لذكرنا .

فمن بلى بشيء من هذه الأربعة ، فليذكر صاحبه .

(فصل)

هل يدعى الناس بأسماء آبائهم أم بأسماء أمهاتهم ؟

وقوله : هذه غدْرة فلان ابن فلان دليل على أن الناس يدعون فى الآخرة بأسمائهم ، وأسماء آبائهم . وقد تقدم هذا فى غير موضع ، وفى هذا رد على من قال : إنما يدعون بأسماء أمهاتهم ؛ لأن فى ذلك سترا على آبائهم .

وهذا الحديث خلاف قولهم . خرجه البخارى ومسلم وحسبك .

(فصل)

لماذا خص الجنب والجبهة والظهر بالكى ؟

وقوله : فيكوى بها جنبه .. الحديث . إنما خص الجنب والجبهة والظهر بالكى .. لشهرته فى الوجه ، وشناعته ، وفى الجنب والظهر ؛ لأنه آلم وأوجع .

وقيل : خص الوجه لتقطيبه فى وجه السائل أولا ، والجنب - ؛ لازوراره [١] عن السائل ثانيا ، والظهر ؛ لانصرافه إذا زاد فى السؤال وأكثَرَ منه ، فرتب الله هذه العقوبات فى هذه الأعضاء ، لأجل ذلك والله أعلم .

وقالت الصوفية : لما طلبوا الجاه والمال شان الله وجوههم . ولما طوَوْا كشْحاً [٢] عن الفقير إذا جالسهم ، كويت جنوبهم ، ولما أسندوا ظهورهم إلى أموالهم ثقة بها واعتمادهم عليها كويت ظهورهم .

(فصل)

فى معنى قوله سبحانه : ﴿ فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾

وقوله : **﴿ فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾** [٣] قيل : معناه - لو حاسب فيها غير الله تعالى ، وإنما هو سبحانه وتعالى يفرغ منه فى مقدار نصف نهار من أيام الدنيا .

وقيل : قدر مواقفهم للحساب . عن الحسن .

وقال ابن اليمان : كل موقف منها ألف سنة .

---

(١) يقال : ازورَّ - أى مال والمصدر : الازورار .

(٢) الذى يطوى كشحه على العداوة : الذى يتباعد عنك ويوليك كشحه والكشح : ما بين السرة ووسط الظهر .

(٣) ٤ : المعارج .

وفى الحديث عن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده ، إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة وقد تقدم من حديث أبى سعيد الخدرى .

وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا معمر عن قتادة ، عن زرارة بن أوفى عن أبى هريرة قال : يقصر يومئذ على المؤمن حتى يكون كوقت الصلاة .

وفى الحديث : « لا يتنصف النهار حتى يستقر أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار » [ذكره ابن عزير فى غريب القرآن له] .

وبطح : ألقى على وجهه . قاله بعد المفسرين . وقال أهل اللغة : البطح : هو البسط كيفما كان غير الوجه ، أو على الوجه ومنه سميت بطحاء مكة ؛ لانبساطها ، وبقاع قرقر : أى بموضع مستو واسع ، وأصل القاع : الموضع المنخفض الذى يستقر فيه الماء وجمعه : قيعان ، والعقصاء : الملتوية القرن ، والجلحاء : التى لا قرن لها ، والعضباء : المكسورة داخلة القرن .

يريد : أنها كلها ذوات قرون صحاح ، ويمكن بها النطح والطعن حتى يكون أشد لألمه ، وأبلغ فى عذابه ، والله أعلم .

* * *

بـــاب منه - وذكر الـولاة

ذكر الغيلانى أبو طالب قال : حدثنا أبو بكر الشافعى قال : حدثنا محمد بن غالب قال : حدثنا أمية بن بسطام . حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا روح بن القاسم عن ابن عجلان ، عن أبيه ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة حتى يفكه الله بعدله ، أو يوبقه بجرمه » .

وقال عمر لأبى ذر - رضى الله عنهما - : حدثنى بحديث سمعته من رسول الله ﷺ قال : سمعته يقول : « يجاء بالوالى يوم القيامة فينبذ به على جسر جهنم ، فيرتج به الجسر ارتجاجة لا يبقى منه مفصل إلا زال عن مكانه ، فإن كان مطيعا لله فى عمله مضى فيه ، وإن كان عاصيا لله عز وجل انخرف به الجسر ، فهوى به فى جهنم مقدار خمسين عاما ، فقال عمر : من يطلب العمل بعد هذا يا أبا ذر ؟ قال : من سلت الله أنفه وألصق خده بالتراب » . [ذكره أبو الفرج ابن الجوزى رحمه الله] .

وروى الأئمة عن أبى حميد الساعدى عن النبى ﷺ : أنه استعمل رجلا من بنى أسد يقال له : ابن اللتبية على الصدقة فجاء فقال : هذا لكم ، وهذا أهدى لى ، فقام النبى ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « ما بال العامل نبعثه فيجىء فيقول : هذا لكم ، وهذا أهدى لى ، أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه ، فينظر : أيهدى إليه أم لا ؟ لا يأتى أحد منكم بشىء من ذلك إلا جاء يوم القيامة إن كان بعيرا فله رغاء ، وإن كان بقرة ، فلها خوار ، أو شاة تيعر » ، ثم رفع يدَيْه حتى رأينا عفرتى إبطيه ثم قال : « اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت ..؟ » .

وروى أبو داود عن بريدة عن النبى ﷺ : « من استعملناه على عمل فرزقناه رزقا فما أخذ بعد ذلك فهو غلول » .



البـــاب الســـابع

الورودُ على الحـــوض

بسم الله الرحمن الرحـيم

إنّا أعطيناك الكوثــر ...
فصلِّ لربِّـك وانحـــر ...
إن شانئك هو الأبتـــر ..

[سورة الكوثــــر]



بين يدى هذا الباب :

وصف الله نبيه ﷺ بصفتين من صفاته : ﴿ **بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ [1] .. وتمتد هذه الرأفة ، وتلك الرحمة ليتفيأ ظلالها المؤمنون حيث يخرجون من قبورهم عطاشى .. وهناك – فى الموقف – يجدون حوض النبى ﷺ ويحدثنا (الإمام القرطبى) عما جاء فى حوض النبى ﷺ وسعته وكثرة أوانيه وذكر أركانه ومن عليها .

ولا يفوته – كعهدنا به – أن يسلط الأضواء على ما جاء فى (الحوض) من أحاديث مبينا أنه ليس بينها اضطراب أو اختلاف كما يظن بعض الناس .

ثم يحدثنا عمن يردون على الحوض .. وعن أول من يردون عليه . ومن أولئك الذين يحال بينهم وبينه ويطردون عنه !!

ويتناول – بالبحث والتمحيص – ما جاء من أن لكل نبى حوضا .

ولا يفوته أن يختم الباب بما جاء فى (الكوثر) الذى أعطيه النبى ﷺ فى الجنة !!

نسأل الله أن نكون ممن يردون على الحوض فلا يمنعون ولا يطردون !!

ما جاء فى حوض النبى ﷺ فى الموقف وسعته وكثرة أوانيه ، وذكر أركانه ومن عليها

ذكر صاحب القوت وغيره إلى أن حوض النبى ﷺ إنما هو بعد الصراط .

---

(١) ١٢٨ : التوبة .

والصحيح أن للنبى ﷺ حوضين : أحدهما فى الموقف قبل الصراط ، والثانى فى الجنة . وكلاهما يسمى كوثرا على ما يأتى .

والكوثر فى كلام العرب : الخير الكثير .

واختلف فى الميزان والحوض : أيهما قبل الآخر ؟ فقيل : الميزان قبل ، وقيل : الحوض . قال أبو الحسن القابسى : والصحيح أن الحوض قبل .

قلت : والمعنى يقتضيه ؛ فإن الناس يخرجون عطاشا من قبورهم كما تقدم ، فيقدم قبل الصراط والميزان . والله أعلم .

وقال أبو حامد فى كتاب (كشف علوم الآخرة) : وحكى بعض السلف من أهل التصنيف : أن الحوض يورد بعد الصراط ، وهو غلط من قائله .

قال المؤلف : هو كما قال .

وقد روى البخارى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « بينا أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بينى وبينهم فقال : هلم . فقلت : إلى أين ؟ قال : إلى النار . والله قلت : ما شأنهم ؟ قال : إنهم ارتدوا على أدبارهم فلا أراه يخلص عنهم إلا مثل همل النعم »[1] ثم إذا زمرة أخرى ، حتى إذا عرفتهم ، خرج من بينى وبينهم رجل ، فقال : هلم . قلت : إلى أين ؟ فقال : إلى النار والله قلت : ما شأنهم ؟ فقال : إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى . ثم إذا زمرة أخرى . حتى إذا عرفتهم . خرج من بينى وبينهم رجل ، فقال لهم : هلم . قلت : إلى أين ؟ قال : إلى النار . والله قلت : ما شأنهم ؟ قال : إنهم ارتدوا على أدبارهم[2] . فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم » .

---

(١) الهمل : المتروك ليلا ونهاراً ، والنَّعم : الإبل والشاء . أو خاص بالإبل والمعنى أن الناجى منهم قليل .

(٢) تركوا مبادىء الإسلام وراءهم ظهريا بعد أن كانوا قد أقبلوا عليها . والأدبار جمع دبر . وهو نقيض القبل ، ومن كل شىء عقبه ومؤخره .

قلت : فهذا الحديث مع صحته أول دليل على أن الحوض يكون فى الموقف قبل الصراط ؛ لأن الصراط إنما هو جسر على جهنم ممدود يجاز عليه ، فمن جازه سلم من النار على ما يأتى .

وكذا حياض الأنبياء عليهم السلام تكون أيضا فى الموقف على ما يأتى .

وروى عن ابن عباس – رضى الله عنه – قال : سئل رسول الله ﷺ عن الوقوف بين يدى الله تعالى هل فيه ماء ؟ قال : « أى والذى نفسى بيده إن فيه لماء ، وإن أولياء الله تعالى ليردون حياض الأنبياء ، ويبعث الله سبعين ألف ملك بأيديهم عصى من نار يذودون الكفار [١] عن حياض الأنبياء .

مسلم عن أبى ذر – رضى الله عنه – قال : قلت : يا رسول الله ، ما آنية الحوض ؟ قال : « والذى نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها فى الليلة المظلمة المصحية ، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ ، آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة ، من شرب منه لم يظمأ ، عرضه مثل طوله ، ما بين عمَّان إلى أيلة [٢] ، ماؤه أشد بياضا من الثلج ، وأحلى من العسل .

وعن ثوبان : أن رسول الله ﷺ قال : « إنى لَبِعُقْر حوضى [٣] أذود [٤] الناس لأهل اليمن ، أضرب بعصاى ؛ حتى يَرْفَضَّ [٥] عليه » . فسئل عن عرضه فقال : « من مقامى إلى عمان » .

---

(١) يذودون : يردون ويدفعون .

(٢) بلدة على ساحل البحر مما يلى مصر .

(٣) عقر حوضى : موضع الشاربة منه .

(٤) أى أطرد الناس عنه غير أهله لأجل أن يرده أهل اليمن .

(٥) يرفَضّ : يسيل عليهم .

وسئل عن شرابه فقال : « أشد بياضا من الثلج ، وأحلى من العسل ، يغت [1] فيه ميزابان من الجنة : أحدهما من ذهب والآخر من وَرِق » [2] . فى غير كتاب مسلم : يعب فيه ميزابان من الكوثر . الحديث . وفى أخرى : ما يبسط أحد منكم يده إلا وقع عليه قدح .

مسلم عن أنس قال : بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا ، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما ، فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : نزلت على آنفا سورة فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر** ﴾ [3] قال : « أتدرون ما الكوثر ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنه نهر وعدنيه ربى عليه خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد النجوم ، فيختلج العبد منهم فأقول : يارب إنه من أمتى ، فيقال : ما تدرى ما أحدث بعدك ! » . وفى رواية أخرى : ما أحدث .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « حوضى مسيرة شهر ، وزواياه سواء [4] ، وماؤه أبيض من الْوَرِق ، وريحه أطيب من المسك ، كيزانه كنجوم السماء ، من ورد فشرب منه لم يظمأ بعده أبدا » . [أخرجه البخارى] .

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « إن أمامكم حوضا - كما بين جرباءَ وأذرح - [5] فيه أباريق كنجوم السماء من

---

(١) أى يدفقان فيه الماء دفقا متتابعا شديدا .

(٢) الوَرِق : الفضة .

(٣) الأبتر : المنقطع دابره الذى لا عقب له (لا نسل له) الأقل الأذل . وسورة الكوثر رقم ١٠٨ مكية وآياتها ثلاث .

(٤) معناه طوله مثل عرضه . وفى حديث أبى ذر الذى رواه مسلم : « عرضه مثل طوله » .

(٥) فيه حذف تقديره : « بين المدينة وجرباء وأذرح » وجرباء وأذرح : معروفتان بين القدس والكرك ويؤيده ما روى عن أبى هريرة مرفوعا بسند حسن فى ذكر الحوض قال فيه : « عرضه مثل ما بينكم وبين جرباء وأذرح » . قال الضياء : فظهر بهذا أنه وقع فى حديث ابن عمر حذف تقديره : « ما بين المدينة وجرباء وأذرح » .

ورد فشرب لم يظمأ بعدها أبدا !! » .

قال عبد الله فسألته فقال : « قريتين بالشام بينهما مسيرة ثلاث » .
[أخرجه البخارى] .

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « إن حوضى أبعد من أيلة إلى عدن ، لهو أشد بياضا من الثلج ، وأحلى من العسل باللبن ، آنيته عدد نجوم السماء ، وإنى لأكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة » .

(فصـــــل)

أهناك اضطراب واختلاف بين أحاديث الحوض ؟

ظن بعض الناس أن بين هذه التحديدات فى أحاديث الحوض اضطرابا واختلافا ، وليس كذلك ، وإنما تحدث النبى ﷺ بحديث مرات عديدة . وذكر فيها تلك الألفاظ المختلفة مخاطبا لكل طائفة بما كانت تعرف من مسافات مواضعها ، فيقول لأهل الشام : بين أذرح وجرباء ، ولأهل اليمن : من صنعاء إلى عدن .. وهكذا ، وتارة أخرى يقدر بالزمان فيقول : مسيرة شهر ، والمعنى المقصود : أنه حوض كبير متسع الجوانب والزوايا ، فكان ذلك بحسب من حضره ممن يعرف تلك الجهات ، فخاطب كل قوم بالجهة التى يعرفونها ، والله أعلم .

ولا يخطر ببالك ، أو يذهب وهمك إلى أن الحوض يكون على وجه هذه الأرض ، وإنما يكون وجوده فى الأرض المبدلة على مسامتة [1] هذه الأقطار ، أو فى المواضع التى تكون بدلا من هذه المواضع فى هذه الأرض ، وهى أرض بيضاء كالفضة لم يسفك فيها دم ، ولم يظلم على ظهرها أحد قط كما تقدم ، تظهر لنزول الجبار – جل جلاله – لفصل القضاء .

---

(١) مسامتة هذه الأقطار : يقال : سامته : أى قابله ووازاه .

ويغت : معناه يصب ، ويشخب : أى يسيل ، والعقر : مؤخر الحوض حيث تقف الإبل إذا وردته ، وتسكن قافه ، وتضم ، فيقال : عقر ، وعقر كعسر وعسر قاله فى الصحاح . والهمَلُ من النَّعَم : الضَّوَالُّ من الإبل واحدها هامل . قاله : الهروى .

والمعنى : أن الناجى منهم قليل كهمل النعم ، ويقال : إن على أحد أركانه أبا بكر ، وعلى الثانى عمر ، وعلى الثالث عثمان ، وعلى الرابع عليا .

قلت : هذا لا يقال من جهة الرأى فهو مرفوع وقد رفعه صاحب الغيلانيات من حديث حميد عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن على حوضى أربعة أركان : أول ركن منها فى يد أبى بكر ، والركن الثانى فى يد عمر ، والركن الثالث فى يد عثمان ، والركن الرابع فى يد على » – رضى الله عنهم أجمعين –.

فمن أحب أبا بكر وأبغض عمر لم يسقه أبو بكر ، ومن أحب عمر وأبغض أبا بكر لم يسقه عمر ، ومن أحب عثمان وأبغض عليا لم يسَقه عثمان ، ومن أحب عليا وأبغض عثمان لم يسقه على ، وذكر الحديث .

* * *

باب منه ... (فيمن يردون على الحوض)

ذكر أبو داود الطيالسى قال : حدثنا شعبة قال : أخبرنى عمرو بن مرة قال : سمعت أبا حمزة عن زيد بن أرقم أن النبى ﷺ قال : « ما أنتم بجزء من مائة ألف أو سبعين ألف جزء ممن يرد على الحوض ، وكانوا يومئذ ثمان مائة ، أو تسعمائة » . والله أعلم .

(باب)

فقراء المهاجرين أول الناس وروداً الحوض على النبى ﷺ

روى ابن ماجه عن الصنابحى الأحمسى قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إنى فرطُكم على الحوض ، وإنى مكاثر [1] بكم الأمم ، فلا تقتتلن بعدى » .

وخرج عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : « إن حوضى ما بين عدن إلى أيلة أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، أكاويبه [2] كعدد نجوم السماء من شرب منه لم يظمأ بعدها أبدا ، وأول الناس من يرد على الحوض فقراء المهاجرين الدنس ثيابا ، الشعث [3] رءوسا ، الذين لا ينكحون المتنعمات ، ولا تفتح لهم أبواب السدد » .

قال : فبكى عمر بن الخطاب ، حتى ابتلت لحيته ، فقال : لكنى نكحت المتنعمات ، وفتحت لى أبواب السدد ، لا جرم أنى لا أغسل ثوبى

---

(١) مكاثر : مفاخر .

(٢) الكوب : ما يشرب فيه والجمع أكواب ، وأكاويب .

(٣) يقصد الفقراء ، والشُّعْث : جمع أشعث وهو مَنْ تلبد شعره واغبر ، ومثلهم ليسوا أهلا لنكاح المترفات المنعمات ، ولا يأبه بهم الحراس على الأبواب لدى السادة والأمراء فلا يسمح لهم بالدخول لما بهم من مظاهر الفقر .

الذى يلى جسدى حتى يتسخ ، ولا أدهن [1] رأسى حتى تشعث . [خرجه الترمذى] .

عن أبى سلام الحبشى قال : بعث إلى عمر بن عبد العزيز فحملت على البريد قال : فلما دخل عليه ، قال : يا أمير المؤمنين ، لقد شق مركبى البريد [2] ، فقال : يا أبا سلام ، ما أردت أشُقَّ عليك ، ولكن بلغنى عنك حديث تحدثه عن ثوبان عن النبى ﷺ فى الحوض ، فأحببت أن تشافهنى به .

قال أبو سلام : حدثنى ثوبان عن رسول الله ﷺ قال : « إن حوضى من عدن إلى عُمان البلقاء ، ماؤه أشد ... » فذكره بمعناه . وقال : حديث غريب .

وقال أنس بن مالك – رضى الله عنه : أول من يرد الحوض على رسول الله ﷺ الذابلون الناحلون السائحون الذين إذا جنَّهم [3] الليل استقبلوه بالحزن .

(باب)

ذكر من يطرد عن الحوض

روى البخارى عن أنس عن النبى ﷺ قال : « ليردن على ناس من أصحابى الحوض ، حتى إذا عرفتهم اختلجوا دونى ، فأقول : أصحابى ! فيقال لى : لا تدرى ما أحدثوا بعدك » .

وعن أبى هريرة أنه كان يتحدث أن رسول الله ﷺ قال : « يرد علىَّ الحوض رهط [4] من أصحابى ، فيخلون [5] عن الحوض ! فأقول : يارب

---

(١) أى بالطيب ، وما أشبه ذلك من الدهون والعطور .

(٢) أى ركوبى وسيلة النقل المعدة لنقل البريد ، جعلنى أتحمل مشقة كبيرة !!

(٣) جن الليل : أقبل بظلامه فغطى المرئيات .

(٤) الرهط : قوم الرجل وقبيلته ، وعدد يجمع من الثلاثة إلى العشرة ليس فيهم امرأة .

(٥) فيخلون : فيبعدون .

أصحابى ، فيقول : إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك [١] ، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى [٢] !!

مسلم عن أسماء بنت أبى بكر – رضى الله عنهما – قالت : قال رسول الله ﷺ : « إنى على الحوض حتى أنظر من يرد على منكم ، وسيؤخذ ناس دونى فأقول : يارب منى ومن أمتى ! فيقال : أما شَعَرت ما عملوا بعدك ؟ والله ما برحوا بعدك يرجعون على أعقابهم » [٣] .

وفى حديث أنس فيختلج [٤] العبد منهم فأقول : يارب من أمتى ! فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك . وقد تقدم .

وكذلك حديث البخارى : إذا زمرة ، حتى إذا عرفتهم . تقدم أيضا .

وفى الموطأ وغيره من حديث أبى هريرة فقالوا : كيف تعرف من يأتى بعدك من أمتك يا رسول الله ؟.. الحديث . وفيه . قال : « فإنهم يأتون غرا [٥] محجلين من أثر الوضوء » .

(فصل)

من أولئك المطرودون عن الحوض ؟!

قال علماؤونا – رحمة الله عليهم أجمعين – فكل من ارتد عن دين الله ، أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله ، ولم يأذن به الله ، فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه ، وأشدهم طردا : من خالف جماعة المسلمين ، وفارق سبيلهم ، كالخوارج [٦] على اختلاف فرقها ، والروافض على تباين

---

(١) أى فى الدين من البدع وما يخالف مبادىء الله .

(٢) القهقرى : الرجوع إلى الوراء .

(٣) الأعقاب : جمع عقب وهو مؤخر القدم ورجعوا على أعقابهم ، أو ارتدوا على أدبارهم تفيد الردة والانصراف عن الدين الحق .

(٤) يختلج : يضطرب .

(٥) يتجلى النور من الوجه والأطراف التى يتناولها بالماء عند الوضوء .

(٦) الذين خرجوا على سيدنا على بن أبى طالب وقالوا : (لا حكم إلا لله) فقال : كلمة حق د بها باطل .. والخوارج لا يطيعون السلطان من أئمة المسلمين .

ضلالها [1] ، والمعتزلة [2] على أصناف أهوائها ، فهؤلاء كلهم مُبَدِّلون ، وكذلك الظلمة المسرفون فى الجور [3] والظلم وتطميس الحق ، وقتل أهله وإذلالهم ، والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصى ، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع .

ثم البعد قد يكون فى حال ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل فى الأعمال ولم يكن فى العقائد ؛ وعلى هذا التقدير يكون نور الوضوء يعرفون به ثم يقال لهم سحقا .

[وإن كانوا من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ يظهرون الإيمان ، ويسرون الكفر ، فيأخذهم بالظاهر . ثم يكشف لهم الغطاء ، فيقول لهم : سُحْقاً] .

ولا يخلد فى النار إلا كافر جاحد مبطل ليس فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان .

وقد يقال : إن من أنفذ الله عليه وعيده من أهل الكبائر إنه – وإن ورد الحوض وشرب منه – فإنه إذا دخل النار بمشيئة الله – تعالى – لا يعذب بعطش . والله أعلم .

وروى الترمذى عن كعب بن عجرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أعيذك بالله يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون من بعدى ، فمن غشى أبوابهم ، فصدقهم فى كذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فليس منى ، ولست منه ، ولا يرد على الحوض .

---

(١) الروافض : من جاءوا إلى زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وطلبوا منه أن يتبرأ من أبى بكر وعمر حتى يكونوا معه ، فقال : بل أتولاهما وأتبرأ ممن تبرأ منهما ، فقالوا : إذن نرفضك ، فرفضوه ، وارفضوا عنه .

(٢) سبق الحديث عنهم .

(٣) الجور : الظلم .

ومن غشى أبوابهم ، ولم يصدقهم فى كذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم ، فهو منى وأنا منه ، وسيرد على الحوض .

يا كعب بن عجرة : الصلاة برهان ، والصبر جُنَّةٌ [1] حصينة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار .

يا كعب بن عجرة : إنه لا يربو لحم نبت من سُحت [2] إلا كانت النار أولى به » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب وخرجه أيضا فى كتاب الفتن وصححه .

وخرج الأوزاعى أبو عمر فى مسنده قال : حدثنى عمرو بن سعد قال : حدثنى يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك أنه سمع النبى ﷺ يقول : « حوضى ما بين أيلة إلى مكة ، أباريقُه كنجوم السماء ، أو كعدد نجوم السماء ، له ميزابان [3] من الجنة ، كلما نضب أمدَّاه ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا ، وسيأتيه قوم ذابلة شفاهم لا يطعمون منه قطرة واحدة ، من كذب به اليوم لم يصب منه الشرب يومئذ .

وخرج الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من حديث عثمان بن مظعون عن النبى ﷺ أنه قال فى آخره : « يا عثمان : لا ترغب عن سنتى ؛ فمن رغب عن سنتى ثم مات قبل أن يتُوب ضربت الملائكة وجهه عن حوضى يوم القيامة .. » وقد ذكرناه بكماله فى آخر كتاب : (قمع الحرص بالزهد والقناعة) .

---

(١) أى وقاية يقيك ويحميك .

(٢) السحت : المال الحرام .

(٣) الميزاب : أنبوب الماء ، والجمع ميازيب .

(باب)

ما جاء أن لكل نبى حوضـا

روى الترمذى عن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل نبى حوضا ، وأنهم يتباهون أيهم أكثر وارده ؟ وإنى أرجو أن أكون أكثرهم وارده » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . رواه قتادة عن الحسن ، عن سمرة ، وقد رواه الأشعث بن عبد الملك عن الحسين – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ . ولم يذكر فيه غير سمرة .

وقال البكرى المعروف بابن الواسطى : لكل نبى حوض إلا صالحا ، فإن حوضه ضرع ناقته ، والله أعلم .

* * *

(باب)

ما جاء فى الكوثر الذى أعطيه ﷺ فى الجنة

البخارى عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « بينما أنا أسير فى الجنة إذ أنا بنهر فى الجنة حافتاه قباب الدر المجوف ، قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاك ربك ؛ فإذا طينه – أو طينته – مسك أذفر » (١) – شك هدبة – [خرجه أبو عيسى الترمذى بمعناه] ، وزاد : « ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فرأيت عندها نوراً عظيما » .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وخرجه ابن وهب قال : أخبرنى شبيب عن أبان ، عن أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : حين عرج به إلى السماء قال : « رأيت نهرا عجاجا (٢) ، مثل السهم ، يطرد

---

(١) الذَّفَر : محركة . شدة ذكاء الرائحة . ومسك أذفر : جيد الرائحة إلى الغاية . [القاموس المحيط] .

(٢) عجاجا : ممتلئا .

أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، حافتاه قباب من در مجوف ، فقلت : يا جبريل ، ما هذا ؟ قال : هذا نهر الكوثر الذى أعطاك ربك . قال : فضربت بيدى إلى حمأته [1] ، فإذا هو مسك أذفر ، ثم ضربت بيدى إلى مجراه فإذا هو در » .

روى الترمذى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « الكوثر نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ، ومجراه الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل ، وأبيض من الثلج » . هذا حديث حسن . والله أعلم .

* * *

---

(١) حمأته : طينه الأسود ويقصد تربته .



الباب الثامن

الميـــــزان

بسم الله الرحمن الرحيم

ونضعُ الموازينَ القِسْطَ ليومِ القيامةِ فَلا تُظلمُ نفسٌ شيئاً ...

وَإن كان مثقالَ حبَّةٍ من خَردَلٍ أتَيْنا بها !!

وكفَى بِنا حاسبين !!

[٤٧ – الأنبياء]



بين يدى هذا الباب

.. وفى هذا اليوم يضع الله الموازين القسط فلا تُظْلم نفسٌ شيئا وإن كان مثقالَ حبَّةٍ من خردَلٍ يأتى بها ! ..

ويعرض علينا الإمام القرطبى ما جاء فى الميزان وأنه حق ، ثم يوضح لنا كيفيته ، ووزن الأعمال فيه ، ويتساءل : ماذا يوزن للكافر ؟

ثم يعرض علينا رأى « المعتزلة » فى الميزان ، ويتصدى للرد عليهم . ثم يبين طبقات الناس فى الآخرة ، وكيف توزن أعمال كل طبقة منها ؟ وهنا يتناول « الجن » متسائلا : ماثوابهم ؟ وما حسابهم ؟ وهل توزن أعمالهم ؟ ويجيب عن كل تلك التساؤلات إجابة شافية !

وهنا يعرض لعدة نقاط ويثير حولها تساؤلات ليجيب عنها :

١ – هل البطاقة التى فيها الشهادتان من الحسنات ؟ .
٢ – إن الأعمال بخواتيمها ، فهل يقتصر الميزان على خواتيم الأعمال ؟ .
٣ – من استوت حسناته وسيئاته ما مصيره ؟ .
٤ – أهو ميزان واحد أم موازين متعددة ؟ ومن صاحب الميزان ؟ .
٥ – من هم أصحاب الأعراف ؟ وما أقوال العلماء فيهم ؟ .

ولا يفوته أن يحدثنا عمن ثقلت موازينه ، ومن خفت موازينه . ثم ينتقل بعد هذا كله إلى بيان أن كل أمة تتبع ما كانت تعبد ... وأن المؤمنين يلهمون بطلب من يشفع ، وأن آدم يؤمر بإخراج بعث النار .

وهنا يقف وقفة العالم المحقق :

أ – فيحدثنا بمزيد من الإيضاح والبيان لما ورد فى « أحاديث الميزان » .

ب – ويبين القول فى « كشف الساق » بما يقضى على الخلاف والشقاق .

وإليك ما قاله إمامنا القرطبى ..

ما جاء فى الميزان .. وأنه حق !

قال الله تعالى : ﴿ **وَنَضعُ الموازينَ القِسطَ ليومِ القيامةِ فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئا** ﴾ [١] وقال : ﴿ **فأما من ثَقُلَتْ موازينُه فهو فى عيشةٍ راضية ، وأما من خفَّت موازينُه فأُمُّهُ هاوية** ... ﴾ إلى نهاية السورة [٢] .

وقال : ﴿ **ومن خفَّت موازينُه فأولئك الذين خسروا أنفسَهم** ﴾ [الآيتين فى الأعراف والمؤمنين] [٣] .

وهذه الآيات إخبار لوزن أعمال الكفار ؛ لأن عامة المعنيين [٤] بقوله : ﴿ **خفَّت موازينُه** ﴾ - فى هذه الآيات - هم الكفار . وقال فى سورة المؤمنين : ﴿ **فكنتم بها تكذبون** ﴾ [٥] . وفى الأعراف : ﴿ **بما كانوا بآياتنا يظلمون** ﴾ [٦] . وقال : ﴿ **فأمه هاوية** ﴾ [٧] . وهذا الوعيد بإطلاقه للكفار .

وإذا جُمع بينه وبين قوله : ﴿ **وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين** ﴾ [٨] **ثبت أن الكفار يسألون عما خالفوا فيه الحق من أصل الدين وفروعه ، إذ لم يُسألوا عما خالفوا فيه أصل دينهم من ضروب تعاطيهم ، ولم يحاسبوا به ، ولم يعتد بها فى الوزن أيضا ، فإذا كانت موزونة دل على أنهم يحاسبون بها وقت الحساب ، وفى القرآن ما يدل على أنهم مخاطبون بها ، مسئولون عنها ، محاسبون بها ، مجزيون على الإخلال**

---

(١) ٤٧ : الأنبياء .
(٢) ٦ - ١١ : القارعة .
(٣) ٩ : الأعراف ، ١٠٣ : المؤمنون .
(٤) المعنيين : المقصودين الذين عنتهم الآيات .
(٥) ١٠٥ : المؤمنون .
(٦) ٩ : الأعراف .
(٧) ٩ : القارعة .
(٨) ٤٧ : الأنبياء .

بها ؛ **لأن الله تعالى يقول : ﴿ وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ﴾** (١) فتوعدهم على منعهم الزكاة ، وأخبر عن المجرمين أنهم يقال لهم : **﴿ ما سلككم فى سقر ﴾** (٢) ؟ . الآية ، فبان بهذا أن المشركين مخاطبون بالإيمان والبعث ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأنهم مسئولون عنها محاسبون بها ، مجزيون على الإخلال بها .

وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، واقرءوا إن شئتم **﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾** (٣) » .

قال العلماء : معنى هذا الحديث - أنه لا ثواب لهم ، وأعمالهم مقابلة بالعذاب ؛ فلا حسنة لهم توزن فى موازين يوم القيامة ، ومن لا حسنة له ، فهو فى النار .

وقال أبو سعيد الخدرى : يؤتى بأعمال كجبال تِهامة (٤) ، فلا تزن شيئا ، وقيل : يحتمل أن يريد المجاز والاستعارة ، كأنه قال : فلا قدر لهم عندنا يومئذ ؛ والله أعلم .

ومن الفقه ذم السِّمَن لمن تكلفه ، لما فى ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم ، بل يدل على تحريم كثرة الأكل الزائد على قدر الكفاية المبتغى به الترفه والسمن ، وقد قال ﷺ : « إن أبغض الرجال إلى الله الحَبْر السمين (٥) » .

* * *

---

(١) ٦ : فصلت (نهاية الآية السادسة ، وبداية السابعة) .
(٢) ٤٢ : المدثر .
(٣) ١٠٥ : الكهف .
(٤) تهامة : بلاد جنوبى غربى الحجاز .
(٥) الحَبْر : العالم .

كيفية الميزان ، ووزن الأعمال فيه ، ومن قضى لأخيه حاجة

الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يستخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليها تسعة وتسعين سجلا ، كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : أفلك عذر ؟ فقال : لا يارب ، فيقول : بل إن لك عندنا حسنة ؛ فإنه لا ظلم عليك اليوم ؛ فيخرج له (بطاقة) فيها : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله » فيقول : احضر وزنك ، فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تُظْلَم ! قال : فتوضع السجلات فى كِفة ، والبطاقة فى كِفة ، فطاشت [1] السجلات ، وثقلت البطاقة ، فلا يثقل مع اسم الله شىء » .

قال : حديث حسن غريب ، وأخرجه ابن ماجه فى سننه ، وقال : بدل قوله — فى أول الحديث : « إن الله يستخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة يصاح برجل من أمتى على رءوس الخلائق » وذكر الحديث .

وقال محمد بن يحيى : البطاقة الرُّقعة ، وأهل مصر يقولون للرقعة : (بطاقة) . وفى الخبر : إذا خفت حسنات المؤمن أخرج رسول الله ﷺ بطاقة كالأنملة [2] ، فيلقيها فى كِفة الميزان اليمنى التى فيها حسناته ، فيرجح الحسنات ، فيقول ذلك العبد المؤمن للنبى ﷺ : بأبى أنت وأمى [3] ما أحسن وجهك ! وما أحسن خَلْقَك ! فمن أنت ؟ فيقول : أنا نبيك محمد

---

(١) طاشت : ارتفعت وخفت .

(٢) طرف الإصبع والجمع : أنامل .

(٣) أفديك بهما يا رسول الله .

وهذه صلاتك على التى كنت تصلى على قد وفيتك إياها أحوج ما تكون إليها ذكره القشيري فى تفسيره .

وذكر أبو نعيم الحافظ بإسناده من حديث مالك بن أنس والعمرى عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : من قضى لأخيه حاجة كنت واقفا عند ميزانه فإن رجح ، وإلا شفعت له .

لمن يكون الميزان ؟

(فصل) قال المؤلف : الميزان حق ؟ ولا يكون فى حق كل أحد ؛ بدليل قوله – عليه السلام – : فيقال : يا محمد ، أدخل الجنة من أمتك من لاحساب عليه .. » الحديث . وقوله تعالى : ﴿ **يعرف المجرمون بسيماهم** ﴾ [(١)] الآية ، وإنما يكون لمن بقى من أهل المحشر ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا من المؤمنين ، وقد يكون للكافرين على ماذكرنا ، ويأتى .

وقال أبو حامد : والسبعون الألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب لايرفع لهم ميزان ، ولا يأخذون صحفا ، وإنما هى برءات مكتوبة ، « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، هذه براءة فلان ابن فلان ، قد غفر له وسعد سعادة لا يشقى بعدها فما مر عليه شيء أسر من ذلك المقام .

قلت : وقد روى عن النبى ﷺ : أنه قال : « تُنْصَب الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة فيُوَفَّوْنَ أجورَهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم [(٢)] ديوان ويصب عليهم الأجر صبا بغير حساب » . ذكره القاضى منذر بن سعيد البلوطى – رحمه الله – وخرجه أبو نعيم الحافظ بمعناه عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « يؤتى بالشهيد يوم القيامة فينصب للحساب ، ويؤتى بالمتصدق فينصب

---

(١) ٤١ : الرحمن .

(٢) الديوان : السجل والكتاب ، وصحف الأعمال .

للحساب ، ثم يؤتى بأهل البلاء ، فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ؛ فيصب عليهم الأجر صباً ، حتى إن أهل العافية [1] ليتمنون فى الموقف أن أجسامهم قد قرضت بالمقاريض من حسن ثواب الله تعالى لهم » . هذا حديث حسن غريب ، من حديث جابر الجعفى وقتادة ، وتفرد به قتادة عن جابر عن ابن عباس عن مُجَّاعة بن الزبير .

وروى الحسين بن على – رضوان الله عليهما – قال : قال لى جدى ﷺ : « يابنى ، عليك بالقناعة تكن أغنى الناس ، وأد الفرائض تكن أعبد الناس » .

« يابنى ، إن فى الجنة شجرةً يقال لها شجرة البلوى ، يؤتى بأهل البلاء يوم القيامة ، فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، يصب عليهم الأجر صبا ، وقرأ ﷺ : ﴿ **إنما يُوَفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ [2] . ذكره أبو الفرج الجوزى فى كتاب (روضة المشتاق) .

(فصل)

كيف يتحقق الوزن فى أعمال الكافر ؟

فإن قيل : أما وزن أعمال المؤمنين فظاهر وجهه : فتقابَل الحسنات بالسيئات ؛ فتوجد حقيقة الوزن . والكافر لا يكون له حسنات فما الذى يقابل بكفره وسيئاته ؟ وأنَّى يتحقق فى أعماله الوزن ؟!!

فالجواب : أن ذلك على وجهين : [أحدهما – أن الكافر يحضر له ميزان فيوضع كفره – أو كفره وسيئاته – فى إحدى كفتيه ، ثم يقال له : هل لك من طاعة تضعها فى الكفة الأخرى فلا يجدها ، فيشال الميزان ، فترتفع الكفة الفارغة ، وتقع الكفة المشغولة فذلك خفة ميزانه ، وهذا ظاهر الآية ؛

---

(١) العافية : السلامة .. الذين لم يتعرضوا لابتلاء فى أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم .

(٢) ١٠ : الزمر .

لأن الله تعالى وصف الميزان بالخفة - لا الموزون - وإذا كان فارغا فهو خفيف .

والوجه الآخر أن الكافر يكون منه صلة الأرحام ، ومواساة الناس ، وعتق المملوك ، ونحوها مما لو كانت من المسلم لكانت قربة وطاعة فمن كانت له مثل هذه الخيرات من الكفار ، فإنها تجمع وتوضع فى ميزانه ، غير أن الكفر إذا قوبل بها رجح بها ، ولم يخل من أن يكون الجانب الذى فيه الخيرات من ميزانه خفيفا ، ولو لم يكن له إلا خير واحد أو حسنة واحدة لأحضرت ووزنت كما ذكرنا .

فإن قيل : لو احتسبت خيراته حتى يوزن لجوزى بها جزاء مثلها ، وليس له منها جزاء ؛ لأن رسول الله ﷺ سُئل عن عبد الله بن جدعان ، وقيل له : إنه كان يقرى [١] الضيف ، ويصل الرحم ، ويعين فى النوائب ، فهل ينفعه ذلك ؟ فقال : لا ؛ لأنه لم يقل يوما : « رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » [٢] .

وسأله عدى بن حاتم عن أبيه مثل ذلك فقال : « إن أباك طلب أمراً فأدركه » . يعنى : الذكر [٣] . فدل أن الخيرات من الكافر ليست بخيرات ، وأن وجودها وعدمها بمنزلة واحدة سواء .

والجواب : أن الله تعالى قال : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظْلَمُ نفس شيئا** ﴾ [٤] . ولم يفصل بين نفس ونفس فخيرات الكافر توزن ، ويجزى بها ، إلا أن الله تعالى حرم عليه الجنة ، فجزاؤه أن يخفف عنها ؛ بدليل حديث أبى طالب .

---

(١) يقرى الضيف : يطعمه ، والقِرى : ما يقدم للضيف .
(٢) إشارة إلى قول الله تعالى فى سورة الشعراء الآية رقم ٨٢ : ﴿ **والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين** ﴾ .
(٣) يقصد الذكر على ألسنة الناس ، والشهرة بينهم بالكرم وقد تم له ما أراد .
(٤) ٤٧ : الأنبياء .

فإن قيل له : يا رسول الله ، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ، فهل نفعه ذلك ؟ فقال : نعم ، وجدته فى غمرات [1] من النار ، فأخرجته إلى ضحضاح ، ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من الناس .

وما قاله عليه السلام : فى ابن جُدعان ، وأبى عدى إنما هل فى أنهما لا يدخلان الجنة ، ولا يتنعمان بشيء من نعيمها ، والله أعلم .

(فصل)

ما أصل كلمة ميزان ؟ ولماذا أنكرت المعتزلة الميزان ؟ وبم نرد عليهم ؟

أصل ميزان : مِوْزان – قلبت الواو ياء ؛ لكسرة ما قبلها . قال ابن فورك : وقد أنكرت المعتزلة الميزان ؛ بناء منهم على أن الأعراض [2] يستحيل وزنها ؛ إذا لا تقوم بأنفسها .

ومن المتكلمين من يقول كذلك ، وروى ذلك عن ابن عباس : أن الله تعالى يقلب الأعراض أجساما ، فيزنها يوم القيامة ، وقد تقدم هذا المعنى .

والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة ، وبها تخف كما دل عليه الحديث الصحيح ، والكتاب العزيز ، قال الله عز وجل : ﴿ **وإنَّ عليكم لحافظين كراما كاتبين** ﴾ [3] .

وهذا نص ، قال ابن عمر : توزن صحائف الأعمال ، وإذا ثبت هذا فالصحف أجسام ؛ فيجعل الله تعالى رجحان إحدى الكفتين على الأخرى دليلا على كثرة أعماله بإدخاله الجنة أو النار .

---

(١) غمرات من النار فى قاع النار . إلى ضحضاح : قريب القعر يسير النار .

(٢) يقول المناطقة : هناك جوهر ، وعَرَض . فالعرض ما قام بغيره والجوهر ما قام بنفسه . والجواهر توزن لأن لها جرما أما الأعراض فلا توزن . وهى مثل الصفات والأخلاقيات وتأمل : إخراج الزكاة صدقة . والكلمة الطيبة صدقة . الزكاة عمل صالح والصلاة عمل صالح فإذا وزنت الزكاة فكيف توزن الكلمة الطيبة ؟ وإذا وزنت الزكاة ، فكيف توزن الصلاة ؟

(٣) ١١ – ١٢ : الانفطار .

وروى عن مجاهد والضحاك والأعمش : أن الميزان هنا بمعنى العدل ، والقضاء ، وذكر الوزن والميزان ضرب مثل كما يقول هذا الكلام فى وزن هذا وفى وزانه : أى يعادله ويساويه ، وإن لم يكن هناك وزن .

قلت : وهذا القول مجاز ، وليس بشيء - وإن كان شائعا فى اللغة - لِلسُّنَّةِ الثابتة فى الميزان الحقيقى ، ووصفه بكفتين ، ولسان ، وأن كل كِفة منهما طباق السموات والأرض (١) .

وقد جاء أن كفة الحسنات من نور ، والأخرى من ظلام ، والكفة النيرة للحسنات ، والكفة المظلمة للسيئات .

وجاء فى الخبر « أن الجنة توضع عن يمين العرش ، والنار عن يسار العرش ، ويؤتى بالميزان فينصب بين يدى الله تعالى : كفة الحسنات عن يمين العرش مقابل الجنة ، وكفة السيئات عن يسار العرش ، مقابل النار » وذكر الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول .

وروى عن سليمان الفارسى - رضى الله عنه - أنه قال : توضع الموازين يوم القيامة ، فلو وضعت فيهن السموات والأرض لوسعتهن ، فتقول الملائكة : يا ربنا ما هذا ؟ فيقول : أزن به لمن شئت من خلقى . فتقول الملائكة عند ذلك : ربنا ماعبدناك حق عبادتك .

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - توزن الحسنات والسيئات فى ميزان له لسان وكفتان .

قال علماؤنا :

ولو جاز حمل الميزان على ماذكروه ، لجاز حمل الصراط : على الدين الحق ،

والجنة والنار : على ما يرد على الأرواح دون الأجساد من الأحزان والأفراح ،

---

(١) تساوى وتعادل .

والشياطين والجن : على الأخلاق المذمومة ،

والملائكة : على القوى المحمودة .

وهذا كله فاسد ؛ لأنه رد لما جاء به الصادق ، وفى الصحيحين : فيعطى صحيفة حسناته ، وقوله فيخرج له بطاقة ، وذلك يدل على الميزان الحقيقى ، وأن الموزون صحف الأعمال كما بينا ، وبالله توفيقنا .

ولقد أحسن من قال :

تذكرِ يوم تأتى الله فرداً وقد نصبت موازين القضاء !
وهُتِّكَتِ الستوُر عن المعاصى وجاء الذنب منكشف الغطاء

* * *

فصل
الناس فى الآخرة ثلاث طبقات

قال علماؤنا – رحمهم الله : الناس فى الآخرة ثلاث طبقات : متقون لا كبائر لهم ، ومخلطون – وهم الذين يوافون بالفواحش والكبائر ، والثالث – الكفار .

فأما المتقون ، فإن حسناتهم توضع فى الكفة النيرة ، وصغائرهم – إن كانت لهم – الكفة الأخرى ، فلا يجعل الله لتلك الصغائر وزنا ، وتثقل الكفة النيرة حتى لا تبرح ، وترتفع المظلمة ارتفاع الفارغ الخالى .

وأما المخلطون : فحسناتهم توضع فى الكفة النيرة ، وسيئاتهم فى الكفة المظلمة ، فيكون لكبائرهم ثقل ، فإن كانت الحسنات أثقل ولو بصؤابة [1]

---

(١) الصؤابة : بيضة القمل . جمعه صؤاب وصئبان ، والمراد ولو كان مصدر الثقل شيئا متناهيا فى الصغر فإنه يغير من الموقف .

دخل الجنة ، وإن كانت السيئات أثقل ولو بصؤابة دخل النار ! - إلا أن يغفر الله - وإن تساويا كان من أصحاب الأعراف على ما يأتى .

هذا إن كانت الكبائر فيما بينه وبين الله . وأما إن كانت عليه تبعات [1] وكانت له حسنات كثيرة فإنه ينقص من ثواب حسناته بقدر جزاء السيئات لكثرة ما عليه من التبعات فيحمل عليه من أوزار من ظلمه ، ثم يعذب على الجميع . هذا ما تقتضيه الأخبار ، على ما تقدم ويأتى .

قال أحمد بن حرب : تبعث الناس يوم القيامة على ثلاث فرق :

- فرقة أغنياء بالأعمال الصالحة .
- وفرقة فقراء .
- وفرقة أغنياء ثم يصيرون فقراء مفاليس فى شأن التبعات .

وقال سفيان الثورى : إنك إن تلقى الله عز وجل بسبعين ذنبا فيما بينك وبينه أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد .

قال المؤلف : هذا صحيح ؛ لأن الله غنى كريم ، وابن آدم فقير مسكين ، محتاج فى ذلك اليوم إلى حسنة يدفع بها سيئة ، إن كانت عليه ، حتى ترجح ميزانه ، فيكثر خيره وثوابه .

- وأما الكافر : فإنه يوضع كفره فى الكفة المظلمة ، ولا يوجد له حسنة توضع فى الكفة الأخرى فتبقى فارغة لفراغها وخلوها عن الخير ، فيأمر الله بهم إلى النار ، ويعذب كل واحد منهم بقدر أوزاره وآثامه .

- وأما المتقون : فإن صغائرهم تكفر باجتنابهم الكبائر ، ويؤمر بهم إلى الجنة ، ويثاب كل واحد منهم بقدر حسناته وطاعته ، فهذان الصنفان هما المذكوران فى القرآن فى آيات الوزن ؛ لأن الله تعالى لم يذكر إلا من ثقلت موازينه ، ومن خفت موازينه ، وقطع لمن ثقلت موازينه بالإفلاح والعيشة

---

(١) مسئوليات تجاه المخلوقات لم يؤدها لهم قبل وفاته وبقيت فى ذمته .

الراضية ، ولم خفت موازينه بالخلود فى النار – بعد أن وصفه بالكفر – .

وبقى الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، فبينهم النبى ﷺ حسب ما ذكرناه .

لماذا توزن الأعمال ؟

وإنما توزن أعمال المؤمن المتقى ؛ لإظهار فضله ، كما توزن أعمال الكافر لخزيه وذله ؛ فإن أعماله توزن تبكيتا له على فراغه وخلوه عن كل خير فكذلك توزن أعمال المتقى تحسينا لحاله ، وإشارة لخلوه من كل شر ، وتزيينا لأمره على رءوس الأشهاد .

وأما المخلط السيىء بالصالح ، فإن دخل فى النار ، فيخرج بالشفاعة على ما يأتى .

(فصل)

ثواب الجن وحسابهم

فإن قيل : قد أخبر الله تعالى عن الناس أنهم محاسبون مجزيون ، وأخبر أنه يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، ولم يخبر عن ثواب الجن ولا عن حسابهم بشىء ، فما القول فى ذلك عندكم ؟ وهل توزن أعمالهم ؟ فالجواب أنه قد قيل : إن الله تعالى لما قال : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ [1] .

– دخل فى الجملة الجن والإنس فثبت للجن من وعد الجنة بعموم الآية ما ثبت للإنس . وقال : ﴿ **أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين** ﴾ [2] . ثم قال : ﴿ **ولكل درجات مما عملوا** ﴾ [3]، وإنما أراد لكل من الجن والإنس ؛ فقد ذكروا فى

---

(١) ٢٣ : هود .

(٢) ١٨ : الأحقاف .

(٣) ١٩ : الأحقاف .

الوعد والوعيد مع الإنس ، وأخبر تعالى أن الجن يسألون فقال خبرا عما يقال لهم : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا** ﴾ [(١)] ، وهذا سؤال وإذا ثبت بعض السؤال ثبت كله ، وقد تقدم هذا .

وقال تعالى : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ..** ﴾ إلى قوله : ﴿ **يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ، ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين** ﴾ [(٢)] . وهذا يدل صريحا على أن حكمهم فى الآخرة كالمؤمنين . وقال حكاية عنهم ﴿ **وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون** ﴾ الآيتين [(٣)] .

ولما جعل رسول الله ﷺ زادَهم كل عظم ، وعلف دوابهم كل روث [(٤)] فلا تستنجوا بهما ، فإنهما طعام إخوانكم الجان ، فجعلهم إخواننا ، وإذا كان كذلك فحكمهم كحكمنا فى الآخرة سواء . والله أعلم .

وقد تقدمت الإشارة إلى هذا فى باب ما جاء أن الله يكلم العبد ليس بينه وبينه ترجمان .

(فصل)

هل توضع شهادة التوحيد فى الميزان؟

قوله فى الحديث : فيخرج له بطاقة فيها : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » ليست هذه شهادة التوحيد ؛ لأن من شأن الميزان أن يوضع فى كِفَّةٍ شيءٌ ، وفى أخرى ضده ، فتوضع الحسنات فى كفة ، والسيئات فى كفة ، فهذا غير مستحيل ؛ لأن العبد يأتى بهما جميعا . ويستحيل

---

(١) ١٣٠ : الأنعام .
(٢) ٣١ - ٣٢ : الأحقاف .
(٣) سورة الجن ١٤ ، ١٥ .
(٤) الروث : مخلفات الدواب .

أن يأتى الكفر والإيمان جميعا عند واحد حتى يوضع الإيمان فى كفة ، والكفر فى كفة ؛ فلذلك استحال أن توضع شهادة التوحيد فى الميزان .

وأما بعدما آمن العبد فإن النطق منه « لا إله إلا الله » حسنة توضع فى الميزان مع سائر الحسنات ، قاله الترمذى الحكيم - رحمه الله - .

وقال غيره : إن النطق بها زيادة ذكر على حسن نية ، وتكون طاعة مقبولة قالها على خلوة وخفية من المخلوقين ، فتكون له عند الله تبارك وتعالى وديعة يردها عليه فى ذلك اليوم بعظم قدرها ، ومحل موقعها ، وترجح بخطاياه وإن كثرت ، وبذنوبه وإن عظمت ، ولله الفضل على عباده ، ويتفضل على من يشاء بما شاء .

قلت : ويدل على هذا قوله فى الحديث : فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة ، ولم يقل : إن لك إيمانا .

وقد سئل رسول الله ﷺ عن (لا إله إلا الله) أمِنَ الحسنات هى ؟ فقال : من أعظم الحسنات . خرجه البيهقى وغيره .

ويجوز أن تكون هذه الكلمة هى آخر كلامه فى الدنيا كما فى حديث معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان آخر كلامه فى الدنيا - لا إله إلا الله - وجبت له الجنة » رواه صالح بن أبى غريب عن كثير ابن مرة ، عن معاذ . وقد تقدم أول الكتاب .

وقيل يجوز حمل هذه الشهادة على الشهادة التى هى الإيمان ويكون ذلك فى كل مؤمنٍ ترجح حسناته ، ويوزن إيمانه ، كما توزن سائر حسناته ، وإيمانه يرجح سيئاته كما فى هذا الحديث ، ويدخله النار بعد ذلك ، فيطهره من ذنوبه ، ويدخله الجنة بعد ذلك .

وهذا مذهب قوم يقولون : إن كل مؤمن يعطى كتابه بيمينه وكل مؤمن يثقل ميزانه ، ويتأولون قول الله تعالى : ﴿ **فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون** ﴾[1] . أى الناجون من الخلود ، وهو فى قوله : ﴿ **فهو فى عيشة راضية** ﴾[2] يوماً مَّا ، وكذلك فى قول النبى ﷺ : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة » . إنه صائر إليها لا محالة – أصابه قبل ذلك ما أصابه – .

قلت : هذا تأويل فيه نظر ، يحتاج إلى دليل من خارج ينص عليه . والذى تدل عليه الآى والأخبار : أن من ثقل ميزانه فقد نجا وسلم ، وبالجنة أيقن وعلم أنه لا يدخل النار بعد ذلك والله أعلم .

وقال عليه السلام –: « ما شيء يوضع فى الميزان أثقل من خُلُقٍ حسن » . خرجه الترمذى عن أبى الدرداء . وقال فيه : حديث حسن صحيح . وقد تقدم من حديث سَمُرَة بن جندب رضى الله عنه قوله عليه السلام : « ورأيت رجلا من أمتى قد خف ميزانه فجاء أفراطه[3] فثقلوا ميزانه ، وكذلك الأعمال الصالحة دليل على فضل الصلاة على النبى ﷺ .

وذكر القشيرى فى (التحبير) له : يحكى عن بعضهم أنه قال : رأيت بعضهم فى المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : وزنت حسناتى فرجحت السيئات على الحسنات فجاءت صرة[4] من السماء ، وسقطت فى كفة الحسنات فرجحت ، فحللت الصرة ، فإذا فيها كف تراب ألقيته فى قبر مسلم .

---

(١) ٨ : الأعراف .

(٢) ٦ : القارعة .

(٣) الأَفْراط جمع فَرَط : وهم الأولاد الذين سبقوا إلى لقاء الله قبل أبيهم كما يقال : فَرَطَ القومَ أى تقدمهم إلى مورد الماء لإعداد ما يلزم للسقيا .

(٤) الصرة : ما يصر ويربط .

وذكر أبو عمر فى كتاب (جامع بيان العلم) بإسناده عن حماد بن زيد عن أبى حنيفة عن حماد بن إبراهيم فى قوله عز وجل ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة** ﴾ (١) . قال : يجاء بعمل الرجل فيوضع فى كفة ميزانه يوم القيامة فتخف ، فيجاء بشيء أمثال الغمام ، أو قال : مثل السحاب ، فيوضع فى ميزانه ، فترجح ، فيقال له : أتدرى ما هذا ؟ فيقول : لا ، فيقال له : هذا فضل العلم الذى كنت تعلمه الناس .

باب - الأعمال بخواتيمها

الترمذى عن عائشة - رضى الله عنها - أن رجلا قعد بين يدى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن لى مملوكينَ يكذبوننى ، ويخونوننى ، ويعصوننى ، وأشتمهم ، وأضربهم ، فكيف أنا منهم ؟ قال : يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك ، وعقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل .

قال : فتنحى الرجل فجعل يبكى ، ويهتف ، فقال رسول الله ﷺ : أما تقرأ كتاب الله تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا** .. ﴾ (٢) الآية .. فقال الرجل : والله يا رسول الله ما أجد لى ، ولهؤلاء شيئا خيرا من مفارقتهم ، أشهدك أنهم أحرار كلهم . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن غزوان .

وقد روى أحمد بن حنبل ، عن عبد الرحمن بن غزوان هذا الحديث .

وعن وهب بن منبه فى قوله تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة** ﴾ قال : إنما يوزن من الأعمال خواتيمها ، وإذا أراد الله بعبد خيرا ختم له بخير ، وإذا أرادَ الله به شرا ختم له بشر عمله . ذكره أبو نعيم .

---

(١) ٤٧ : الأنبياء .

(٢) ٤٧ : الأنبياء .

قال المؤلف : هذا صحيح يدل عليه قوله عليه السلام : « وإنما الأعمال بالخواتيم » . والله تعالى أعلم .

باب منه : من استوت حسناته وسيئاته أين مصيره ؟

ذكر خيثمة بن سليمان فى مسنده عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « توضع الموازين يوم القيامة ، فتوزن السيئات والحسنات ، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة دخل الجنة ، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار ، قيل : يا رسول الله ، فمن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال : أولئك « أصحاب الأعراف » . لم يدخلوها ، وهم يطمعون ! » .

وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا أبو بكر الهزلى عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن مسعود قال : يحاسَبُ الناس يوم القيامة ، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ، ثم قرأ ﴿ **فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم** ﴾ (١) ثم قال : إن الميزان يخف بمثقال حبة أو ترجح ، قال : ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف . وذكر الحديث .

وقال كعب الأحبار : إن الرجلين كانا صديقين فى الدنيا ، فيمر أحدهما بصاحبه ، وهو يجر إلى النار ، فيقول له أخوه : والله ما بقى لى إلا حسنة أنجو بها ، خذها أنت يا أخى فتنجو بها مما أرى ، وأبقى أنا وإياك من أصحاب الأعراف . قال : فيأمر الله بهما جميعا ، فيدخلان الجنة !

وذكر أبو حامد فى كتاب « كشف علم الآخرة » أنه يؤتى برجل يوم القيامة فما يجد له حسنة ترجح ميزانه ، وقد اعتدلت بالسوية ، فيقول الله

---

(١) ٨ ، ٩ : الأعراف .

تعالى – رحمة منه – : اذهب فى الناس فالتمس من يعطيك حسنة أدخلك بها الجنة ، فيصير يجوس خلال العالمين فما يجد أحدا يكلمه فى ذلك الأمر إلا يقول له : خفت أن يخف ميزانى فأنا أحوج منك إليها ، فييئس ؛ فيقول له رجل : ما الذى تطلب ؟ فيقول : حسنة واحدة ، فلقد مررت بقوم لهم منها الألف ، فبخلوا على ، فيقول له الرجل : لقد لقيت الله تعالى فما وجدت فى صحيفتى إلا حسنة واحدة ، وما أظنها تغنى عنى شيئا ، خذها هبة منى إليك فينطلق فرحا مسرورا ، فيقول الله له : ما بالك ؟ – وهو أعلم – .. فيقول : رب ، اتفق من أمرى كيت وكيت ، ثم ينادى – سبحانه – بصاحبه الذى وهبه الحسنة ، فيقول له – سبحانه – : كرمى أوسع من كرمك ، خذ بيد أخيك ، وانطلقا إلى الجنة .

وكذا تستوى كِفَّتا الميزان لرجل ، فيقول الله تعالى : لست من أهل الجنة ، ولا من أهل النار ، فيأتى الملك بصحيفة ، فيضعها فى كفة الميزان فيها مكتوب : أف !! فترجح على الحسنات ؛ لأنها كلمة عقوق [1] ترجح بها جبال الدنيا ، فيؤمر به إلى النار .

قال : فيطلب الرجل : أن يرده الله تعالى ، فيقول : ردوه ، فيقول له : أيها العبد العاق ! لأى شيء تطلب الردَّ إلى ؟ فيقول : إلهى ، رأيت أنى سائر إلى النار ، وإذ لابد لى منها ، وكنت عاقا لأبى ، وهو سائر إلى النار مثلى ، فضعف علىَّ به عذابى ، وأنقذه منها ! قال : فيضحك الله تعالى ويقول : عققته فى الدنيا ، وبررته فى الآخرة ، خذ بيد أبيك ، وانطلقا إلى الجنة !

---

(١) وفى القرآن الكريم من الوصية بالوالدين : ﴿ **فلا تقل لهما أفٍّ** ﴾ [٢٣ : الإسراء] وهى اسم فعل مضارع بمعنى أتوجع منكما وأتضجر وهى فى مواجهة من نقولها لها : تحمل مشاعر كريهة مؤذية تؤلم نفس المخاطب وتجرح أحاسيسه ، أرأيت .. كيف تفعل بصاحبها ؟!

(فصل)

أهو ميزان واحد ، أم موازين متعددة ؟
ومن صاحب الميزان ؟

ذكر الله تعالى الميزان فى كتابه بلفظ الجمع ، وجاءت السنة بلفظ الإفراد والجمع ، فقيل :

يجوز أن يكون هناك موازين للعمل الواحد يوزن بكل ميزان منها صنف من الأعمال كما قال :

ملك تقوم الحادثات لعدله ... فلكل حادثة لها ميـزان
تتصرف الأشياء فى ملكوته ... ولكل شيء مدة وأوان

ويمكن أن يكون ميزانا واحدا عبر عنه بلفظ الجمع ، كما قال تعالى : ﴿ **كذَّبت عادٌ المرسلين** ﴾ [1] . ﴿ **كذبت قوم نوح المرسلين** ﴾ [2] .

وإنما هو رسول واحد .

وقيل : المراد بالموازين جمع موزون ، أى الأعمال الموزونة ، لا جمع ميزان .

وخرج اللالكائى في سننه عن أنس – رفعه – : « أن ملكا موكل بالميزان ، فيؤتى بابن آدم ، فيوقف بين كِفتى الميزان ، فإن رجح نادى الملك بصوت يسمع الخلائق كلها : سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا » .

وخرج عن حذيفة قال :

صاحب الميزان يوم القيامة جبريل عليه السلام .

* * *

---

(١) الشعراء : ١٢٣ .
(٢) الشعراء : ١٠٥ .

(فصل)
أصحاب الأعراف واختلاف العلماء فى تعيينهم

وأما أصحاب الأعراف فيقال : إنهم مساكين أهل الجنة . ذكر هناد ابن السرى قال :

حدثنا وكيع عن سفيان ، عن مجاهد ، عن حبيب ، عن عبد الله ابن الحارث قال : أصحاب الأعراف ينتهى بهم إلى نهر يقال : الحياة . حافتاه قصب الذهب . قال : أراه قال : مكلل باللؤلؤ ، فيغتسلون منه اغتسالة ، فيبدو فى نحورهم شامة بيضاء ، ثم يعودون ، فيغتسلون فكلما اغتسلوا زادت بياضا ، فيقال لهم : تَمنَّوْا ، فيتمنون ما شاءوا . قال : فيقال لهم : لكم ما تمنيتم وسبعون ضعفا ، قالوا : فهم مساكين أهل الجنة . وفى رواية : « فإذا دخلوا الجنة ، وفى نحورهم تلك الشامة البيضاء ، فيعرفون بها ، قال : فهم يسمون فى الجنة مساكين أهل الجنة .

أقوال العلماء فى تعيينهم :

واختلف العلماء فى تعيينهم على اثنى عشر قولا :

(الأول) : ما تقدم ذكره فى الحديث ، وهو قول ابن مسعود ، وكعب الأحبار كما ذكرنا ، وذكره ابن وهب عن ابن عباس .

(الثانى) : قوم صالحون ، فقهاء ، علماء . قاله : مجاهد .

(الثالث) : هم الشهداء . ذكره المهدوى .

(الرابع) : هم فضلاء المؤمنين والشهداء ، فرغوا من شغل أنفسهم وتفرغوا لمطالعة أحوال الناس . ذكره أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيرى .

(الخامس) : هم المستشهدون فى سبيل الله الذين خرجوا عصاة لآبائهم . قاله : شرحبيل بن سعد . وذكر الطبرى فى ذلك حديثا عن رسول الله ﷺ وأنه تَعادَلَ عقوقهم واستشهادهم .

(السادس) : هم العباس وحمزة ، وعلى بن أبى طالب وجعفر ذو الجناحين يعرفون محبيهم ببياض الوجوه ، ومبغضيهم بسواد الوجوه . ذكره الثعلبى عن ابن عباس .

(السابع) : هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم وهم فى كل أمة . ذكره الزهراوى ، واختاره النحاس .

(الثامن) : هم قوم أنبياء . قاله الزجاج .

(التاسع) : هم قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهم بالآلام والمصائب فى الدنيا ، فوقفوا ، وليست لهم كبائر ، فيحبسون عن الجنة ؛ لينالهم بذلك غم ، فيقع فى مقابلة صغائرهم . حكاه ابن عطية القاضى أبو محمد فى تفسيره .

(العاشر) : ذكره ابن وهب عن ابن عباس قال : أصحاب الأعراف الذين ذكر الله فى القرآن : أصحاب الذنوب العظام من أهل القبلة .

وذكره ابن المبارك ، قال : أخبرنا جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : أصحاب الأعراف رجال ، كانت لهم ذنوب عظام ، وكان جسيم أمرهم لله ، فأقيموا ذلك المقام . إذا نظروا إلى أهل النار عرفوهم بسواد الوجوه ، و ﴿ **قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** ﴾ (١) .

وإذا نظروا إلى أهل الجنة عرفوهم ببياض وجوههم .

قال ابن عباس : أدخل الله أصحاب الأعراف الجنة ، وفى رواية سعيد ابن جبير عن عبد الله بن مسعود : وكانوا آخر أهل الجنة دخولا الجنة . (قال) ابن عطية : وتمنى سالم مولى أبى حذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف ؛ لأن مذهبه أنهم مذنبون .

(الحادى عشر) : أنهم أولاد الزنا . ذكره أبو نصر القشيرى عن ابن عباس .

---

(١) ٤٧ : الأعراف .

(الثانى عشر) : أنهم ملائكة موكلون بهذا السور يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار . قاله أبو مجاز لاحق بن حميد فقيل له : لا يقال للملائكة رجال . فقال : إنهم ذكور ، وليسوا بإناث فلا يبعد إيقاع لفظ الرجال عليهم ، كما وضع على الجن فى قوله تعالى : ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن** ﴾ [١] .

ما الأعراف ؟

والأعراف : سور بين الجنة والنار . قيل هو جبل أحد يوضع هناك (روى) عن النبى ﷺ عن طريق أنس وغيره . ذكره أبو عمر بن عبد البر وغيره حسب ما ذكرناه فى كتاب جامع أحكام القرآن من سورة الأعراف والحمد لله .

رؤيا بعض الصالحين : (حكاية)

روى عن بعض الصالحين - رضى الله عنه - أنه قال : أخذتنى ذات ليلة سِنَةٌ ، فنمت فرأيت فى منامى كأن القيامة قد قامت ، وكأن الناس يحاسبون فقوم يُمضَى بهم إلى الجنة ، وقوم يمضى بهم إلى النار !!

قال : فأتيت إلى الجنة ، فناديت أهل الجنة : بماذا نلتم سكنى الجنة فى محل الرضوان ؟ فقالوا : بطاعة الرحمن ، ومخالفة الشيطان .

ثم أتيت إلى باب النار ، فناديت : يا أهل النار ، بماذا نلتم النار ؟ قالوا : بطاعة الشيطان ، ومخالفة الرحمن .

---

(١) ٦ : الجن .

قال : فنظرت فإذا أنا بقوم موقوفون بين الجنة والنار ، فقلت لهم : ما بالكم موقوفون بين الجنة والنار ؟ فقالوا لى : لنا ذنوب جلَّت ، وحسنات قلَّت ؛ فالسيئات منعتنا من دخول الجنة ، والحسنات منعتنا دخول النار ، وأنشدوا :

نحن قوم لنا ذنوب كبار   منعتنا من الوصول إليه
تركتنا مذبذين حيارى   أمسكتنا من القدوم عليه

* * *

باب

إذا كان يوم القيامة تتبع كل أمة ما كانت تعبد فإذا بقى فى هذه الامة منافقون امتحنوا وضرب الصراط .

الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : يجمع الله الناس يوم القيامة فى صعيد واحد ، ثم يطلع عليهم رب العالمين فيقول : ألا ليتبع كل إنسان ما كان يعبد : فيمثل لصاحب الصليب صليبه ، ولصاحب التصاوير تصاويره ، ولصاحب النار ناره ، فيتبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون . وذكر الحديث بطوله .

وخرج مسلم عنه أنَّ ناسا قالوا لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ، فقال رسول الله ﷺ : « هل تضارون فى رؤية الشمس ليس دونها سحاب ؟ » قالوا : لا ، قال : » فإنكم ترونه كذلك . يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبعه : فيتبع من كان يعبد الشمسَ - الشمسَ ، ويتبع من كان يعبد القمرَ القمرَ ، ويتبع من كان يعبد الطواغيتَ - الطواغيتَ ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله فى صورة غير صورته التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ! هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا أتى ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا فيتبعونه ، ويضرب الصراط بين ظهرى جهنم ، فأكون أنا وأمتى أول من يجوز ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلِّم سلِّم ، وفى جهنم كلاليب [1] مثل شوك السعدان ، هل رأيتم السعدان ؟ » قالوا : نعم ، يا رسول الله ، قال : « فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها

---

(١) الكلاليب : جمع كُلَّاب ، وكَلُّوب : خشبة فى رأسها عقافة منها أو من حديد وكلاليب الشجر شوكه . والسعدان : نبت له شوك ، وهو من أفضل ما ترعاه الإبل وفيه ضرب المثل فقيل : (مرعى ، ولا كالسَّعدان !) .

إلا الله ، تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم الموبق [1] بعمله ، ومنهم المجازى حتى ينجى » . وذكر الحديث . وسيأتى .

أمر آدم بإخراج بعث النار ، والإذن للنبى محمد ﷺ فى الشفاعة

ذكر الفقيه أبو بكر بن برجان فى كتاب الإرشاد له بعد قوله : يُلْهَم رءوس المحشر لطلب من يشفع ويريحهم مما هم فيه ، وهم رؤساء أتباع الرسل فيكون ذلك ، ثم يؤمر آدم - عليه السلام - بأن يخرج بعث النار من ذريته وهم سبعة أصناف :

البعثان الأولان : يلتقطهم عنق النار من بين الخلائق لقط الحمام حب السمسم وهم أهل الكفر بالله حجدا وعُتوًّا ، وأهل الكفر بالله إعراضا وجهلا ، ثم يقال لأهل الجمع : أين ما كنتم تعبدون من دون الله ؟ لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فمن كان يعبد من دون الله شيئا اتبعه ، حتى يقذف به فى جهنم ، قال الله عز وجل : ﴿ **هنالك تبلو كلُّ نفس ما أسلفت ، ورُدُّوا إلى الله مولاهم الحق ، وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ [2] **وقال** : ﴿ **فكبكبوا فيها هم والغاوون * وجنود إبليس أجمعون** ﴾ [3] .

وقال رسول الله ﷺ : « تمد الأرض مد الأديم يوم القيامة لعظمة الله عز وجل ثم لا يكون لبشر من بنى آدم منها إلا موضع قدميه ، ثم أُدْعَى أنا أولَ الناس فأخِر ساجدا ، ثم يؤذن لى فأقول : يارب ، خبرنى هذا جبريل ﷺ وهو عن يمين عرش الرحمن تبارك وتعالى : أنك أرسلته إلى وجبريل ساكت لا يتكلم حتى يقول الله عز وجل : صدق ، ثم يؤذن لى فى الشفاعة فأقول :

---

(١) المحبوس بعمله كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا** ﴾ قال الطبرانى : عداوة . وقيل مُهْلِكاً : أى وجعلنا فعلهم ذلك لهم مهلكا . وقيل : هو اسم واد فى جهنم فصل بين الجنة وأهل النار .

(٢) ٣٠ : يونس .

(٣) ٩٤ - ٩٥ : الشعراء .

يارب عبادك عبدوك فى أقطار الأرض فذلك « المقام المحمود » .

ثم يبعث البعث الرابع : وهم قوم وحدوا الله وكذبوا المرسلين ، جهلوا صفات الله جل جلاله ، وردوا عليه كتبه ورسله .

ثم يبعث البعث الخامس والسادس : وهم أهل الكتابين ، يأتون ربهم عطاشا ، يقال لهم : ماكنتم تبغون ؟ فيقولون : عطشنا ياربنا فاسقنا ، فيقال لهم : ألا ترون ؟ فيشار لهم إلى جهنم ، كأنها سراب يحطم بعضها بعضا ، فيَرِدُونها (١) سقوطا فيها ، ثم تقع المحنة بالمنافقين والمؤمنين فى معرفة ربهم ، وتميزه من المعبودات من دونه ، فيذهب الله المنافقين ، ويثبت المؤمنين .

ثم ينصب الصراط مجازا (٢) على متن جهنم - أعاذنا الله منها - أرق من الشعر ، وأحد من الموسى ، كما وصفه رسول الله ﷺ ، فيسقط أهل البدع فى الباب السادس منه أو الخامس .

وأهل الكبائر فى السابع أو السادس ، وإنما يسقط الساقط بعد ما يعجز عن عمله ، ويخلص المؤمنون على درجاتهم فى تفاوتهم فى النجاة ، ويحبسون على قنطرة بين الجنة والنار يتقاضون مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا صفوا وهذبوا ، أدخلوا الجنة ، ومن ذلك المقام يوقف أصحاب الأعراف .

قال المؤلف : هكذا ذكر هذا الترتيب ، وهو ترتيب حسن ، وسيأتى مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

(فصل) : مزيد بيان للأحاديث الواردة فى الميزان

قوله : « هل تُضَارُّونَ » - بضم التاء وفتحها ، وبتشديد الراء وتخفيفها ، وضم التاء وتشديد الراء أكثر . وأصله : تضارون . أسكنت الراء الأولى وأدغمت مع الثانية ، وماضيه : ضورر (على ما لم يسم فاعله) ،

---

(١) فيردونها : أى فيقبلون عليها طالبين للماء ، وفى القرآن : ﴿ **فلما ورد ماء مدين** ﴾ .

(٢) أى طريقا يجتازه المارون عليه وهو مقام على ظهر جهنم .

ويجوز أن يكون مبنيا للفاعل بمعنى : تضارون بكسر الراء ، إلا أنها سكنت الراء ، وأدغمت ، وكله من الضر (المشدد) ، وأما التخفيف ، فهو من ضاره يضيره ويضوره مخففا .

والمعنى أن أهل الجنة إذا امتن الله عليهم برؤيته – سبحانه – تجلى لهم ظاهرا بحيث لا يحجب بعضهم بعضا ، ولا يضره ، ولا يزاحمه ولا يجادله ، كما يفعل عند رؤية الأَهِلَّة ، بل كالحال عند رؤية الشمس والقمر ليلة تمامه .

وقد روى : تضامون – من المضامة ، وهى الازدحام أيضا ، أى لا تزدحمون عند رؤيته تعالى ، كما تزدحمون عند رؤية الأهلة .

وروى : تضامون – بتخفيف الميم – من الضيم الذى هو الذل ، أى لا يذل بعضكم بعضا بالمزاحمة والمنافسة والمنازعة ، وسيأتى هذا المعنى مرفوعا إلى النبى ﷺ فى أبواب الجنة إن شاء الله تعالى .

قوله : « فإنكم ترونه كذلك » هذا تشبيه للرؤية وحالة الرائى ، لا المرئى ؛ لأن الله سبحانه – لا يحاط به ، وليس كمثله شىء ، ولا يشبهه شىء .

وقوله : « فيأتيهم الله فى صورة غير صورته التى يعرفون » هذا موضع الامتحان ليميز المحق من المبطل ؛ وذلك أنه لما بقى المنافقون والمراءون متلبسين بالمؤمنين والمخلصين زاعمين أنهم منهم ، وأنهم عملوا مثل أعمالهم ، وعرفوا الله مثل معرفتهم – امتحنهم الله بأن أتاهم بصورة قالت للجميع : أنا ربكم ، فأجاب المؤمنون بإنكار ذلك ، والتعوذ منه لما قد سبق لهم من معرفتهم بالله عز وجل فى دار الدنيا ، وأنه منزه عن صفات هذه الصور ؛ إذ سماتها سمات المحدثات ؛

ولهذا قال فى حديث أبى سعيد الخدرى : فيقولون : « نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئا – مرتين ، أو ثلاثا – حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب »

قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر : فى كتاب « المفهم بشرح اختصار مسلم » وهذا لمن لم يكن له رسوخ العلماء ، ولعلهم الذين اعتقدوا الحق ، وجزموا عليه من غير بصيرة ؛ ولذلك كان اعتقادهم قابلا للانقلاب . والله أعلم .

قلت : ويحتمل أن يكونوا - المنافقين والمرائين . وهو أشبه - والله أعلم . لأن فى الامتحان الثانى يتحقق ذلك ؛ لأن فى حديث أبى سعيد بعد قوله : « حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب ، فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفوه بها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ، ثم يرفعون رءوسهم وقد تحول فى الصورة التى رأوه فيها ، فيقول : أنا ربكم ؟ فيقولون : أنت ربنا .

ثم يضرب الجسر على جهنم ، وتحل الشفاعة » ، وسيأتى قوله : فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون - أى يتجلى لهم صفته التى هو عليها - من الجلال والكمال والتعالى والجمال - بعد أن رفع الموانع عن أبصارهم ، فيتبعونه : أى يتبعون أمره ، أو ملائكته ، ورسله الذين يسوقونهم إلى الجنة . والله أعلم .

والدعوى : الدعاء . قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **دعواهم فيها سبحانك اللهم** ﴾ [1] أى : دعاؤهم ، والكلاليب : جمع كلوب . والسعدان نبت كثير الشوك شوكه كالخطاطيف والمحاجن ، ترعاه الإبل ، فيطيب لبنها . تقول العرب : مرعى ولا كالسعدان . والموبق : المهلك - أوبقه ذنبه : أهلكه ، ومنه الحديث : اجتنبوا السبع الموبقات : وقوله تعالى : ﴿ **أو يوبقهن بما كسبوا** ﴾ والمجَازَى : الذى جوزى بعمله .

---

(١) ١٠ : يونس .

بيان القول فى كشف الساق بحيث لم يبق فيه لأحد ريب ، ولا مخالفة ، ولا شقاق :

وقوله : ﴿ **فيكشف عن ساق** ﴾ (١) . كشف الساق عبارة عن عظم الأمر وشدته . ذكره ابن المبارك . قال : أخبرنا أسامة بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **يوم يكشف عن ساق** ﴾ . قال : يوم كرب وشدة . أخبرنا ابن جريج عن مجاهد قال : شدة الأمر وجده . قال مجاهد وقال ابن عباس : هى أشد ساعة فى القيامة .

وقال أبو عبيدة : إذا اشتد الأمر أو الحرب قيل : كشف الأمر عن ساقه .

والأصل فيه أن من وقع فى شيء يحتاج إلى الجد شمر عن ساقه ، فاستعير الساق ، والكشف عنها فى موضع الشدة ، وكذا قال القتبى . قال : ﴿ **يوم يكشف عن ساق** ﴾ . هذا من الاستعارة ، فسمى الشدة ساقا ، لأن الرجل إذا وقع فى الشدة شمر عن ساقه ، فاستعيرت فى موضع شدة ، قال الشاعر :

وكنت إذا جارى دعا لمصونة أشمر حتى ينصف الساق مئزرى

وقال آخر :

فتى الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقال آخر يصف سنة شديدة :

قد شمرت عن ساقها !

وقال آخر :

كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر البراح

---

(١) ٤٢ : القلم .

وقال آخر :

أبشر عناق .... إنه شر باق
قد سَنَّ لى قومك ضرب الأعناق
وقامت الحرب بنا على ساق

والشعر فى هذا المعنى كثير ..

وقيل : يكشف عن ساق جهنم .

وقيل : عن ساق العرش .

فأما ما روى أن الله تعالى يكشف عن ساق يوم القيامة ، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة كما فى صحيح البخارى ؛ فإنه تَعالَى[1] على التبعيض والأعضاء ، وأن ينكشف ويتغطى . ومعناه : أى يكشف على العظيم من أمره .

وقال الخطابى : إنما جاء ذكر الكشف عن الساق على معنى الشدة فيحتمل أن يكون معنى الحديث : أنه يبرز من أهوال يوم القيامة وشدتها ما يرتفع معه سواتر الامتحان ، فيميز عند ذلك أهل اليقين والإخلاص فيؤذن لهم فى السجود ، وينكشف الغطاء عن أهل النفاق ، فتعود ظهورهم طبقا واحداً ، لا يستطيعون السجود . قال : وقد تأوله بعض الناس فقال : لا ينكر أن يكون الله – سبحانه – قد يكشف لهم عن ساق لبعض المخلوقين من ملائكته أو غيرهم ، فيجعل ذلك سببا لبيان ما شاء من حكمه فى أهل الإيمان وأهل النفاق .

قال الخطابى : وفيه وجه آخر لم أسمعه من قدوة ، وقد يحتمله معنى اللغة ؛ سمعت أبا عمر ويذكر عن أبى العباس أحمد بن يحيى النحوى – فيما عده من المعانى المختلفة الواقعة تحت هذا الاسم – قال : والساق : النفس ، ومنه قول على – رضى الله عنه – حين راجعه أصحابه فى قتل الخوارج ،

---

(١) أى تنزه سبحانه على أن يكون له بعض مثل الساق والأعضاء .

فقال : والله لأقاتلنهم حتى ولو تلفت ساق . يريد نفسه .

وقال أبو سليمان : وقد يحتمل على هذا أن يكون المراد – التجلى لهم ، وكشف الحجب عن أبصارهم ، حتى إذا رأوه سجدوا له .

قال : ولست أقطع به القول ، ولا أراه واجبا فيما أذهب إليه من ذلك .

قال المؤلف : هذا القول أحسن الأقوال – إن شاء الله – ، وقد جاء فيه حديث حسن ذكره أبو الليث السمر قندى فى سورة : (ن والقلم) ، فقال : حدثنا الخليل بن أحمد قال : حدثنا ابن منيع قال : حدثنا هدبة قال : حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن عمارة القرشى عن أبى بردة بن أبى موسى قال : حدثنى أبى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا كان يوم القيامة مثل لكل قوم ما يعبدون فى الدنيا ، فيذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ويبقى أهل التوحيد فيقال لهم : ما تنتظرون وقد ذهب الناس ؟ فيقولون : إن لنا ربا كنا نعبده فى الدنيا ، ولم نره ، قال : وتعرفونه إذا رأيتموه ؟ فيقولون : نعم ، فيقال : فكيف تعرفونه ولم تروه ؟ قالوا : إنه لا شبيه له ، فيكشف لهم الحجاب ، فينظرون إلى الله تعالى فيخرون له سجدا ، وتبقى أقوامٌ ظهورهم مثل صياصى [1] البقر ، فيريدون السجود ، فلا يستطيعون ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **يوم يكشف عن ساق ، ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون** ﴾ فيقول الله تعالى : عبادى ، ارفعوا رءوسكم فقد جعلت بدل كل رجل منكم من اليهود والنصارى فى النار .

قال أبو بردة : فحدثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز فقال : الله الذى لا إله إلا هو . فحدثك أبوك بهذا الحديث ؟ فحلفت له ثلاث أيمان . فقال عمر : ما سمعت من أهل التوحيد حديثا هو أحب إلى من هذا ! .

---

(١) الصياصى : جمع صيص وهو القرن للظباء والبقر . ومعناه أن ظهورهم تتصلب وتكون مثل عظم القرون ، ويؤيد ذلك ما قاله أبو حامد الغزالى من أن أصلابهم تعود حديدا .

قال المؤلف : فهذا الحديث يبين لك معنى كشف الساق ، وأنه عبارة عن رؤيته -سبحانه - وهو معنى ما فى صحيح مسلم ، والحديث يفسر بعض بعضا ، فلا إشكال فيه . والحمد لله .

وقد ذكر البيهقى عن روح بن جناح عن مولى لعمر بن عبد العزيز عن أبى بردة ، عن أبى موسى ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ **يوم يكشف عن ساق** ﴾ ، قال : عن نور عظيم ، يخرون له سجدا ، تفرد به روح ابن جناح ، وهو شامى ، يأتى بأحاديث منكرة ، لا يتابع عليها ، وموالى عمر ابن عبد العزيز فيهم كثرة .

قال المؤلف : الحديث الذى قبله أبين وأصح إسناداً فليعول عليه . وقد هاب الإمام أبو حامد الغزالى القول فيه ، وأشفق من تأويله ، فقال : - فى كتاب كشف علم الآخرة - ثم يكشف الجليل عن ساقه ، فيسجد الناس كلهم تعظيما له ، وتواضعا إلى الكفار الذين قد أشركوا به أيام حياتهم ، وعبدة الحجارة والخشب ، وما لم ينزل به سلطانا ، فإن صياصى أصلابهم تعود حديدا ، فلا يقدرون على السجود ، وهو قوله تعالى : ﴿ **يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون** ﴾ .

وروى البخارى فى تفسيره . مسندا إلى رسول الله ﷺ : قال : يكشف الله عن ساقه يوم القيامة فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، وقد أشفقت من تأويل الحديث ، وعدلت عن منكريه ، وكذا أشفقت من صفة الميزان ، وزيفت قول واصفيه ، وجعلته متحيزا إلى العالم الملكوتى ؛ فإن الحسنات والسيئات أعراض ، ولا يصح وزن الأعراض إلا بميزان ملكوتى .

قال المؤلف : قد ذكرنا الميزان ، وبينا القول فيه ، وفى الأعمال الموزونة غاية البيان بالأخبار الصحيحة والحسان . وبينا القول هنا فى كشف الساق بحيث لم يبق فيه لأحد ريب ، ولا مخالفة ، ولا شقاق .

فـلله الحمد على ما به أنعم ، وفهم وعلم .

البـاب التاسـع

على الصـــراط

بسم الله الرحمن الرحـيم

وإنْ مِنكُم إلا واردُهـا ...
كان عَلَى رَبِّك حَتْمـا مَقْضِياً ...
ثم نُنَجِّى الذين اتَّقَوْا ...
ونذَرُ الظَّالِمِينَ فيها جِثِيـا ...

[٧١ – ٧٢ : مريـم]



بين يدى البـاب الأخير :

.. وتمضى المسيرة إلى غايتها ..

ويقترب بنا (الإمام) رويدا رويدا من النهاية ..

نهاية أطول يوم فى تاريخ الكون ...

ويالها من نهاية ! إما إلى جنة .. وإما إلى نار .. إلى دار شقوة أو رشاد .. ولكن كيف العبور ؟

يحدثنا الإمام القرطبى عن الصراط .. والقناطر السبع .. ويصفه لنا مبينا أن الناس (يَجُوزُونه) بقدر إيمانهم وأعمالهم .

ثم يجيب عن تساؤلات كثيرا ما تخطر بالبال - وهو العالم الفقيه المتمكن :

* ما المراد بأنه أدق من الشعرة ، وأحد من السيف ؟
* ما معنى الورود فى قوله تعالى : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ؟ ﴾ .
* من أولئك الذين لا يقفون على الصراط طرفة عين ؟
* ماذا يساعد على جواز الصراط فى أمن وسلامة ؟
* ما المواطن الثلاثة التى لا يخطئها النبى ﷺ ؟
* من يتلقى الأنبياء وأممهم بعد الصراط ؟

وأخيرا يحدثنا عن (صراط ثانٍ) وما جاء فيه من أحاديث ..

وأراك تسابق الأحداث لتتم ما بدأت ولتشهد البشرية وهى تجوز الصراط !!

نسأل الله العظيم ، رب العرش العظيم أن يتوفانا مسلمين ، وأن يجعلنا من عباده الفائزين الناجين . آمين .

(باب)
كيف الجواز على الصراط وصفته

ومن يحبس عليه ، ويزل عنه ، وفى شفقة النبى ﷺ على أمته عند ذلك وفى ذكر القناطر قبله ، والسؤال عليها ، وبيان قوله تعالى : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾

القناطر السبع قبل الصراط والسؤال عليها :

روى عن بعض أهل العلم أنه قال : لن يجوز أحد الصراط حتى يسأل فى سبع قناطر :

فأما القنطرة الأولى : فيسأَل عن : (الإيمان بالله) ، وهى : « شهادة أن لا إله إلا الله » . فإن جاء بها مخلصا – والإخلاص قول وعمل – جاز [1] .

ثم يُسأَل على القنطرة الثانية عن : (الصلاة) ، فإن جاء بها تامة – جاز .

ثم يُسأَل على القنطرة الثالثة عن : (صوم رمضان) ، فإن جاء به تامًّا جاز .

ثم يُسأَل على القنطرة الرابعة عن : (الزكاة) ، فإن جاء بها تامة جاز .

ثم يُسأَل فى الخامسة عن : (الحج والعمرة) ، فإن جاء بهما تامتَيْن جاز .

ثم يُسأَل فى القنطرة السادسة عن : (الغُسْل والوضوء) ، فإن جاء بهما تامين جاز .

---

(١) أى عبر ومر .. ونقول : جواز المرور ، والجوازات .

ثم يسأل فى السابعة – وليس فى القناطر أصعب منها – فيسأل عن : (ظُلامات الناس) [١] .

أهل الموقف وتجلى الرب لهم :

وذكر أبو حامد فى كتاب (كشف علم الآخرة) : أنه لم يبق فى الموقف إلا المؤمنون والمسلمون ، والمحسنون ، والعارفون ، والصِّدِّيقون ، والشهداء ، والصالحون ، والمرسلون ، ليس فيهم مرتاب ، ولا منافق ، ولا زنديق [٢] ، فيقول الله تعالى : يا أهل الموقف ، من ربكم ؟ فيقولون : الله ، فيقول لهم : أتعرفونه ؟ فيقولون : نعم ، فيتجلى لهم ملك عن يسار العرش ، لو جعلت البحار السبع فى نقرة إبهامه لما ظهرت ، فيقول لهم : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، فيتجلى لهم الرب – سبحانه – فى صورة غير صورته التى كانوا يعرفونه ، وسمعوا وهو يضحك ، فيسجدون له جميعهم ، فيقول : أهلا بكم ، ثم ينطلق بهم – سبحانه – إلى الجنة ، فيتبعونه ، فيمر بهم على الصراط . والناس أفواج : المرسلون ، ثم النبيون ، ثم الصديقون ، ثم الشهداء ، ثم المؤمنون ، ثم العارفون ، ثم المسلمون : منهم المكبوب لوجهه ، ومنهم المحبوس فى الأعراف ، ومنهم قوم قصروا فى تمام الإيمان : فمنهم من يجوز الصراط على مائة عام ، وآخر يجوز على ألف ، ومع ذلك كله ، لن تحرق النار من رأى ربه عيانا ، لا يضام [٣] فى رؤيته !.

توهم نفسك إذا صرت على الصراط :

فتوهم نفسك يا أخى إذا صرت على الصراط ، ونظرت إلى جهنم تحتك سوداء مظلمة ، قد لظى سعيرها ، وغلا لهيبها ، وأنت تمشى أحيانا ، وتزحف أخرى !!، قال :

---

(١) ما أوقعه عليهم من ظلم ، وما لهم فى ذمته من حقوق .

(٢) الزنديق : المقصود به من كان لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية ، أو من كان يبطن الكفر ويظهر الإيمان .

(٣) الضيم : الذل والإهانة ، ولكن رؤيته لله تحول بينه وبين الضيم ؛ فهو عزيز بعزة الله .

أبتْ نفسى تتوب ؛ فما احتيالى إذا برز العباد لذى الجلالِ ؟
وقاموا من قبورهمُ سُكَارى بأوزارٍ كأمثـــالِ الجبـــالِ
وقد نُصِبَ الصراطُ لكى يجوزوا فمنهم من يُكَبُّ على الشمالِ
ومنهم من يسير لدار عَدْنٍ (١) تَلَقَّـــاه العـــرائس بالغـــوالى
يقول له المهيمن : يا وليى غفرت لك الذنوب ؛ فلا تبالى !

وقال آخر :

إذا مُدَّ الصراطُ على جَحيمٍ تصولُ على العُصَاةِ وتستطيل
فقوم فى الجحيم لهم ثبور وقوم فى الجنان لهم مقيل
وبان الحقُّ وانكشف الغطاء وطال الويل واتصل العويل

كيف الجـواز على الصــراط :

وذكر مسلم من حديث أبى هريرة : « فيأتون محمداً ﷺ فيؤذن لهم وترسل الأمانة والرحم ، فيقومان جنبتى الصراط يمينا وشمالا ، فيمر أولهم كالبرق الخاطف » .

قال : قلت : بأبى أنت وأمى ، وأى شىء كمر البرق ؟ قال : « ألم تر إلى البرق كيف يمر ويرجع فى طرفة عين ؟ ثم كمر الريح ، ثم كمر الطير وشد الرِّجال (٢) ، تجرى بهم أعمالهم ، ونبيكم ﷺ قائم على الصراط يقول : رب سلم سلم ، حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجىء الرجل ولا يستطيع السير إلى زحفا » .

وصـــف الصـــراط :

قال : « وفى حافتى الصراط كلاليب معلقة ، مأمورة بأخذ من أمرت بأخذه ، فمخدوش ناج ، ومكردس فى الناس ، والذى نفس محمد بيده : إن قعر جهنم لسبعون خريفا » .

---

(١) دار عدن : أى إقامة . وهى الجنة .
(٢) الشد : العدو والجرى .

وروى من حديث حذيفة أيضا ، وذكر مسلم أيضا من حديث أبى سعيد الخدرى وفيه : « ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ، ويقولون : اللهم سلم سلم » قيل : يا رسول الله ، وما الجسر ؟ قال : « دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شوكة يقال لها : السعدان : فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق ، وكالريح ، وكالطير ، وكأجاويد الخيل والركاب : فناج مسلم ، ومخدوس مرسل ، ومكردس فى نار جهنم » . الحديث . وسيأتى بتمامه إن شاء الله تعالى .

وفى رواية : قال أبو سعيد الخدرى : بلغنى أن الجسر أدق من الشعر ، وأحد من السيف . وفى رواية : « أرق من الشعر » [رواها مسلم] .

وخرج ابن ماجه حديث أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يوضع الصراط بين ظهرانى جهنم على حسك كحسك السعدان ثم يستجيز الناس فناج مسلم ، ومخدوج به ، ثم ناج ومحتبس به ، ومنكوس فيها » .

وذكر ابن المبارك قال : حدثنا هشام بن حسان عن موسى عن أنس عن عبيد بن عمير : « أن الصراط مثل السيف على جسر جهنم وأن لجنبتيه كلاليب وحسكا ، والذى نفسى بيده ، إنه ليؤخذ بالكلوب الواحد أكثر من ربيعة ومضر » .

وأخبرنا رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبى هلال قال : « بلغنا أن الصراط يوم القيامة يكون على بعض الناس أدق من الشعر ، وعلى بعض الناس مثل الوادى الواسع » .

يجوز الناس على الصراط على قدر إيمانهم وأعمالهم :

قال : وأخبرنا عوف عن عبد الله بن سفيان العقبلى قال : « يجوز الناس يوم القيامة على الصراط ، على قدر إيمانهم وأعمالهم ، فيجوز الرجل كالطرف فى السرعة ، وكالسهم المرمى ، وكالطائر السريع الطيران ، وكالفرس الجواد

المضمر (١) ، ويجوز الرجل يعدو عدواً ، والرجل يمشي مشيا حتى يكون آخر من ينجو يحبو حبوا » .

وذكر هناد بن السرى : حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا سفيان حدثنا سلمة بن كهيل عن أبى الزعراء قال : قال عبد الله : « يأمر الله بالصراط فيضرب على جهنم » . قال : « فيمر الناس على قدر أعمالهم أولهم كلمح البرق ، ثم كمر الريح ، ثم كأسرع البهائم ، ثم كذلك حتى يمر الرجل سعيا ، وحتى يمر الرجل ماشيا ، ثم يكون آخرهم يتلبط (٢) على بطنه ، يقول : يارب ، لم أبطأت بى ؟ فيقول : لم أبطىء بك إنما أبطأ بك عملك » .

قال : وحدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن مسلم عن قتادة قال : قال عبد الله بن مسعود : « تجوزون الصراط بعفو الله ، وتدخلون الجنة برحمة الله وتقتسمون المنازل بأعمالكم » .

أبو داود عن معاذ بن أنس الجهنى عن النبى ﷺ قال : « من حمى مؤمنا من منافق أراه قال : بعث الله مَلكا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مؤمنا بشىء يريد شينه (٣) حبسه الله عز وجل على جسر جهنم حتى يخرج مما قال » .

وقال رسول الله ﷺ : « الزالُّون (٤) على الصراط كثير ، وأكثر من يزل عنه النساء » . [ذكره أبو الفرج بن الجوزى] .

---

(١) الجواد المضمَر : خيل السباق .. يتبع معها نظام خاص فى شرابها وطعامها حتى تظل (ضامرة البطن) مما يساعدها على السبق . والجواد : الحصان والمضمر الذى ضمرت بطنه وصغرت فهو أسرع وأشد سبقا .

(٢) تلبط : اضطجع وتمرغ فى حيرة من أمره ، وضرب بنفسه الأرض من أمر يغشاه (مفاجأة) .

(٣) شينه : الشين العيب ضد الزين ، وقد قال الشافعى : من نصح أخاه سرا فقد نصحه وزانه ، من نصيحه جهرا فقد فضحه وشانه .

(٤) جمع زالّ وهو من تزل به القدم فيسقط من الصراط إلى النار .

وقال المصطفى ﷺ : « فإذا صار الناس على طرف الصراط نادى مَلَك من تحت العرش : يا فِطْرَةَ (١) المِلِك الجبار جوزوا على الصراط ، وليقف كل عاصٍ منكم وظالم . فيا لها من ساعة ما أعظم خوفها !!، وما أشد حرها !! يتقدم فيها من كان فى الدنيا ضعيفا مَهينا ، ويتأخر عنها من كان فى الدنيا عظيما مكينا (٢) ، ثم يؤذن لجميعهم بعد ذلك بالجواز على الصراط على قدر أعمالهم فى ظلمتهم وأنوارهم ، فإذا عصف الصراط بأمتى نادوا : وا محمداه !، وا محمداه !، وا محمداه !؛ فأبادر من شدة إشفاقى عليهم وجبريل آخذ بحجزتى (٣) ، فأنادى رافعا صوتى : رب ، أمتى .. أمتى ، لا أسألك اليوم نفسى ، ولا فاطمة ابنتى ، والملائكة قيام عن يمين الصراط ويساره ، ينادون : رب سَلِّم سلِّم . وقد عظمت الأهوال ، واشتدت الأوجال (٤) ، والعصاة يتساقطون عن اليمين والشمال ، والزبانية يتلقونهم بالسلاسل والأغلال ، وينادونهم : أما نُهِيتُم عن كسب الأوزار ؟ أما خُوِّفْتُم عذاب النار ؟ أما أُنذِرتُم كل الإنذار ؟ أما جاءكم النبى المختار ؟ » . [ذكره أبو الفرج ابن الجوزى أيضا فى كتاب : (روضة المشتاق والطريق إلى الملك الخلاق)] .

فتفكر الآن فيما يحل بك من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته ، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها ، وقد كلفت أن تمشى على الصراط مع ضعف حالك ، واضطراب قلبك ، وتزلزل قدمك ، وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك من المشى على بساط الأرض ، فضلا عن حدة الصراط فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدته ، واضطررت إلى أن ترفع القدم الثانى ، والخلائق بين يديك يزلون ويعثرون ، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب ، وأنت تنظر

---

(١) فطرة الملك الجبار : خلق الله . وجوزوا : اعبروا .

(٢) مكينا : ذا مكانة ووجاهة فى الناس .

(٣) الحجْزة : معقد الإزار وموضع التكة من السراويل .

(٤) الأوجال : المخاوف . مفردها وجل وهو الخوف وفى القرآن : ﴿ **قالوا : لا توجل** ﴾ .

إليهم كيف ينكسون ؟ فتسفل إلى جهة النار رءوسهم ، وتعلو أرجلهم ، فيا له من منظر ما أفظعه ! ومرتقى ما أصعبه !، ومجاز ما أضيقه !

(فصل)

فى توضيح المراد من وصف الصراط بأنه : أدق من الشعر وأحد من السيف

ذهب بعض من تكلم على أحاديث هذا الباب فى وصف الصراط بأنه : « أدق من الشعر وأحد من السيف » أن ذلك راجع إلى « يسره وعسره على قدر الطاعات والمعاصى » . ولا يعلم حدود ذلك إلا الله تعالى لخفائها وغموضها ، وقد جرت العادة بتسمية الغامض الخفى : (دقيقا) . فضرب المثل له : بدقة الشعر ، فهذا - والله أعلم - من هذا الباب .

ومعنى قوله : « وأحد من السيف » أن الأمر الدقيق الذى يصعد من عند الله تعالى إلى الملائكة فى إجازة الناس على الصراط يكون فى نفاد حد السيف ومضيه إسراعا منهم إلى طاعته وامتثاله . ولا يكون له مرد ، كما أن السيف إذا نفذ بحدة وقوة ضاربة فى شىء لم يكن له بعد ذلك مرد .

وإما أن يقال : إن الصراط نفسه أحد من السيف ، وأدق من الشعر ، فذلك مرفوع بما وصف من أن الملائكة يقومون بجنبيه ، وأن فيه كلاليب وحسكا ، وأن من يمر به يقع على بطنه ، ومنهم من يزل ثم يقوم .

وفيه أن من الذين يمرون عليه من يعطى النور بقدر موضع قدميه . وفى ذلك إشارة إلى أن للمارين عليه مواطىء الأقدام ، ومعلوم أن رقة الشعر لا يحتمل هذا كله !!

وقال بعض الحفاظ : إن هذه اللفظة ليست بثابتة .

قال المؤلف : ما ذكره القائل مردود بما ذكرنا من الأخبار ، وأن الإيمان يجب بذلك ، وأن القادر على إمساك الطير فى الهواء ، قادر على أن يمسك عليه

المؤمن ، فيجريه أو يمشيه ، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا عند الاستحالة ولا استحالة فى ذلك ؛ للآثار الواردة فى ذلك ، وثباتها بنقل الأئمة العدول : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ [١] .

وعن يحيى بن اليمان : رأيت رجلا نام – وهو أسود الرأس واللحية – شابٌّ يملأ العين ، فرأى فى منامه ، كأن الناس قد حشروا ، وإذا بنهر من نار ، وجسر يمر الناس عليه ، فدعى فدخل الجسر ؛ فإذا هو كحد السيف يمر يمينا وشمالا ، فأصبح أبيض الرأس واللحية .

(فصل)

فى بيان معنى الورود فى قوله عز وجل : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [٢]

روى عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وكعب الأحبار ، أنهم قالوا : الورود : المرور على الصراط . [رواه السدى عن ابن مسعود عن النبى ﷺ] .

وذكر أبو بكر النجاد ، سلمان قال : حدثنا أبو الحسن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عبدة السليطى ، حدثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن سعيد البوشنجى قال : حدثنا سليم بن منصُور بن عمار قال : حدثنى أبى منصور بن عمار قال : حدثنى بشر بن طلحة الخزامى عن خالد بن الدريك ، عن يعلى ابن منبه ، عن رسول الله ﷺ قال : « تقول النار للمؤمن يوم القيامة : جُزْ [٣] يا مؤمن فقد أطفأ نورُك لهبى » . وقيل : الورود : الدخول .

---

(١) ٤٠ : النور .

(٢) ٧١ : مريم .

(٣) جُزْ : فعل أمر أى : اعبر ، وتقدم ، وسر ، وواصل المسيرة إلى النهاية .

روى عن ابن مسعود ، وعن ابن عباس أيضا ، وخالد بن معدان ، وابن جُريج ، وغيرهم ، وحديث أبى سعيد الخدرى نص فى ذلك على ما يأتى ، فيدخلها العصاة بجرائمهم ، والأولياء بشفاعتهم .

وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الوِرد : الدخول ، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم » ، ﴿ **ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيًا** ﴾ (١) .

وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا سفيان عن رجل عن خالد بن معدان قال : قالوا : ألم يعدنا ربنا أن نرد النار ؟ فقال : إنكم مررتم بها وهى خامدة .

قال ابن المبارك ، وأخبرنا سعيد الجيزى ، عن أبى الليل عن غنيم عن أبى العوام ، عن كعب أنه تلا هذه الآية : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ قال : هل تدرون ما ورودها ؟ قالوا : الله أعلم . قال : فإن ورودها أن يجاء بجهنم ، وتمسك للناس ، كأنها متن (٢) إهالة ، حتى إذا استقرت عليها أقدام الخلق برهم وفاجرهم نادى مناد : أن خذى أصحابك ، وذرى أصحابى ، فتخسف بكل ولى لها ، لهى أعلم بهم من الوالدة بولده ، وينجو المؤمنون .

وقال مجاهد : ورود المؤمنين هو الحمى التى تصيب المؤمن فى دار الدنيا وهى حظ المؤمن من النار ، فلا يردها .

وأسند أبو عمر بن عبد البر فى ذلك حديثا فى التمهيد عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ عاد مريضا من وعك به ، فقال النبى ﷺ : « أبشر فإن الله تعالى يقول : هى نارى أسلطها على عبدى المؤمن لتكون حظه من النار » .

وقالت طائفة : الورود : النظر إليها فى القبر ، فينجى منها الفائز ، ويصلاها من قدر عليه دخولها ، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله .

---

(١) ٧٢ : مريم .

(٢) متن إهالة : المتن : الظهر .

واحتجوا بحديث ابن عمر : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى » . الحديث .

وقيل : المراد بالورود الإشراف على جهنم ، والاطلاع عليها ، والقرب منها ، وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب ، وهو بقرب جهنم فيرونها ، وينظرون إليها فى حالة الحساب ، ثم ينجى الله الذين اتقوا مما نظروا إليه ، ويصار بهم إلى الجنة ، ونذر الظالمين ، أى يؤمر بهم إلى النار ، قال الله تعالى : ﴿ **ولما ورد ماء مدين** ﴾ (١) أى : أشرف عليه ، لا أنه دخله .

وروت حفصة أن رسول الله ﷺ قال : « لا يدخل النار أحد من أهل بدر ، والحديبية » . قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأين قول الله عز وجل : ﴿ **وإن منكم إلا واردها ؟** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : ﴿ **ثم ننجى الذين اتقوا** ﴾ [خرجه مسلم من حديث أم مبشر ، قالت : سمعت رسول الله ﷺ عند حفصة ... الحديث] .

وقيل : الخطاب للكفار فى قوله تعالى : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ روى وكيع عن شعبة عن عبد الله بن السائب عن رجل عن ابن عباس أنه قال : فى قول الله عز وجل : ﴿ **وإن منكم إلا ورادها** ﴾ قال : هذا خطاب للكفار ، وروى عنه أنه كان يقرأ : ﴿ **وإن منهم** ﴾ طردا على الآيات السابقة التى قبلها عن الكفار قوله : ﴿ **فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم ...** ﴾ (٢) ﴿ **وأيهم أشد** ﴾ (٣) ﴿ **ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا . وإن منهم ..** ﴾ (٤) . وكذلك قرأ عكرمة وجماعة .

وقالت فرقة : المراد « منكم » : الكفرة . والمعنى : قل لهم يا محمد : وإن منكم .

---

(١) ٢٣ : القصص .

(٢) ٦٨ : مريم .

(٣) بعض الآية ٦٩ من سورة مريم .

(٤) الآية ٧٠ من سورة مريم وبعض الآية ٧١ على قراءة ابن عباس .

وقال الجمهور : المخاطب العالم كله ، ولابد من ورود الجميع ، وعليه نشأ الخلاف فى الورود كما ذكرنا ، والصحيح : أن الورود الدخول ؛ لحديث أبى سعيد كما ذكرنا .

وفى مسند الدارمى أبى محمد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يرد الناس النار ، ثم يصدرون عنها بأعمالهم فأولهم كلمح البرق ، ثم كالريح ، ثم كحضر الفرس ، ثم كالراكب فى رحله ، ثم كشد الرجل فى مشيه » [1] .

وقال ﷺ : « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم » [خرجه الأئمة] .

قال الزهرى : كأنه يريد هذه الآية : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ [ذكره أبو داود الطيالسى فى مسنده] .

وهذا يبين لك ما ذكره ؛ لأن المسيس حقيقته فى اللغة : المماسة إلا أنها تكون بردا وسلاما على المؤمنين ، وينجون منها سالمين ، قال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : ألم يقل ربنا إنا نرد النار ؟ فيقال : قد وردتموها فلقيتموها رَماداً .

قلت : والذى يجمع شتات الأقوال أن يقال :

إن من وردها ، ولم تؤذه بلهبِها وحرها ، فقد أُبعد عنها ونُجِّى منها .

نجانا الله منها بفضله وكرمه ، وجعلنا ممن وردها سالما ، وخرج منها غانما .

وروى ابن جريج عن عطاء قال : قال أبو راشد الحرورى لابن عباس : ﴿ **لا يسمعون حسيسها** ﴾ [2] فقال له ابن عباس : أمجنون أنت ؟ فأين قوله

---

(١) شد الرجل : إسراعه فى المشى .
(٢) الأنبياء : ١٠٢ .

تعالى : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ وقوله : ﴿ فأوردهم النار ﴾ [1]
وقوله : ﴿ إلى جهنم وِرْداً ؟ ﴾ [2] .

ولقد كان من دعاء من مضى : « اللهم أخرجنى من النار سالما وأدخلنى الجنة فائزاً » .

وقد أشفق كثير من العلماء من تحقق الورود [3] ، والجهل بالصَّدَر .
كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه يقول : (ليت أمى لم تلدنى !) فتقول له امرأته : يا أبا ميسرة ، إن الله قد أحسن إليك وهداك إلى الإسلام ، قال : أجل ، ولكن الله قد بين لنا أنا واردو النار ، ولم يبين لنا أنا صادرون .

وعن الحسن قال : قال رجل لأخيه : أى أخى ، هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال : نعم ، قال : فهل أتاك أنك خارج منها ؟ قال : لا . قال : ففيم الضحك إذا ؟ قال : فما رؤى ضاحكا حتى مات !!

وروى عن ابن عباس أنه قال – فى هذه المسألة – لنافع بن الأزرق الخارجى : (– أما أنت وأنا – فلابد أن نَرِدَها ؛ فأما أنا فينجينى الله منها ، وأما أنت فما أظنه ينجيك !) .

وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا إسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى عاصم قال : بكى ابن رواحة ، فبكت امرأته ، فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : بكيت حين رأيتك تبكى !

فقال عبد الله : إنى علمت أَنى وارد النار ، فما أدرى أناجٍ منها أم لا !

---

(١) ٩٨ : هود .
(٢) ٨٦ : مريم .
(٣) الورود والصَّدَر : معنيان يأتيان مع الماء : فعند الإقبال عليه للشرب يكون الورود ، وعند إنجاز الشرب واستيفاء المطلوب يكون الصدر والانصراف ومن هنا كان الوارد والصادر . هذا مقبل آتٍ وذاك منصرف .

وفى معناه قيل :

وقد أتانا ورود النار ضاحية [١] حقا يقينا ولما يأتنا الصَّدَرُ [٢]

(فصل)

فيمن لا يوقف على الصراط طرفة عين

ذكر الوائلى أبو نصر ، فى كتاب الإبانة : أخبرنا محمد بن الحجاج قال : أخبرنا محمد بن عبد الرحمن الربعى ، حدثنا على بن الحسين أبو عبيد قال : حدثنا زكريا بن يحيى أبو السكن قال : حدثنى عبد الله بن صالح الهمانى ، قال : حدثنى أبو همام القرشى عن سليمان بن المغيرة عن قيس ابن مسلم عن طاووس عن أبى هريرة قال : قال لى رسول الله ﷺ : « علم الناس سنتى وإن كرهوا ذلك ، وإن أحببت ألا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدث فى دين الله حدثا برأيك » قال : وهذا غريب الإسناد ، والمتن حسن .

* * *

(١) يقال فعله ضاحيةً : أى علانية ، وهو يقصد أن ورود النار جاء معلنا عنه فى القرآن فهو ثابت حقا ويقينا .

(٢) ولما يأتنا الصَّدَر : أى حتى الآن لا نجد شيئا عن الصدر وهو الانصراف عن النار والخروج منها .. ولعله يقصد أنه لا يجد ذلك فى كتاب الله .

بـــاب

(ما يعين على جواز الصراط فى أمن وسلامة)

[إحسان الصدقة – قضاء حاجة الأرملة – الإعراض عن الدنيا وأهلها – الإقبال على الآخرة والعمل لها – من يكن المسجد بيته]

– إحسان الصدقة فى الدنيا وقضاء حاجة الأرملة :

روى أبو نعيم قال : حدثنا سليمان بن أحمد قال : حدثنا خير بن عرفة قال : حدثنا هانى بن المتوكل قال : حدثنا أبو ربيعة سليمان بن ربيعة عن موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب القرظى ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « من أحسن الصدقة فى الدنيا جاز على الصراط . ومن قضى حاجة أرملة أخلف الله فى تركته » .

قال : هذا حديث غريب من حديث محمد . تفرد به سليمان عن موسى .

– الإعراض عن الدنيا وأهلها ، والإقبال على الآخرة والعمل لها :

وذكر الختلى أبو القاسم ، حدثنا عثمان بن سعيد أبو عمرو الأنطاكى قال : حدثنا على بن الهيثم ، حدثنا إبراهيم بن بشار ، حدثنا شيخ يكنى أبا جعفر قال : (رأيت فى منامى كأنى واقف على قناطر جهنم ، فنظرت إلى هول عظيم ، فجعلت أفكر فى نفسى ، كيف العبور على هذه ؟!

فإذا قائل يقول من خلفى : يا عبد الله ، ضع حملك واعبر ، فقلت : وما حملى ؟ قال : دع الدنيا واعبر) !

– اتخاذ المساجد بيوتا ، فهى بيوت المتقين :

قال : وحدثنى أبو بكر خليفة الحارث بن خليفة قال : حدثنا عمرو ابن جرير ، حدثنى إسماعيل بن أبى خالد ، عن قيس بن أبى حازم قال : سمعت أبا الدرداء يقول لابنه : يا بنى : لا يكن بيتك إلا المسجد ؛ فإن المساجد

بيوت المتقين ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من يكن المسجد بيته ضمن الله له بالروح والرحمة والجواز على الصراط » .

قلت : وهذا الحديث يصحح ما ذكرناه من (الرؤيا) ؛ فإن من سكن المسجد واتخذه بيتا ، وأعرض عن الدنيا وأهلها ، وأقبل على الآخرة وعمل لها - جاز على الصراط .

(باب)

ثلاثة مواطن لا يخطئها النبى ﷺ لعظم الأمر فيها وشدّته

روى الترمذى عن أنس قال : سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لى يوم القيامة ، قال : « أنا فاعل ذلك إن شاء الله » .

قال : فأين أطلبك ؟

« قال : أول ما تطلبنى على الصراط » .

قلت : فإن لم ألقك ؟

قال : « فاطلبنى عند الميزان » .

قلت : فإن لم ألقك عند الميزان ؟

قال : « فاطلبنى عند الحوض ، فإنى لا أخطى هذه الثلاثة مواطن » .
قال : هذا حديث حسن .

وقد تقدم من حديث عائشة أنه عليه السلام قال : « أما ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً :

١ - عند الميزان .
٢ - وعند تطاير الصحف .
٣ - وعند الصراط » .

(باب)

فى تلقى الملائكة للأنبياء وأممهم بعد الصراط وفى هلاك أعدائهم

روى ابن المبارك عن عبد الله بن سلام قال :

« إذا كان يوم القيامة جمع الله الأنبياء نبيا نبيا ، وأمة أمة ، حتى يكون آخرهم مركزا محمد وأمته ، ويضرب الجسر على جهنم وينادى مناد : أين أحمد وأمته ؟ فيقوم نبى الله ﷺ : وتتبعه أمته : برها وفاجرها ، حتى إذا كان على الصراط طمس الله أبصار أعدائه فتهافتوا فى النار يمينا وشمالا ويمضى النبى ﷺ والصالحون معه ﴿ **فتتلقاهم الملائكة** ﴾ ، فيدلونهم على طريق الجنة : على يمينك .. على شمالك ، حتى ينتهى إلى ربِّه ، فيوضع له كرسى من الجانب الآخر .

ثم يدعى نبى نبى ، وأمة أمة ، حتى يكون آخرهم نوحا ، رحم الله نوحا » .

* * *

(باب) ذكر الصراط الثانى : (وهو القنطرة التى بين الجنة والنار)

اعلم رحمك الله : أن فى الآخرة صراطين :

أحدهما : مجاز [1] لأهل المحشر كلهم : ثقيلهم وخفيفهم ، إلا من دخل الجنة بغير حساب ، أو من يلتقطه عنق النار .

---

(١) مجاز : معبر يجتازونه ويعبرون عليه .

فإذا خلص من خلص من هذا الصراط الأكبر الذى ذكرناه - ولا يخلص منه إلا المؤمنون الذين علم الله منهم أن القصاص لا يستنفد حسناتهم - حبسوا على صراط خاص لهم ، ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد إن شاء الله ؛ لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم ، الذى يسقط فيه من أوبقه [1] ذنبه ، وأربى على الحسنات - بالقصاص - جرمه [2] !.

وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « يخلص المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ، ونقوا ، أذن لهم فى دخول الجنة ، فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان له فى الدنيا » [3] .

(فصل)

فى بيان ما جاء فى أحاديث الصراط الثانى

قلت : معنى : « يخلص المؤمنون من النار » أى : يخلصون من الصراط المضروب على النار .

ودل على هذا الحديث على أن المؤمنين فى الآخرة مختلفو الحال . قال مقاتل : إذا قطعوا جسر جهنم حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا وطيبوا [4] ، قال لهم رضوان وأصحابه : سلام عليكم ، بمعنى التحية طبتم ، فادخلوها خالدين .

---

(١) أوبقه : أهلكه .

(٢) أربى على الحسنات - بالقصاص - جرمه . أى زاد جرمه على حسناته بسبب القصاص منه لمن لهم مظلمة عنده .

(٣) أى أن كل واحد منهم يهتدى إلى المنزل المعد له أكثر من اهتدائه إلى منزله فى الدنيا وكأنما كان يعرفه من قبل .

(٤) أصبحوا أصفياء خالصين طيبين .

وقد ذكر الدارقطنى حديثا – ذكر فيه أن الجنة بعد الصراط ، قلت : ولعله أراد بعد القنطرة ..، بدليل حديث البخارى . والله أعلم .

أو يكون ذلك فى حق من دخل النار ، وخرج بالشفاعة . فهؤلاء لا يحبسون ، بل إذا خرجوا بثوا على أنهار الجنة ، على ما يأتى بيانه فى الباب بعد هذا . إن شاء الله تعالى .

وقد صح عن النبى ﷺ . أنه قال : « أصحاب الجنة محبوسون على قنطرة بين الجنة والنار ، يسألون عن فضول [1] أموال كانت بأيديهم » .

ولا تعارض بين هذا وبين حديث البخارى ؛ فإن الحديثين مختلفا المعنى ؛ لاختلاف أحوال الناس ، وكذلك لا تعارض بين قوله – عليه السلام – : « لأَحَدهُم أهدى بمنزله فى الجنة » وبين قول عبد الله بن سلام : (إن الملائكة تدلهم على طريق الجنة يمينا وشمالا) . فإن هذا فيمن لم يحبس على قنطرة ، ولم يدخل النار ، فيخرج منها ، فيطرح على باب الجنة .

وقد يحتمل أن يكون ذلك فى الجميع ؛ فإذا وصلت بهم الملائكة إلى باب الجنة كان كل أحد منهم أعرف بمنزله فى الجنة ، وموضعه فيها منه بمنزله كان فى الدنيا . والله أعلم .

وهو معنى قوله : ﴿ **ويدخلهم الجنة عَرَّفها لهم** ﴾ [2] .

قال أكثر المفسرين :

إذا دخل أهل الجنة الجنة – يقال لهم : تفرقوا إلى منازلكم فهم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم .

وقيل : إن هذا التعريف إلى المنازل بدليل : وهو أن المَلَك الموكل بعمل العبد يمشى بين يديه .

---

(١) فضول الأموال : أى ما فضل وزاد عن حاجته الأصلية .

(٢) ٦ : محمد .

وحديث أبى سعيد الخدرى يرده . والله أعلم .

نسأل الله العظيم ، رب العرش العظيم ، أن يتوفانا مسلمين ، وأن يلحقنا بالشهداء والصالحين ، وأن يجعلنا من عباده المتقين الفائزين ، ويجعل ما كتبته خالصا لوجهه الكريم ، بمنه وكرمه ، وأن ينفعنا به ووالدينا ، وغفر الله لصاحب هذا الكتاب ولوالديه ، ولسائر المسلمين أجمعين . آمين يارب العالمين .

تم الكتاب وربنا محمود ولە المكارم والعلا والجود
وعلى النبى محمد صلواته ما ناح قُمْرِىٌّ وأورق عود

ووافق الفراغ من نسخه ، فى منتصف شهر رمضان المعظم قدره ، من شهور سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة .

على يد أقل عباد الله وأحوجهم إلى لطفه الخفى .

الحسن بن على بن منصور بن ناصر الحنفى .

غفر الله له ولوالديه ، ولمن قرأ فيه ، ودعا له بالتوبة النصُوح والمغفرة والرحمة يارب العالمين ، ولسائر المسلمين أجمعين ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ، حسبنا الله ونعم الوكيل .

* * *

انتهى بحمد الله تعالى

فهرس الكتاب



فهرس الموضوعـــات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
من يتلقى العبد المؤمن إذا قام من قبره ؟	٥٦
باب – أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟	٥٨
فصل – وقفة تأملية فيما تضمنته الأحاديث	٥٩
الباب الثانى : مع الحشود الهائلة على أرض المحشر : مشاهد الحشر الأعظم	٦٣
بين يدى هذا الباب	٦٥
باب – الحشر ومعناه	٦٧
باب – بيان الحشر إلى الموقف. كيف هو؟ وفى أرض المحشر، وذكر الصخرة	٦٩
باب – الجمع بين آيات وردت فى الكتاب فى الحشر ظاهرها التعارض	٧٤
باب – ما جاء فى حشر الناس إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا ، وفى أول من يكسى منهم، وفى أول ما يتكلم من الإنسان	٧٩
فصل : وقفة مع الأحاديث التى سبقت	٨٠
فصل : فى حكمة تقديم إبراهيم عليه السلام بالكسوة	٨٢
باب : بيان قوله تعالى : ﴿ **لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه**﴾	٨٣
فصل : هل هناك من يحشر بكفنه؟ وكيف نوفق بين ما قد يبدو من تعارض فى الأحاديث التى وردت فى هذا الشأن ؟	٨٣
باب : بشأن ما روى أن النبى ﷺ يحشر بين أبى بكر وعمر يوم القيامة	٨٥
الباب الثالث : الفزع الأكبر والهول الأعظم	٨٧
بين يدى هذا الباب	٨٩
باب : قوله النبى ﷺ من سره أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ : ﴿ **إذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت**﴾ وفى أسماء يوم القيامة	٩٠
يوم انشقاق السماء وانفطارها	٩٠

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة